

القوزاق

القوزاق

تأليف

ليون تولستوى

ترجمة

إبراهيم زكى خورشيد



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

رجل عجيب بجميع المقاييس ! خالده بجميع المقاييس أيضاً ! جمع في شخصيته الشاسعة الأبعاد النافذة البصيرة الرحبة الآفاق - كل المتناقضات ! كان أرسقراطياً في ذاته . حاول في أواخر أيامه أن يعيش حياة فلاح فقير ، فأخفق في سعيه ، وكان شهوانياً انتهى إلى رجل متطهر صارم لا يلين ! وكان عارم الحيوية يخشى الموت في كل خطوة من خطواته ، وهذه الثنائية الغريبة في شخصيته أدت به في منتصف حياته إلى هجر الكتابة في الرواية . وانقلب مسيحياً متطرفاً يدعو بحرارة إلى عقيدته في الحب والإيمان وإنكار الملكية . ورفض المؤسسات التي صنعها الإنسان كالحكومات والكنائس وبث هذه الدعوة في فيض من المقالات والرسائل والقصص والمسرحيات القائمة على التهذيب والموعظة الحسنة .

ولا شك في أن «تولستوى» ياجماع النقاد من أئمة كتاب الرواية في العالم ، وحسبه أنه كتب أعظم ملحمة في تاريخ الأدب العالمي ، ألا وهي رواية : الحرب والسلام .

ولد ليوتولستوى فى ٩ من سبتمبر ١٨٢٨ فى ضيعة والديه « ياسنايا بوليانا » بولاية كولا بروسيا ، وكانت أسرة تولستوى من أعيان الريف يرد نسبها إلى القرن السادس عشر، فقد أنعم القيصر بطرس الأكبر على جده بلقب كونت ، وتزوج أبو تولستوى الكونت نيقولاس إيلتش الأميرة مارى فولكونسكى ، فزودته بثروة لا يستهان بها ، ورزق منها خمسة أبناء من أصغرهم ليو ، ونشأ ليو فى بيئة من أعيان الطبقة الوسطى العليا فى أواخر عهد رقيق الأرض ، وأكسبته هذه البيئة نظرة النبلاء ونظرة الفلاحين !

وتوفى عنه والداه وهو بعد طفل ، فكفله أقرباؤه ، فوفروا له مدرسين تولوا تعليمه الأول ، فلما بلغ السادسة عشرة التحق بجامعة قازان ، وربما كانت هذه الجامعة أكبر مؤسسة جامعية إلى الشرق من برلين فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يجتهد فى التعليم ، بل أحس بشيء من الاحتقار للدراسة الأكاديمية ، وقضى معظم وقته يغشى دوائر المجتمع ، فقد كانت قازان حين ذاك أهم مركز اجتماعى لأعيان الروس بعد سانت بطرسبرغ وموسكو ، وكان تولستوى فى علو سنّه يذكر بالخير هذه السنوات التى قضاها فى سعادة لاهية لا يعكر صفوها شيء . على أن عقله الطلعة كان ينمو ويؤكد وجوده . وإلى هذه السنين يرد تولستوى تأثره الكبير بمؤلفات جان جاك روسو .

وفى سنة ١٨٤٧ تخلى عن دراسته الجامعية ، وأقام فى ضيعته ياسنايا ، ليعيش حياة الفلاحين ويباشر شئونها ! ولكنه ضاق بهذه الحياة ، وقضى معظم السنوات التالية فى موسكو ، وهناك أسلم نفسه لحياة الصعاليك والمنحلقين شأن الشباب فى زمانه ومن هم فى طبقته ! ومع ذلك فقد ملّ بعد حين حياة الخليلين ، كما يتبين من يومياته التى بدأ يكتبها سنة ١٨٤٧ ، وأخذ يعلم نفسه ، وينقد ذاته !

وفى سنة ١٨٥١ قرر أن يبدأ صفحة جديدة فى حياته ، فتطوع فى وحدة من وحدات المدفعية ، وراح يقضى وقته فى حياة الحامية الهادئة بقرى القوزاق . بصطاد حيناً ، ويشترك فى الحملات العارضة التى كانت تُشن على أهل الجبال . وفى سنة ١٨٥٢ أتم أول قصصه « الطفولة » وتلقى سنة ١٨٥٤ براءة تعيينه ضابطاً ، وألحق بالجيش الذى كان يحارب الأتراك على نهر الدانوب ، ثم نقل بعد أشهر قليلة إلى سفاستبول ، وظل فيها حتى انتهاء حصارها . ولما سقطت هذه القلعة أرسل إلى سانت بطرسبرغ ، وظل فيها يغشى المجتمعات والدوائر الأدبية وأثر الأولى على الأخرى ، وخاب ظنه فى رجال الأدب . ولم يستطع أن يتمشى معهم ، فقد صدمته غطرستهم الماثورة عن السادة ، واحتقر فيهم إيمانهم بمثل الأوربيين فى التقدم ! ولعل تشاحنه مع تور جنيف يبين ذلك بأجلى بيان . وفى سنة ١٨٥٧ اعتزل تولستوى الجيش .

وفى السنة نفسها ثم فى سنة ١٨٦٠ رحل تولستوى خارج البلاد ، ولم يأت معه فى عودته إلا بالحق والكراهية لحضارة الغرب المادية التى تدين بحكم الأثرياء ! وبعد رحلته الأخرى التى قام بها سنة ١٨٦٠ استقر به المقام فى ياستايا بوليانا ، وقبل منصب قاضٍ أنشئ بعد صدور قانون التحرر سنة ١٨٦١ للفصل فى المنازعات على الأرض بين الملاك والرقيق الذين كان الملاك يملكونهم من قبل ، وأنشأ مدرسة يتعلم فيها أولاد الفلاحين على مناهج مبتكرة تقوم على مواهبهم الطبيعية التى كان يؤمن بأنها أسمى شأنًا من قيم الحضارة المصنوعة ، ونشر صحيفة خصصها للارتفاع بالآراء الخاصة بالتربية ، ولكنه لم يلبث أن ملّ منصب القاضى ، وسمّ المدرسة ، وأصبح على مشارف الأزمة الوجدانية التى انتابته من بعد !

على أن هذه الأزمة لم تنضج ، وتستغل إلا بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، فقد

أجل زواجه وقوعها ! أجل كان يفكر في الزواج ، واستمر يفكر فيه مدة طويلة ، وانتهت قصته الغرامية بفاليريا أرسنيف إلى لاشي وانتابته الوسواس ، وساورته الشكوك قبل أن يخطب صوفي بهرس ، وهي شابة تصغره بستة عشر عاماً ، وقع في حبها سنة ١٨٦١ ، وتغلب على هذه الشكوك والوسواس ، وتزوجها في السنة التالية .

وعاش تولستوى بعد زواجه في ياسنايا ، يقضى بعض الوقت من السنة في موسكو ، والبعض الآخر في ضيعته وراء الفولجا ، وكانت حياته الزوجية موفقة سعيدة ، وقد زاد دخله من زراعة أراضيه وبيع كتبه ، وأخلصت له زوجته إخلاصاً عميقاً وأنجبت له تسعة أطفال .

وهذا الصراع الذي كان يدور في أعماقه عدة سنين ، هدأ واستنام بفضل هذه الحياة الهنيئة تحضى ميسرة لا يعكر صفوها عقله الكثير التساؤل ! وكانت فلسفته وقت ذاك هي أن المرء يجب عليه أن ينعم بخير ما فيه وخير ما في أسرته . ولا يحاول أن يكون أحكم من الحياة وأعقل من الطبيعة !

وبدأ تولستوى حوالى سنة ١٨٧٦ يحس بالقلق من هذه العيشة الرخية التى لا تأمل فيها ولا تفكر ، وأصبح شعوره بدنو الأجل عقدة تملكه ، وتنغص عليه حياته ، فراح يبحث بجميع وجدانه عن مبرر ديبى لحياته ، فجنح إلى الأرثوذكسية التى يدين بها الشعب راجياً أن يلتمس النجاة في دين يُسعد ملايين من الناس بالرغم من فقرهم ويؤسهم ، ولكن منطق العزة والكبرياء الذى غلب على عقله أى عليه أن يتقبل طقوس هذا الدين وشعائره ، فأنكر الكنيسة ، وخرج من قراءته الشخصية للأنجيل بمسيحية جديدة استبعد فيها جميع الغيبات والعناصر المخالفة للأخلاق ، وكانت المرحلة الحاسمة في هذا التحول هي اللحظة التى أدرك فيها أن

رسالة المسيح كلها تنحصر في هذه العبارة التي وردت في سفر متى : « لا تقاوم الشر » وأصبح هذا المبدأ الذي يقضى بالامتناع عن المقاومة - هو أساس العقيدة التي لم تلبث أن عرفت بمذهب « التولستوية » .

وقد وصف تولستوى وصفاً مفصلاً تحول العقيدة هذا في كتابه « اعتراف » الذي كتب عام ١٨٧٩ ، ونشر سنة ١٨٨٤ . وهو كتاب صادق في خياله المتوقد ، وبلاغته العارمة ، مما يرفعه إلى مرتبة اعترافات القديس أوغسطين !

ولم يتخذ تولستوى أول الأمر أية خطوة لنشر عقيدته ، وإنما فعل ذلك حين شهد البؤس الاجتماعي الفادح في زيارته أحياء موسكو البائسة القذرة ، فكانت هذه الحالة في نظره شراً مستطيراً يجب استنصاله . وزاد إيمانه بقضيته أيضاً بعد صداقته الحميمة بشير تكوف فغدت هذه العقيدة فرقة دينية لها قواعدها وأصولها ، وبدأت سنة ١٨٨٤ تكتسب الأتباع والأنصار !

وقد غير تحول تولستوى العقيدة من نظره إلى الآثار التي يبدعها ، ولكن إبداعه الأدبي لم يتوقف ، ولم يهبط مستواه ، غير أنه أصبح مختلفاً عما كان : كما اختلفت آراؤه في وظيفة هذا الإبداع الاجتماعية والخلقية . وقد عبر عن هذا كله في كتابه « ما الفن ؟ » سنة ١٨٩٦ وهو من أعظم الكتب المشهورة التي كتبت في هذا الموضوع على الإطلاق .

وكذلك غير هذا التحول من طريقته في الحياة ، فغدا يلبس ملابس الفلاحين ، ويكثر من العمل اليدوي ، وتعلم صنع الأحذية ! وأصبح نباتياً لا يأكل اللحم ، وأنكرت زوجته وأولاده - ما عدا ابنته ألكسندرا - تعالجه . وأبت الكونتيسة تولستوى أن تستمع إلى تخليه عن ممتلكاته الدنيوية ، واستمسكت بحق أولادها في هذه الممتلكات ، وكان من المفارقات العجيبة أن يعيش هذا

الحكيم الداعية إلى الفقر وسط عائلة تكفر بآرائه ، ولكنها نجته حب العبادة ! وزادت الوحشة بين الزوجة وزوجها ب وفاة الابن السادس الذي قرّبت ولادته من قبل بينها وبينه ! وتملكها الهواجس والوساوس ، وفقدت كيانها ، وزادت مرارتها ، وأصبحت الحياة في ياسنایا جحيماً لا يطاق ! ونشبت المعارك المتصلة بين أتباع تولستوى أو قل بين الكونتيسة تولستوى وشرتكوف ، وضاق تولستوى بهذا كله ، فترك بيته ليلاً في السّرع مع ابته ألكسندرا في ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩١٠ ، خرج هائماً على وجهه بلا قصد ولا غاية ، وانهارت صحته في محطة أستا بوفو ، فرقد في غرفة ناظر المحطة ، وأسلم الروح في ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٠ ، ودفن في ياسنایا دون أن تقام لدفنه الشعائر المسيحية !

هذه هي حياة تولستوى الخافلة بالعجائب والمتناقضات !
أما من حيث فنه الأدبي فلا جدال في أن تولستوى من أعظم كتّاب الرواية في العالم ، ورائعته (الحرب والسلام) خاصة ، وأنا كارنينا عامة - هما عماد شهرته وتفوقه ، وقد استغرقت رواية (الحرب والسلام) من تولستوى سبع سنوات أو نحوها لكتابتها ، واقتضت منه مجهوداً خارقاً فاق في مداه ومعالجته سائر ما كتب ؛ فقد أودعها كل ما تزخر به الحياة الإنسانية في نسج مترامي الأطراف شاسع الأبعاد ! وتناول في موضوعية لا تبارى وواقعية صادقة العديد من الشخصيات التي أبدعها ، وما من رواية في العالم حفلت بهذه التفصيلات المتزعة من الحياة . وانصفت بهذه الدقة في التحليل النفسي ؛ حتى ليخيل إليك أن الحياة بجميع ألوانها تمثل أمامك ، تسير في محراها المتشابك سيراً طبيعياً لا إسراف فيه ولا شذوذ !

ولعل (أنا كارنينا) تشبه (الحرب والسلام) في طريقتها وسرد أحداثها على

الأقل ، ولكنها أقرب من (الحرب والسلام) في الوحدة الفنية . وكانت فلسفة تولستوى فيما بين الروايتين في سبيلها إلى التغير ، (فالحرب والسلام) فيها تفاؤل وإقبال على الحياة وحب لها ، وشخصياتها عملاقة في خلائقها ، تتحكم في الصراعات التي تدور في أعماقها ، أما (أنا كارينينا) فتتناول المجتمع الروسي في الستينيات من القرن التاسع عشر ، وهي رواية يغلب عليها التشاؤم ؛ كما أن الصراعات التي تدور في أعماق أبطالها لا يغلب عليها الحسم ؛ وإنما هي تنذر في بعض الأحيان بالويلات والمصائب ! بل إن هناك ضرباً من الحتمية يحتم فوق المصير المحزن الذي يهدد الحب الآثم بين آنا وفرونسكي !

والحق أن الحديث عن فن تولستوى يطول ويطول ؛ حتى لا يتسع له المقام هنا . ومن رواياته المشهورة أيضاً (البعث) وله كذلك كتب ومقالات وقصص قصيرة رائعة ، وأساطير تغلب عليها التزعة الصوفية .

ولم يقف تولستوى عند هذا الحد ؛ فقد كتب أيضاً مسرحيات ناجحة أشهرها (سلطان الظلام) ، وهي مسرحية قوية عن حياة الفلاحين ؛ كما كتب عدداً آخر من المسرحيات دون هذه مكانة .

وثمة ناحية أخرى يجب ألا تغفلها في الحديث عن تولستوى ، وهي آراؤه الاجتماعية ، والحق أنه لا يمكن أن يُعد مصلحاً اجتماعياً ؛ ذلك أنه لم يقدم آراء عملية في النهوض بالأحوال الاجتماعية ؛ فهو لم يكن يؤمن بإمكان الإصلاح بالمعنى المتعارف عليه لهذه الكلمة ؛ لقد كان يرى أن الواجب الأول للمسيحي الصادق هو أن ينأى عن العيش من عمل الآخرين ، وألا يشارك في العنف المنظم الذي كانت تمارسه الدولة ! وكان إنكاره يشمل الديمقراطية الرأسمالية المعهودة في الغرب ، وحكم الفرد المائل في روسيا ! ونستطيع أن نقول : إن تأثير تعاليم تولستوى في هذا

الصدد لم يكن قوياً في روسيا ؛ كما أن أتباعه كانوا قليلين !
 أما تعاليمه من حيث العقيدة فكانت تقوم على أن في ضمير الإنسان نوراً طبيعياً
 متأسلاً يكشف له أن الله هو الخير المطلق والحق المطلق ؛ فالله ومملكته في أعماقنا .
 وغاية الإنسان هي أن ينال السعادة . والسعادة لا تتحقق إلا بأن يفعل الإنسان
 الخير . ويجب الناس جميعاً . وأن يتخلص من شهوات الطمع والجسد
 والغضب . . وتستوى عنده كل ألوان العنف والقهر ؛ فهي من الجبائث ؛ والحب
 والرحمة يجب أن يعماً البشر جميعاً . وكان تولستوى نباتياً ، يمتنع عن الخمر
 والتدخين وما هو على غرارهما من عقاقير ؛ فكل ذلك صنعتته حضارة فاسدة تغشى
 ضمير الإنسان السليم الفطري . وتغرقه في مهاوى الظلمة !

° ° °

وبعد فإن رواية « القوزاق » التي تقدمها اليوم إلى القارئ العربي تصور الأيام
 التي عاشها تولستوى بين هؤلاء القوم ؛ كما تصور الصراع الذي ظل يلازمه طول
 حياته بين الفطرة التي لا تفكر والحياة الطبيعية التي لا تعمل فيها . وبين مقتضيات
 العقل وقواعد الأخلاق . وكان الفيصل هو انتصار الحياة ، حياة الإنسان الطبيعي
 الذي لا يفكر في الخير والشر ، ولا يخضع لمنطق الخلق ، وهو ما يمجده القوزاق
 الذين وصّمو بالحزى والعار بطل الرواية العاجز المتدبر أوليين !
 وخير ما نختم به هذه المقدمة هو قول الأديب الفرنسي الكبير (رومان رولان)
 في هذه الرواية :

« القوزاق خير روايات تولستوى الغنائية ، وأغنية شبابه . والقصيدة التي
 نظمها في بلاد القوزاق ؛ فقد حفلت هذه الرواية كلها بالجمال المرتفع الذي اتسمت
 به الجبال يكلل هاماتها الجليد تزهو في سماء مشرقة تبهير الأبصار ! وهي أثري فوق كل

الآثار . بل هي أول ثمرة تفتقت عنها أكام عبقرية تولستوى !
 وقد قدم بطل الرواية - مثله مثل تولستوى - القوقاز يبحث عن انطباعات
 قصيرة في خضم ما تأتى به الأقدار من خطوب . ووقع في حب امرأة قوقازية ،
 وأسلم نفسه لأتون من الرغبات المتصارعة ، وظن يوماً أن السعادة تكمن في حب
 (الغير) ، أجل في الحب وإنكار الذات ! وإذا بأفكار جديدة تطرأ عليه :
 « إن كل ما كنت أفكر فيه هباء في هباء ! الحب وإنكار الذات . . . ما الذي
 يدعوني إلى التفكير؟ حسبي أن أعيش ، أجل أعيش . . . وهذا حسبي ! »
 وقد أظهر تولستوى في هذه القصيدة الرائعة كل ملكاته في الوصف ؛ كما تجلت
 فيها واقعيته تجلياً لا يقل عن ذلك في تصوير شخصية الإنسان .

إبراهيم زكي خورشيد

الفصل الأول

كان السكون قد خيم على موسكو . فلا تسمع فرقة المعجلات تمر في الشوارع التي بللها المطر إلا نادراً أو أقل من النادر . وانقطعت الأضواء كلها من النوافذ ، وأطفئت مصابيح الشوارع ، وانبعث صوت الأجراس من أبراج الكنائس . وأخذ ينساب فوق المدينة الهاجعة ، فيذكر الناس بالصبح ، وأقنرت الشوارع إلا من زلافة تشق طريقها من حين إلى حين في الجليد والرمل ، وما إن يصل سائقها إلى ركن الشارع التالي حتى يستسلم للنوم في انتظار راكب آخر . وتمر امرأة عجوز في طريقها إلى الكنيسة حيث كانت بعض الشموع التي وضعت في غير نظام لا تزال تشتعل وانعكس ضوءها الأحمر على الإطارات المذهبة التي احتوت الأيقونات . وشرع العمال يستيقظون بعد ليل الشتاء الطويل ويتأهبون للمضي إلى أعمالهم . أما السادة فكان الوقت في نظرهم لا يزال مساء !

وكانت الأنوار لا تزال تبص من ثقب في مصاريع النوافذ بمطعم شيفالييه منتهكة حرمة الليل في مثل هذه الساعة ، وقد وقفت بباب المطعم عربة وعدد من

الزلاقات اصطفت الواحدة منها في إثر الأخرى ، وكان ثمة أيضاً زلاقة من زلاقات المسافرين تجرها ثلاثة جياذ ، وبدا بواب الفناء وقد عضه البرد بنابه ، وتدثر من قبة رأسه إلى أخمص قدميه كمن يريد أن يحتوى من البرد خلف ركن الدار .

وشرع الساقى يحدث نفسه قائلاً : « وما جدوى كل هذا القول المقذع ؟ » وكان يجلس في الردهة تعلو وجهه نظرة من الحيرة وأردف يقول : « هذا هو ما يحدث دائماً عندما تكون نوبتى في العمل قائمة ! » .

وكنت تسمع من الغرفة الصغيرة المجاورة الباهرة الضوء أصوات شبان ثلاثة ، وتجدد على المائدة التى في الغرفة بقايا عشاء وخمر . وكان أحد هؤلاء الشبان رجلاً قصير القامة نحيلاً أنيق اللباس عاطلاً من الحسن ، جلس ينظر بعينين رقيقتين كليلتين إلى الصديق الذى على وشك الرحيل ، وكان الشاب الآخر طويل القامة يعث بمفتاح ساعته ويضطجع على أريكة بالقرب من المائدة التى قامت فوقها الزجاجات الفارغة ، أما الثالث فكان يرتدى سترة جديدة من جلد الماعز ، وأخذ يذرع الغرفة روحة وجيئة ، ويتوقف من حين إلى حين ليكسر لوزة بين أصابعه القوية الغليظة التى عنى بنظافة أظفارها ويسم دائماً لشيء ما ، وقد توقدت عيناه ، وتوهج وجهه جميعاً ، وراح يتكلم بغيرة وحاسة ويومئ بيده أو جسمه معبراً عما يقول ، على أنه كان ظاهر العي لا يستطيع أن يحد من الكلمات ما يسعفه ، فإذا أسعفه منها شيء وانطلق إلى لسانه كان أعجز فيما يبدو عن تبيان ما يفيض به قلبه من مشاعر .

وقال المسافر : « الآن أستطيع أن أفصح لكما عما يكنه صدرى ، ولست أدافع عن نفسى . ونكى أريد منك - على أقل تقدير - أن تفهمنى كما أفهم نفسى . فلا تنظرا إلى الأمر من ناحيته المألوفة المبتدلة . » ثم استطرذ يقول موجهاً الحديث

إلى الرجل الذى كان ينظر إليه نظرة رقيقة : « أنقول : إننى عاملتها معاملة سيئة ؟ » .

ويجيب الرجل قائلاً : « أجل ، إنك خلّيق باللوم » . وبدأ أن نظرتة قد شابهها مزيد من الرقة والكلال .

واستأنف المسافر حديثه قائلاً : « إنى لأعلم السبب الذى يدعوك إلى هذا القول ، فأنت تعتقد أن حظ المحبوب من السعادة عظيم كحظ المحب ، فإن هو أدرك ذلك كفاه طول حياته ! » .

ويلح الرجل القصير القائمة فى القول وهو يقطب ما بين عينيه :
« أجل يا صديق العزيز ، إن فى ذلك الكفاية كل الكفاية ، بل أكثر من الكفاية » .

ويقول المسافر مستغرقاً فى تأملاته ، ناظراً إلى صديقه كأنما يرى لحاله : « ولكن لماذا لا يحب المرء أيضاً ؟ لماذا لا يحب ؟ إن الحب لا يُقبل . . . كلا إن من الشقاء أن يكون المرء محبوباً ! وشقاء أن يحملك ذلك على الإحساس بالإثم ، لأنك لا تعطى ، أو لا تستطيع أن تعطى لقاء ما تأخذه » ثم يلوح بذراعه ويقول : « آه ! يا إلهى ، تمنيت أن تقع هذه الأمور على مقتضى المنطق والعقل ! ولكنها تسير جميعاً خبط عشواء غير عابئة بنا ولا ملقية بالألينا ، فهى تحمل على هواها ، وتقبل وفق مشيئتها . عجباً ! كأننى اختلست هذا الحب اختلاساً ! وأنت أيضاً تظن بى هذا الظن ، وأنت تعتقد هذا ، لا تنكر ، فلا شك أن ذلك هو عقيدتك فى ! ولكن هلا علمت أن هذا الفعل من دون الأفعال الحمقاء القبيحة جميعاً التى وجدتُ فسحة من العمر تبيح لى ارتكابها - هو الفعل الوحيد الذى لا أندم عليه ، بل لا أستطيع أن أندم عليه ! ذلك أننى لم أخدع نفسى أو أخدعها عن قصد

لا في بداية الأمر ولا فيما بعد ، لقد دار في وهمي أنني وقعت أخيراً في شرك الحب ، ولكنني تبينت من بعد أنني كنت أخدع نفسي على غير وعي مني ! إن من المستحيل أن يحب المرء على هذا النحو ، ولم أستطع أن أمضي في طريق ، أما هي فقد مضت في طريقها ، أياكون الذنب ذنبى ، لأننى لم أستطع ؟ وما الذى كان في مقدورى أن أفعله ؟

ويقول صديقه وهو يشعل سيجاراً يرد عنه سلطان النوم : « لقد انتهى الأمر الآن على كل حال ! وكل ما هنالك أنك لم تحب بعد قط . ولا تعرف معنى الحب ! »

وكان الرجل الذى يرتدى جند الماعز على وشك الكلام مرة أخرى واعتمد رأسه بين يديه ، إلا أنه لم يستطع التعبير عما يريد .

« لم أحب قط ! . . أجل ، هذا هو الحق بعينه ، فإني لم أكابد الحب قط ! على أنني مع ذلك أحس في أعماق برغبة في الحب ، وما من شيء يمكن أن يكون أشد من هذه الرغبة ! إلا أنني أعود فأتساءل : ألمثل هذا الحب وجود ؟ إن ثمة شيئاً يظل دائماً ناقصاً غير مكتمل ، ولكن ما جدوى الكلام ؟ لقد أوقعت نفسي في مأزق محيف ! ومع ذلك فقد انتهى كل شيء الآن ، إنك محق كل الحق . وأنا أشعر بأننى في الطريق إلى حياة جديدة . »

وقال الرجل المضطجع على الأريكة يعبث بمفتاح ساعته : « ولتوقعها في مأزق مرة أخرى ! » ، إلا أن المسافر لم يسمعه .

ومضى يقول : « إني حزين ، وعلى ذلك فأنا سعيد بالرحيل ، أما حزنى فلست أعلم له علة ولا سبباً ! » .

واستطرد المسافر يتحدث عن نفسه ، ولم يلاحظ أن حديثه لم يثر اهتمام صاحبيه

بقدر ما أثار اهتمامه هو ، ذلك أن المرء لا يبلغ أبداً من الإعجاب بنفسه ما يبلغه لحظات التحلي الروحي ، فإنه يبدو له في تلك اللحظات أن ليس على الأرض شيء أكثر منه جلالاً أو أعظم منه خطراً ! » .

ودخل شاب من رقيق الأرض الغرفة مرتدياً سترة من جلد الماعز وقد ربط وشاحاً حول رأسه ، وهتف يقول : « أي ديمتري أندريفتش ، لن ينتظر الحوذى بعد أكثر مما انتظر ، فقد ظلت الجياد متأهبة منذ الحادية عشرة والساعة الآن الرابعة ! »

ونظر ديمتري أندريفتش إلى عبده فانيوشا ، وكأنما كان الوشاح الملتف حول رأس فانيوشا وحذاءه المصنوع من اللباد ووجهه الوسنان -- كل أولئك يدعوا سيده إلى حياة جديدة قوامها العمل والكد والاجتهاد .

وقال وهو يتحسس المشبك المفكوك الذي في سترته : « صدقت ! وإلى اللقاء ! »

وبذلت له النصيحة بأن يهدئ من روع الحوذى بنفحة أخرى من المال ، إلا أنه وضع قبعته على رأسه ووقف في وسط الغرفة ، وتبادل الأصدقاء القبلات مرة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة بعد لحظة ، واقترب المسافر من المائدة وأفرغ قدحاً في جوفه ، ثم أخذ بيد الرجل العاقل من الحسن ، وتضرع وجهه بحمرة الحجل .

« لا بأس ، ولأفصح عن مكنون صدري بالرغم من كل شيء . . . إن الواجب يقتضي أن أكون صريحاً معك ، وسيكون هذا شاقاً : ذلك أنني شديد التعلق بك . . . إنك تحبها فعلاً ، وهذا ما ظننته فيك دائماً ، أليس الأمر كذلك ؟ » وأجاب صديقه في ابتسامة زادت رقة على رقة : « بلى . »

« ولعل . . . »

وقال الساقى الوستان ، وكان ينصت إلى الجزء الأخير من الحديث ويعجب من أمر هؤلاء السادة الذين دأبوا على الحديث فى موضوع واحد لا يتغير ولا يتبدل : « عفوك ياسيدى ، فافى مأمور بأن أطفى الشموع » ، ثم أردف وهو يدرك لمن يوجه خطابه والثفت إلى الرجل الطويل القائمة : « باسم من أكتب قائمة الحساب ؟ أباسمك ياسيدى ؟ »

وأجاب الرجل الطويل : « باسمى ، كم الحساب ؟ »
« ستة وعشرون روبلاً »

وأعمل الرجل الطويل فكره لحظة ، إلا أنه لم يقل شيئاً ، ووضع القائمة فى جيبه وواصل الآخرين حديثهما .

فقال الرجل القصير العاطل من الحسن ذو العينين الرقيقتين : « إلى اللقاء ! إنك لفتى ولا كالتفتيان ! » وامتلاّت مآقيها بالدموع ، ثم خرجا إلى الصفة . وقال المسافر وهو يلتفت إلى الرجل الطويل وقد احمر وجهه خجلاً : « وبهذه المناسبة هل لك أن تدفع حساب مطعم شيفالييه وتكتب إلى تينى بذلك ؟ » وقال الرجل الطويل وهو يلبس قفازه : « حسن ! حسن ! ثم أردف على حين بغتة عندما خرجا إلى الصفة : « لشد ما أحسبك ! »

وركب المسافر زلاقتة ، والتف بدثاره المصنوع من جلد الماعز وقال : « حسن ، تعال إذن ! » ولم يكتف بذلك بل تحرك فى مقعده قليلاً ، ليفسح مكاناً فى الزلاقة للرجل الذى قال : إنه يحسده ، وكان صوته يرتجف .

وقال الرجل الطويل : « إلى اللقاء يا ميتيا ، أرجو بمعونة الله . . . » ، إلا أن كل ما كان يتمناه هو أن يمضى المسافر سريعاً حتى لا يتم عبارته .

وخيم السكون عليهم لحظة ، ثم هتف واحد منهم : « إلى اللقاء » ، وصاح

صوت يقول : « استعد » ولمس الحوذى ظهور الجياد يوقظها .
 ونادى أحد الصديقين قائلاً : « هلم يا يلزار ! » فتحرك الحوذى وسائقو
 الزلافة وهم يشأشئون بالسنتهم استحثاثاً للخيول ويشدون أعنتها ، وكانت العجلات
 التى جمدها الصقيع تنصر صريراً وهى تسير على الجليد .
 وقال أحد الصديقين : « إن أوليين هذا نفى كرم ! ولكن يالها من فكرة أن
 يذهب إلى القوقاز ! يذهب إليه طالباً فى كلبة حربية أيضاً ! ولو أنهم دفعوا إلى أجراً
 على ذلك ما فعلته . . . أوقد عزمتم على تناول غداً فى النادى غداً ؟ »
 « نعم » .

تم افترق الصديقان .

وكان المسافر يشعر بالدفع ، ويظهر أن معظمه المصنوع من الفراء كان شديد
 الدفع أيضاً . وجلس الشاب فى قاع الزلافة وفك أزرار معظمه ، وأخذت الجياد
 الثلاثة تسير متناقلة الخطى من شارع مظلم إلى شارع مظلم آخر . وتمر بتنازل
 لم يرها من قبل قط . وقد بدا لأوليين أنه لم يكن يجتاز هذه الشوارع إلا المسافرون
 فى رحلة طويلة ، وكان الظلام والسكون والكآبة تخيم حوله . إلا أن نفسه كانت
 مفعمة بالذكريات والحب والندم يغشاها شعور لذيذ بالدموع المكبوتة !

الفصل الثاني

وظل يردد القول : « إني مشغوف بهما ، مشغوف بهما غاية الشغف ! . . يالهما من رقيقين ماجدين ! . . كريمين ! » ، وأحس بأنه على وشك البكاء ، أما السبب الذي كان يريد من أجله أن يبكي . ومن كان هذان الرفيقان الماجدان اللذان شغف بهما - فكان أمراً أبعد من أن يعرفه حق المعرفة . وراح يلتفت بين الفينة والفينة إلى بيت من البيوت ويعجب من طراز بنائه الممغن في الغرابة ، وأخذ العجب يتملكه حياناً من أن السائق وفانيوشا اللذين يختلفان عنه كل الاختلاف - قد جلسا قرييين منه هذا القرب ، بهتان وبتيلايان مثله بفعل الجهد الذي كان يبذله الجوادان الأيمن والأيسر وهما يشدان العربة فوق آثار الطريق المتجمدة . ثم مضى يردد القول مرة أخرى : « أحسنت صنعاً ! . . عظيم ! » ، وعجب مما دعاه إلى هذا القول . ثم سأل نفسه : « ونحى ! أترأى تملأ ؟ » صحيح أنه تناول زجاجتين من الخمر ، إلا أن الخمر وحدها لم تكن هي التي فعلت به هذا الفعل . لقد تذكر كل ما وجه إليه وقت رحيله من كلمات تنم عن الود ، وتصدر عن استحياء . وتنطلق فيما يعتقد

من القلب ، وتذكر كيف تصافحت الأيدي ؟ وكيف تبودلت النظرات ؟ وكيف انعقدت الألسنة لحظات ولحظات ؟ وتذكر الصوت الذي انبعث يقول له : « إلى اللقاء يا ميتيا » . عندما احتوته الزلافة فعلاً . وتذكر الصراحة التي توخاها في قوله . وكان لهذا كله معنى بمس منه القلب والنفس . وبدا له أن أصدقاءه ، وأقرانه . وأولئك الذين لم يكونوا يلقون بالألإ إليه ، بل أولئك الذين كانوا ينفرون منه - قد اجتمعت كلمتهم قبل رحيله على أن يزدادوا تعلقاً به . ويغفروا له ، كما يفعل الناس قبل أن يهيموا بالاعتراف أو وهم في حضرة الموت !

وتدبر في أمر نفسه قائلاً : « لعل لا أعود من القوقاز » . وأحس بأنه كان يجب صديقيه . ويجب شخصاً آخر علاوة على حبه لها ، لقد كان يشعر بالرتاء لحاله هو ، إلا أن محبته لصديقيه لم تكن هي التي حركت منه المشاعر ، وسمت بنفسه حتى عجز عن أن يردد الكلمات الجوفاء التي بدا أنها تنبعث من تلقاء نفسها إلى لسانه . ولم يك ما به وليد حب يكنه لامرأة (فقد كان خالي القلب لم يقع بعد في شرك الحب) ، بل كان حبه لنفسه حباً حاراً جياشاً بالأمل ، حباً فتياً لكل ما انطوت عليه نفسه من خير (وقد خيل إليه في تلك اللحظة أن نفسه لا تنطوى إلا على الخير) هو الذي حملته على البكاء ، ودفع إلى لسانه بتلك الكلمات المتناثرة يتمم بها تحمة !

لقد كان أوليين شاباً لم يتم دراسته الجامعية قط أو يلتحق بعمل ما (لم يتقلد إلا وظيفة اسمية في مكتب حكومي أو نحو ذلك) ، وقد بدد نصف ثروته ، وبلغ الرابعة والعشرين دون أن يعمل شيئاً ، بل هو لم يجتر لنفسه مهنة من المهن . أى : أنه كان في عرف عليه القوم في موسكو « فتى من الفتيان » .

لقد كان في الثامنة عشرة من عمره حراً طليقاً لا يفترق في شيء عن شباب الروس

الأثرىاء في العقد الخامس من هذا القرن ، أولئك الذين مات عنهم والداهم في سن مبكرة ، ولم تكن تقيد قبود مادية أو خلقية ؛ فقد كان في مقدوره أن يفعل ما يشاء ، لا يحتاج إلى شيء ولا يلتزم شيئاً ، لا يعرف أسرة ولا وطناً ولا ديناً ولا يحس بحاجة تلج عليه . كان لا يؤمن بشيء ولا يعترف بشيء ، إلا أنه لم يكن على الرغم من افتقاره إلى الإيمان شاباً نكد الطبع مكتفياً بضيق الناس به ، بل كان على النقيض من ذلك : يسلم قياده للناس فيذهبون به أى مذهب . وكان قد انتهى رأيه إلى أنه لا وجود لشيء اسمه الحب ، على أن قلبه كان يفيض دائماً بالمشاعر إذا جلس في حضرة غادة شابة قاتنة ، وكان قد أدرك منذ أمد بعيد أن مراتب الشرف ومناصب الجاه هراء في هراء ! ولكنه لم يملك نفسه من السرور عندما شخص إليه الأمير سرجيوس في مرقص من المراقص وتحدث إليه حديثاً ودياً ، وقد كان مع ذلك لا يستسلم لثرواته إلا بالقدر الذى لا يجد من حرته :

فقد كان إذا استسلم لأى مؤثر ثم تبين أنه سيؤدى به إلى العمل والكفاح ، الكفاح التافه مع الحياة - بادر بفطرته إلى تخليص نفسه من الشعور أو العمل الذى وجد نفسه مسوقاً إليه ، واستعاد حرته ، وهكذا خبر حياة الطبقة العليا من الناس وخبر الخدمة المدنية والزراعة ، ثم الموسيقى التى كانت نيته قد صحت في وقت من الأوقات على أن يكرس لها حياته ، بل خبر أيضاً حب النساء ، ولم يكن يؤمن به ، وكان يفكر في الغرض الذى يقتضيه أن يكرس له نعمة الشباب التى لا توافى المرء إلا مرة واحدة في حياته

أجل نعمة الشباب لا نعمة العقل أو الإحساس أو التعليم ؛ وإنما نعمة ذلك الخافز الذى يمتلك المرء بغته ، فيهب له القدرة على أن يسوى نفسه في الصورة التى يشاء ، أتراه الفن أو العلم ، أو حب امرأة ، أو الاتجاه إلى ناحية عملية من نواحي

الحياة ؟ صحيح أن بعض الناس قد تجردوا من هذا الحافر ، فما إن يضرّبون في زحمة الحياة حتى يسلموا أعناقهم لأول نير يصادفونه ، ويعملوا بإخلاص تحت ربقته إلى أن يدركهم الموت ! إلا أن أوليين كان شديد الشعور بوجود ذلك السلطان القادر على كل شيء ، سلطان الشباب ، تلك القدرة التي تتحول جميعاً إلى مطمح واحد أو فكرة واحدة ، القدرة على أن يلقى بنفسه بلا روية أو تفكير في هوة سحيقة دون أن يعرف لذلك سبباً أو يدري أين يكون القرار ؟

وكان يطوى جوانحه على هذا الشعور ، فخوراً به ، سعيداً على غير وعى منه ! وكان حتى ذلك الحين لا يحب إلا نفسه ، ولا يملك إلا أن يحب نفسه ؛ لأنه لم يكن يتوقع منها إلا الخير ، ولم يكن قد اتسع وقته بعد للتعلم بالأوهام ، كان عند رحيله من موسكو تغمر فؤاده تلك السعادة التي تدفع بالشباب المدرك للأخطاء التي ارتكبها في الماضي إلى التحدث إلى نفسه فجأة قائلاً : « لم يكن هذا حقاً » . وإن كل ما جرى كان شيئاً عارضاً لا شأن له ولا خطر ، وهو لم يكن حتى ذلك الحين قد حاول حقاً أن يعيش ، أما الآن فإن رحيله من موسكو قد فتح له باب حياة جديدة ، حياة لا ينتظر أن يكون فيها شيء من الأخطاء الماضية ، ولا مجال لتأنيب الضمير ، وأغلب الظن أنه لن يلقى فيها إلا السعادة .

وقد جرت الحال دائماً بأن يظل خيال المرء في الرحلات الطويلة عالقاً بالمكان الذي خلفه وراءه ، حتى تنقضي مرحلتان أو ثلاث مراحل من الطريق ، فما إن يحل به أول صباح في سفرته حتى يقفز خياله إلى نهاية الرحلة . ويروح عن نفسه بالآمال الكذاب ! وهكذا كان شأن أوليين .

ترك أوليين المدينة وراء ظهره ، وراح يمدق في الحقول التي غطاها الجليد وانتابه السرور لوجوده وحيداً في وسطها ، ثم التف بمعطفه ، واضطجع في قاع

الزلافة . فهدأت نفسه وأخذته سنة من النوم . وكان فراقه لصديقيه قد حرك كوامن نفسه ، وانبعثت في مخيلته على غير إرادة منه ذكريات الشتاء الماضي الذي قضاه في موسكو ، وصور من الماضي امتزجت بأفكار غامضة . وضروب من الندم لا يعرف لها كنها !

وتذكر الصديق الذي ودعه ، وعلاقته بالفتاة التي كانا يتحدثان عنها ، وكانت هذه الفتاة موسرة ، وحدث نفسه والشكوك المريبة تراوده قائلاً : « كيف يحبها وهو يعلم أنها تحبني ؟ إن المرء إذا تدبر الأمر وجد أن الناس ينطوون على شيء كثير من الخيانة ! » . ثم ألغى نفسه يواجه هذا السؤال : « ولكن كيف حدث حقاً أنني لم أحب قط ؟ وما من أحد إلا قال لي : إنني لم أعرف الحب قط ! أتراني شاذ الخلق اختلف أنا وسائر الناس ؟ » ثم أخذ يستعيد كل ما وقع فيه من حوادث افتتن فيها بالنساء : فتذكر دخوله في زمرة الطبقة العليا وأخت صديق له قضى معها بضع أمسيات على مائدة فوقها مصباح كان يضيء أصابعها النحيلية المشغولة بالتطريز والجزء الأسفل من وجهها الرقيق الجميل . وتذكر ما دار بينهما من أحاديث جرت في تودة وتمهل كلعبة السير على عصاً ومحاولة الإبقاء عليها مشتعلة أطول مدة ممكنة ، وتذكر الحرج والضيق اللذين كانا يملكان عليه نفسه جميعاً ، وشعوره المتصل بالتمرد على هذا الضيق ، وكان ثمة صوت يهمس إليه دائماً : « ليس هذا هو الحب ! أليس هذا هو ؟ » وثبت له صحة ذلك ، ثم تذكر مرقصاً ، وتذكر رقصة المازوركا التي خاصر فيها الحساء د . . . وحدث نفسه قائلاً : « لشد ما كنت غارقاً في الحب تلك الليلة ! وما كان أسعدني ! ولكم تأملت وغضبت عندما استيقظت في صباح اليوم التالي فوجدتني ما أزال حراً خالي القلب ! لم لا يقبل الحب فيغل يدي وقدمي جميعاً ؟ كلا ، لا وجود لهذا الشيء الذي يقال له الحب ، بل إن ما وقع لي

مع تلك الجارة التي ألفت أن تقول لي كما تقول لدبروفين والمارشال : إنها مقيمة بالنجوم - لم يكن حباً أيضاً .

وعاودته ذكرى زراعته وعمله في الريف ، ولم يأنس في تلك الذكريات أيضاً ما يشيع السرور في نفسه ، وطاف بمخيلته سؤال : « أتراهم يتناولون رحيلي بكلام كثير ؟ » ، أما من يكون هؤلاء فأمر لم يكن يعرفه حق المعرفة ، ثم طرأ على ذهنه أمر آخر جعله يحزر ويتمتم تحتمة غير مفهومة ، فلقد تذكر السيد « كابل » الحياط ، وتذكر السمائة والثمانية والسبعين روبلاً التي في عنقه له ، بل تذكر الكلمات التي استمهلها بها أداء دينه سنة أخرى ، ونظرة الحيرة والاستسلام التي علت وجه الحياط . وراح يردد القول : « رباه رباه ! » ، فزعاً محاولاً التخلص من هذه الفكرة التي كانت فوق ما يطبق ! ثم سرح خياله في الفتاة التي كانت مدار حديثهم في مأدبة العشاء التي أقيمت لوداعه ، وقال : « ومع ذلك فقد كانت تحبني بالرغم من كل شيء » ، ولو أنني تزوجتها ما كنت الآن مديناً لأحد بشيء ، وهأنذا مدين لفاسيلييف » ، ثم تذكر آخر ليلة لعب فيها مع فاسيلييف في النادي (بعد أن تركها مباشرة) ، وتذكر توسلاته لهذا الرجل في ذلة ومسكنة أن يلعب معه دوراً آخر ، وما لقيه على يده من رفض صفيق ، « سأقتصد عاماً وأوفي ديوني جميعاً ، وليذهبوا إلى الجحيم ! . . » ، ولكنه بالرغم من هذا التأكيد شرع يحصى مرة أخرى ديونه التي لم يف بها ، وينظر في آجالها والوقت الذي يأمل فيه أن يسدها ، وهتف يقول محدثاً نفسه : وأنا مدين ببعض المال لموريل ، وكذلك لثيفالييه » وراح يستعيد ذكرى الليلة التي استدان فيها ذلك المبلغ الكبير ، لقد كانت سكرة مع النور دبرها بعض الأصدقاء من بطرسبرج : شاسكاب . . . أركان حرب الإمبراطورية ، والأمير د . . . وذلك الصديق القديم الفخور المتعجب ، ثم قال

يحدث نفسه : « كيف يرضى هؤلاء السادة عن أنفسهم كل الرضا ؟ وبأى حق يؤلفون فيما بينهم زمرة ، ويحسبون أن من ينضم إليها فيمنع عداهم خليق بأن يزهو على الناس ويتملقه الناس ؟ وهل السبب في ذلك أنهم ضباط يتمنون إلى حاشية الإمبراطور ؟ وى ! ألا إن النفس تشمئز مما يعمدون إليه من رمى غيرهم من الناس بالحقافة والخسة ! ومهما يكن من شيء فإننى قد أظهرت لهم أننى على خلاف غيرى لا أود أن أشاركهم الصداقة ، وإنى لأحسب على كل حال أن ناظر أملاكى سوف يدهش إذا علم أننى على صلة وثيقة برجل مثل ساشكاب . . . الكولونيل وأركان حرب الإمبراطور ! أى نعم ! وأننى شربت تلك الليلة كما لم يشرب أحد ! وعلمت النور أغنية جديدة ، أنصت لها الجميع ، ولعلى قد ارتكبت حماقات كثيرة . ولكننى ما زلت فتى غاية في الطيبة . »

وطلع عليه النهار وهو في المحطة الثالثة ، وشرب الشاي ، وعاون بنفسه فانيوشا على نقل حزمه وصناديقه ، وجلس بينها هادئاً مطمئناً ، متصبب القامة صافي الذهن . يعرف أين يجد كل ما يخصه ، ومقدار ما يملكه من مال ومكانة ؟ وأين وضع جواز سفره والترخيص الذى يبيح له التزود بالجياذ في المحطات ، والأوراق التى تجيز له المرور من أبواب المكوس ؟ وبدا له كل هذا مرتباً أحسن ترتيب ، حتى لقد فاض وجهه بالبشر ، وأخذت الرحلة الطويلة تنجلي له كأنها نزهة لا تنقطع لها متعة .

وقطع صباح ذلك اليوم وظهره جميعاً مستغرقاً في حساب عدد الفرستات^(١) التى قطعها . وكم بقى له حتى يبلغ المحطة التالية ؟ وكم . . . حتى يدرك المدينة الأولى ؟ وكم . . . حتى يصل إلى المكان الذى سيتناول فيه غداءه ؟

(١) الفرست : مقياس روسى يساوى ١,٠٦٧ من الكيلومتر .

وكم . . . حتى يحل بالموضوع الذى سيشرّب فيه الشاى ؟ وكم . . . حتى يلم ستافروبول ؟ وما مقدار ما قطع بالنسبة إلى الرحلة كلها ؟ ثم حسب أيضاً ما معه من مال وما سوف يتبقى له منه ، وما يلزمه ليوفى ديونه ! ، وما ينتظر أن ينفقه من دخله كل شهر ! وما إن فرغ من تناول الشاى وأوشك الليل أن يرعى سدوله حتى كان قدر أنه بقى له أن يقطع سبعة أجزاء من أحد عشر جزءاً من الرحلة حتى يبلغ ستافروبول . وأن ديونه تقتضيه الاقتصاد سعة أشهر ، وتستفد ثمن ثروته كلها ، وعندئذ طابت نفسه . فالتف فى دثاره . وقبع فى قاع الزلافة ، وأخذته مرة أخرى سنة من النوم . ثم سرح خياله من بعد فى المستقبل : أى فى القوقاز . وكانت جميع أحلامه بهذا المستقبل تقترن هى وأبطال مثل «أمالات بك» ونساء جركسيات ، وجبال ، ووهاد ، وسيول جارفة ، وأخطار ، كانت كل هذه الأشياء غامضة مهمة إلا أن حب الشهرة وخشية الموت كانا السر فى اهتمامه بذلك المستقبل : فهو تارة يحمل فى بسالة منقطعة النظر وبأس يذهل الجميع على حشد يخطئه الحصر من أهل الجبال ويخضعهم لسلطانته ، وتارة يكون هو نفسه رجلاً من أهل الجبال يقاتل معهم الروس دفاعاً عن استقلالهم ، وكلما صافت بخياله صورة لشيء واضح المعالم تجلّى أمام ناظره نلتو واللحظة أشخاص من موسكو يعرفهم . وكان ساشكاب . . . يظهر بين الروس وأهل الجبال ويقاتله ، بل إن السيد كابل الحياض يشارك المتصر فى فوزه على نحو عجيب غريب ! وكان إذا تذكر فى خضم هذا كله ما لقيه فى سابق أيامه من مهانة ، وما اعتراه من ضعف ، وما وقع فيه من أخطاء لم تُسه الذكري . فقد كان من الجلى أن هذه الأخطاء خليقة بالأنا تتكرر وهو يعيش بين تلك الجبال وهاتيك الجركسيات الفاتحات تخف به الأخطار ، أما وقد اعترف بينه وبين نفسه اعترافاً كاملاً بما وقع منه فقد انمحنى كل ما تقدم من ذنوبه .

على أن ثمة رؤيا أخرى هي أغرب ما راوده جميعاً اختلطت بكل فكرة لهذا الشاب عن المستقبل ، وكانت هذه الرؤيا تتعلق بامرأة ، وكانت هذه المرأة تتجلى في خياله وسط الجبال أمة جركسية معتدلة القامة لها صفائر طوال مسترسلة وعينان عميقتا النظرات تمان عن الخضوع والاستسلام ، وقد تصور كوخاً يقوم وحيداً بين الجبال ، وقفت « هي » على عتبه تنتظر أن يعود إليها بعد أن يحل به التعب ويحلله الغبار ويسرله الدم ويكمل هامته المجد والفخار . وهو يشعر بقبلايتها وبكثفها وصوتها العذب واستسلامها ، إنها فاتنة . ولكنها عاطلة من الثقافة جافية الطبع ، لا تعرف شيئاً من الحضارة . وهو يبدأ بتثقيفها في ليالى الشتاء الطويلة ، وهي ماهرة موهوبة . لا تلبث أن تحصل كل ما تحتاج إليه من معارف ، ولم لا ؟ إنها مستطبعة في سهولة بالغة أن تتعلم اللغات الأجنبية ، وأن تقرأ روائع الأدب الفرنسى وتفهمها ، ولا شك أن رواية « أحذب نوتردام » خليقة بأن تظهر منها بالإعجاب ، وهي مستطبعة أيضاً أن تتكلم الفرنسية ، ثم إنها قادرة وهي في غرفة الاستقبال أن تظهر على السجية من العزة والكرامة فوق ما تظهره سيدة من أرفع الطبقات . وهي تستطيع أن تغنى في سهولة وقوة غناء جياشاً بالعاطفة فياضاً بالشاعر ، ثم قال محدثاً نفسه : « ويحى ! ما هذا الهراء ؟ » ، على أنهم كانوا قد بلغوا وقتئذ إحدى المحطات ، وكان عليه أن يبدل بزلافته زلاقة أخرى ، وأن ينفض من قاموا على خدمته بنفحات من المال ، إلا أن خياله عاد يبحث عن هذا الهراء الذى كان قد انصرف عنه ، وسرح مرة أخرى في الجركسيات الفاتنات والمجد وعودته إلى روسيا وقد التحق بيئة أركان الحرب وفي صحبته زوجة جميلة ، وحدث نفسه قائلاً : « ولكن ليس ثمة وجود لهذا الشيء الذى يقال له الحب ، وما الشهرة كلها إلا نافلة من النوافل ، ولكن ما بال السئانة والثمانية والسبعين روبلاً . . . والأرض

المفتوحة التي ستدر على ثروة تريد على حاجتي طيلة عمري ؟ على أنه ليس من الصواب أن أخص نفسي بكل هذه الثروة ، وسوف أضطر إلى توزيعها . ولكن على من ؟ لا بأس ، فلأعط كابل ستمائة وثمانية وسبعين روبلاً ، ثم نرى بعد ذلك ما يكون . . . » ، وعندئذ أخذت تغشى عقله أحلام مبهمة غاية الإبهام ، ولم يوقظه من هذه السنة من النوم التي تدرك الشباب الأصحاء إلا صوت فانيوشا ووقوف الزلاقة . وأبدل بزلاقته زلاقة أخرى وواصل رحلته وهو لا يكاد يعي من أمره شيئاً ! .

وتسير به الحال على هذا المنوال في صبيحة اليوم التالي ، فيمر بمحطات لا تختلف هي وما مر بها ، ويشرب الشاي كعهده ويرى الجدائل من جلد تتحرك كدأبها تحت ذيول الخيل ، ويتبادل كشأنه وفانيوشا حديثاً قصيراً ، وتراوده الأحلام الغامضة نفسها ، ويغلبه النعاس كوكده ، ويحل به ما كان يحل به من نوم يدرك الشباب الأصحاء بليل متى حل بهم التعب .

الفصل الثالث

وكانت المموم تتراح عن صدر أوليين كلما نأت به الرحلة عن وسط روسيا ، وبعدت الشقة بينه وبين ذكرياته عن أيامه الخالية ، واقترب المزار من القوقاز ، وكان يحدث نفسه أحياناً فيقول : سأغترب إلى ما شاء الله . ولن أعود فأظهر في صفوف المجتمع الراقى ، إن هؤلاء القوم الذين أراهم ليسوا قوماً بالمعنى المفهوم ، فما من أحد فيهم يعرفنى . وما من أحد منهم يستطيع أن يدخل فى زمرة المجتمع الراقى فى موسكو الذى كنت فرداً من أفرادهِ . أو يكشف شيئاً عن ماضى حياتى ، ولن يعرف أحد من ذلك المجتمع ما أفعله وأنا أعيش بين هؤلاء القوم» .

وتملكه شعور جديد لا عهد له به قط بأنه قد تحرر من ماضيه كله ، وهو يمر بأولئك الناس الأجلاف الذين كان يصادفهم فى طريقهِ ، ولم يعهدهم قوماً بالمعنى الذى كان يلمسه فى أصحابهِ من أهل موسكو . وكان يشعر بمزيد من الحرية كلما ازدادت خشونة الناس وقلت معالم الحضارة ، ومن ثمة ضايقته ستافروبول التى كان لابد له أن يمر بها ، فقد انزعج أليماً انزعاج إذ رأى اللافئات وكان بعضها مكتوباً

باللغة الفرنسية نفسها ، وشاهد السيدات في عرباتهن ، والعربات الصغيرة تمر في السوق ، وأبصر سيداً يرتدى معطفاً وقبعة عالية يجتاز الشارع ويحمل في المارة ، وقال يحدث نفسه : « لعل هؤلاء الناس يعرفون بعض أصحابي » ، وعادت به الذكرى إلى النادي . وإلى خياطه وورق اللعب وعلية القوم . . . على أن كل شيء بعد ستافروبول كان يبعث على الرضا ، كان فطرياً آيداً ، ولكنه جميل عليه مسحة القتال والنضال ، وأحس أوليين بسعادة فوق سعادة ، وبدا له القوزاق والسائقون ونظار المحطات كافة قوماً سليمي الطوية يستطيع أن يمزج معهم ويتحدث إليهم في غير حرج دون أن يفكر في الطبقة التي يتمون إليها ، كانوا جميعاً من الجنس البشري الذي كان يحبه أوليين بلا وعى منه أو شعور ، وكانوا على بكرة أبيهم يعاملونه في ود ومحبة .

وكان قد استبدل بزلافته عربية ذات عجلات في ولاية القوزاق على الدون . وغدا الجو فيما وراء ستافروبول شديد الدفء مما حمل أوليين على الاستغناء عن معطفه الثقيل في سفره ، وكان الربيع قد أقبل وحل بأولينين يخال ضاحكاً على غير انتظار ، وعاد القوم لا يسمحون له بمغادرة قرى القوزاق بليل ، وقالوا له إن السفر في المساء مخوف بالمكاره ، وبدأ القلق يساور فانيوشا ، وكانا يحملان بندقية محشوة في العربة ، على أن أوليين ازداد بهجة وانشراحاً ، وقص عليه الناظر في إحدى المحطات حادثة قتل بشعة ارتكبت في الطريق العام منذ عهد قريب ، ثم بدأ هو وعبيده بصادفان بعض الرجال المسلحين ، وحدث أوليين نفسه قائلاً :

« وهكذا تبدأ المخاطر الآن ! » وظل يترقب ظهور الجبال التي يتوج الجليد هاماتها والتي سمع بها كثيراً ، وأشار السائق ، وكان من النوغاي^(١) ، بسوطه ذات ليلة

(١) النوغاي : قوم من البدو الذين يسكنون الشمال الشرقي لبلاد القوقاز .

إلى الجبال تغشاها السحب ، فتطلع أوليين بشوق ولكن الظلام كان مخيماً ، وقد اختفت الجبال في غمرة السحب أو كادت ، واستطاع أوليين أن يميز شيئاً رمادياً أبيض كالعهن أو هو أقرب ، إلا أنه لم يستطع مع ما بذل من جهد أن يأنس شيئاً من الجبال تتسم به الجبال التي قرأ عنها الكثير وسمع الكثير ، وبدت له الجبال والسحب متشابهة كل التشابه ، ودار في خلدته أن الجبال الفريد المعهود في قمم الجبال يغطيها الجنيّد . ذلك الجبال الذي كثيراً ما حدثه به الناس - ليس إلا وهماً كموسيقى باخ وعشق النساء ! ولم يكن يؤمن بها . فكف عن التطلع للتمتع بمراى هذه الجبال .

على أنه حدث في باكورة اليوم التالي أن أيقظه الهواء الرطب من رقاده في عرته ، فألقى نظرة فاترة إلى يمينه . وكان الصباح صحواً زاهياً لاشية فيه ، فرأى للنظرة الأولى على مسيرة عشرين خطوة منه كتلاً ضخمة ناصعة البياض رقيقة الحواشي ، وقد نقشت معالم قممها الواضحة الجلية نقشاً بارزاً في السماء البعيدة ، فلما أدرك بعد الشقة بينه وبينها وبين السماء ، وتبين مبلغ ضخامة هذه الجبال ، وأحس بذلك الجبال الذي لا يعرف حداً - خشى أن يكون ما تجلى له ليس إلا وهماً أو حلماً من الأحلام ، فhez نفسه ليوقطها ، إلا أن الجبال ظلت قائمة على ما هي عليه .

وقال للسائق : « ما هذا ؟ ما هو ؟ »

فأجابه السائق الذي من قوم النوغاي في غير اكترات : « وى ! إنها الجبال . »

وقال فانيوشا : « لقد ظلمت أنظر إليها أنا أيضاً مدة طويلة ، أليست رائعة ؟ لن

يصدق أحد من أهل بلدى أنها كذلك . »

وكانت السرعة التي تطوى بها العربة الطريق السهل اللين قد جعلتها تبدو للرائى

وكأنها تجري على طول الأفق ، في حين كانت قممها الوردية تتألق في ضوء الشمس الطالعة ، ولم يكن من أوليين إلا أن تولته الدهشة عندما وقع نظره عليها لأول مرة ، ثم لم يلبث أن تملكه السرور والانشراح ، إلا أنه أخذ من بعد ينعم النظر أكثر وأكثر في هذه السلسلة من الجبال التي توجها الجليد ، ولم تنهض من خلف جبال أخرى سوداء ، بل نبتت من السهل بلا عوج ، وانسابت منحدره حتى اختفت في رحاب الأرض ، وراح يستوعب هذا الجمال رويداً رويداً وأحس في النهاية بوجود تلك الجبال ، ومن هذه اللحظة اتسم كل ما كان يراه ويفكر فيه ويشعر به بطابع جديد صارم في جلاله كالجبال نفسها ! وغابت جميع ذكرياته عن موسكو والمنحى ما كان يشعر به من خجل وندم ، وتلاشت أحلامه التافهة عن القوقاز إلى غير عودة ، وبدأ كأن صوتاً رزينا يهتف به قائلاً : « لقد بدأت حياتك الآن » ، ذلك أن الطريق ، ونهر ترك الذي أخذ لتوه يلوح للناظر عن بعد ، وقرى القوقاز وأهله كل أولئك قد كف عن أن يظهر له بمظهر الدعابة أو الأضحوكه ، وراح ينظر إلى السماء ويتذكر الجبل ، وينظر إلى نفسه أو إلى فانيوشا فيرتد فكره مرة أخرى إلى الجبال . . . ويمر به اثنان من القوقاز تتأرجح بندقيتهما على ظهرهما تأرجحاً مريباً ، ويمتزج اللون الأبيض واللون الأحمر الضارب للسمره لسبقان جواديهما امتزاجاً يختلط فيه اللونان . . . ثم الجبال ! ويرتفع الدخان من قرية من قرى الجبجي^(١) فيما وراء نهر ترك . . . ثم الجبال ! وتسطع الشمس المشرقة على نهر ترك وهو ينساب بين أعواد القصب . . . ثم الجبال ! وتأق من القرية عربة تجرها الميران ، وتمر نساء شابات حسان . . . ثم الجبال ! وها هم أولاء الأبرك^(٢)

(١) مجموعة من الأقوام عددهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة يسكنون شمالي القوقاز .

(٢) وهم الجبجي الأعداء الذين عبروا الضفة الروسية لنهر ترك بغية السلب والنهب .

(الشيشيون المعادون) يضربون من حولنا في السهل ، وهأنذا أركب العربة ماضياً
في طريق لا يعتريني خوف منهم ، فقد كنت مزوداً ببندقية وبالقوة والشباب . . .
ثم الجبال !

الفصل الرابع

كان ذلك الجزء بأسره من خط نهر ترك (حوالي ٨٠ فيرستا) الذي تقوم على طولته قرى القوزاق الكريين متجانساً في طبيعة أرضه وسكانه . ولا يزال نهر ترك الذي يفصل القوزاق عن القبائل الجبلية يجري عكراً مسرعاً ، وإن كان من قبل عريضاً رفيق السير ، يترك دائماً على ضفته اليمنى المنخفضة الممتلئة بالقصب رواسب من رماله ضارية إلى السمرة ، وتغمر مياهه الضفة اليسرى الوعرة القليلة الارتفاع بما فيها من جذور شجر السندبان الذي مضى عليه قرن من الزمان ، وشجر الدلب العفن وشجيرات الأدغال الفتية .

وعلى الضفة اليمنى قرى الججن المسالمين ، وإن كان لا يزال يتباهم شيء من القلق . أما قرى القوزاق فتكتنف الضفة اليسرى على مسيرة نصف فيرست من النهر . وتبعد كل قرية عن الأخرى سبعة فيرستات أو ثمانية . وكان معظم هذه القرى في الأيام الغابرة على الضفة النهر . إلا أن نهر ترك كان ينأى بمجره عن الجبال صوب الشمال ستة بعد أخرى . ويغمر الشاطئ . حتى أصبح لا يحف به اليوم

إلا أطلال القرى القديمة وبساتين من الكثرى والخنوخ وأشجار الحور ، وقد طفى عليها جميعاً العليق والكروم البرية ، وأصبح لا يقيم فيها أحد ولا يرى المرء فيها إلا آثار الأيل والذئب والأرانب البرية والدراريح التي أحبت هذه الأماكن . ويشق الغاية من قرية إلى قرية طريق ينطلق انطلاقاً قذيفة المدفع ، ويقوم على طول الطرق نطاقات من القوزاق وأبراج للمراقبة مزودة بالحراس . ولا يملك القوزاق إلا شريطاً ضيقاً من الأرض يبلغ نحو سبعمائة ياردة من الأرض الحصيبة الشجرى ، وإلى الشمال من هذا الشريط تبدأ كتبان الرمال التي يملكها النوغاى ، وهى تعرف أيضاً بفيافى مزدك . وتمتد مونغة فى الشمال . وتسير إلى ما شاء الله . حتى تدخل فى أراضي التركان فى استراخان وفيافى قرغيز كيسك . وتقوم إلى الجنوب وراء نهر ترك جبال ججنية الكبرى وسلسلة جبال كوجكاليكوفسكى والجبال السوداء . وهى سلسلة جبال أخرى ، ثم تلى ذلك آخر الأمر جبال الجليد التى يراها المرء أويكاد وإن كان لم يتبين معالمها قط أحد بعد . وقد سكن هذه الرقعة الحصيبة الشجرى المخصوصة منذ أقدم ما نعى الذاكرة من أزمان قبيلة روسية نزاعة للقتال ذات وسامة ورخاء تنسب إلى فرقة المؤمنين الأولين^(١) وتعرف بقبيلة كربين القوقازية . وكان أجدادهم من المؤمنين الأولين قد هربوا من روسيا منذ أقدم العصور ، واستقروا فيما وراء نهر ترك بين الججن على جبل كربين ، وهو أول سلسلة شجرى من جبال ججنية الكبرى ، وأقام هؤلاء القوزاق بين الججن وتصاهروا ، وتطبعوا بطباع قبائل الجبال وعاداتهم ، وإن كانوا احتفظوا باللغة الروسية نقية لا تشوبها شائبة ، كما احتفظوا بمذهبهم القديم ، وتقول رواية لا تزال حية فى أذهانهم : إن

(١) المؤمنون الأولون : اسم أطلق بصفة عامة على الطوائف التى انفصلت عن الكنيسة الروسية البيزنطية فى القرن السابع عشر .

إيفان المرعب جاء إلى نهر ترك وأرسل في طلب شيونهم ، ووهب لهم الأرض التي على هذا الجانب من النهر ، وحشهم على أن يظلوا على ولائهم لروسيا ، ووعدهم ألا يشملهم بحكمه أو يحملهم على تغيير مذهبهم ، ولا تزال أسر القوزاق حتى هذا اليوم تزعم أنه يربطها بالجحن صلة النسب ، ولا يزال حب الحرية والفراغ والنهب والقتال شغبيتهم الكبرى ، ولا يظهر من النفوذ الروسى إلا جانبه البغيض . كالتدخل في الانتخابات ومصادرة أجراس الكنائس وجنود الروس الذين يعسكرون في هذه البلاد أو يحوسون خلالها .

والقوزاق يميل بطبعه إلى أن يضمر من الحقد للزغيتى^(١) من أهل الجبال الذي قد يكون قتل أخاه ، أقل مما يضمر للجندى الذى يهبط عليه للدفاع عن قريته . ولكنه يلوث كوخه بدخان طباقه . وهو يحترم عدوه الجبلى . ويحتقر الجندى وينظر إليه نظره إلى دخيل باغ يستبد به .

والحق أن الفلاح الروسى في رأى القوزاق مخلوق أجنبى همجى محتقر ، يرى صورته في الباعة الجائلين الذين يقدون إلى بلاده . وفي الروس الصغار المهاجرين الذين يطلق عليهم القوزاق اسم « نادى الصوف » تحقيراً لهم ، والأناقة عند القوزاق هي أن يحاكي المرء في لباسه الجركسى ، وأحسن الأسلحة يحصلون عليها من أهل الجبال ، وأجود الخيل يشترونها أو يسرقونها منهم ، وعجب الشاب الجسور من القوزاق أن يفخر بمعرفته اللغة التترية ، وهو إذا حضر ولعة للشرب واللهو تحدث بهذه اللغة حتى مع إخوانه القوزاق .

وبالرغم من كل هذه الأمور فإن تلك العشيرة المسيحية الصغيرة ، المعزولة في

(١) الزغيتى بين الججن : يكاد يتزل منزلة المقاتل الشجاع بين الهود الحمر ، وكلمة الزغيتى ترتبط ارتباطاً لا يفصم بفكرة البراعة في القروسية .

ركن صغير من أركان الأرض ، تحيط بها القبائل المسلمة المتبدية كما يحيط بها الجنود - تعتبر نفسها على حفظ عظيم من الرق ، ولا تعترف بأحد من البشر إلا بالقوزاق ، وتحتقر كل من عداها ، وينفق القوزاق جل وقته في النطاق العسكري يقاتل أو يقتص أو يصيد السمك ، وقلما يشتغل في المنزل ، وهو إذا بقي في قريته كان ذلك استثناءً من القاعدة العامة ؛ إذ إنه يكون عندئذ في إجازة يستمتع بها . والقوزاق جميعاً يصنعون خمرهم الخاصة بهم ، وليس السكر عندهم نزعة عامة بقدر ما هو شعيرة من الشعائر ، من ينكص عن أدائها يعد مرتدّاً مارقاً ، والمرأة في نظر القوزاق أداة لفلاحه ، وانلهو من حق القتليات غير المتزوجات فحسب ، أما المرأة المتزوجة فعليها أن تعمل من أجل زوجها من وقت شبابها حتى تطعن في السن ، وهو يطالبها بما يطالب الشرق زوجته عادة من الطاعة والعمل ، وتشأ النساء نتيجة لهذه النظرة نشأة قوية سواء من ناحية الجسم أو من ناحية العقل ، ولهن بالرغم من خضوعهن لأزواجهن في الظاهر كغيرهن من النساء في جميع بلاد الشرق نفوذ أعظم وشأن أكبر من الغربيات في الحياة العائلية ، واعتزال النساء الحياة العامة ، وتعودهن أعمال الرجال الشاقة يزيدان من قوتهن ومن شأنهن في الأسرة .

والقوزاق يعد الحديث مع زوجته أمام الغرباء بعبارات الود والمحبة أو في غير ما تدعو إليه الحاجة عملاً لا يليق ، أما إذا انفرد بها فإنه يدرك على غير وعى منه مقدار سيطرتها . ذلك أن منزله وما يملك ، بل بيت الأسرة بما يشتمل عليه جميعاً - كل أولئك هي التي حصلت عليه ولت شمله بفضل جهدها وعنايتها . ويؤمن القوزاق إيماناً راسخاً بأن العمل يحط من قدره ، وأنه لا يليق إلا بعامل من النواغي ، أو بامرأة ، ومع ذلك فهو يدرك إدراكاً غامضاً أن كل ما يستعمله

أويقول إنه يملكه - إنما هو ثمرة ذلك الجهاد . وإن في استطاعة المرأة (سواء أكانت أمه أم زوجته) التي يعدها أمته - أن تحرمه كل ما يملك .

ثم إن قيام نساء الكربين بأعمال الرجال الشاقة باستمرار وتحملهن المسئوليات التي ألقيت على عاتقهن قد طبعاً أولئك النساء بطابع استقلالى خاص لا نعهده إلا في الرجال ، ونمى فيهن إلى حد عجيب القوة البدنية وحسن الإدراك والعزم والثبات .

والنساء في معظم الأحوال أقوى من الرجال وأشد منهم ذكاءً وأكثر نضجاً ووسامة ، ومن السمات البارزة للحسن في المرأة عند الكربين أنها تجمع بين سحنة الوجه الجرسى الخالص والبنان العريض القوى المعهود في نساء الشمال ، وترتدى نساء القوزاق الثياب الجرسية ، وهي قبض تترى وصدره ذات أكمام يقال لها البشمت ، وخف رخص . إلا أنهم يربطن مناديلهن حول رؤوسهن على الطريقة الروسية . والبراعة والنظافة والأناقة في الملبس وفي ترتيب أكواجنهن عادة عندهن وضرورة ، وللنساء وخاصة الفتيات غير المتزوجات مطلق الحرية في علاقتهن بالرجال !

وتعتبر قرية نوفوملينسكايا قلب المملكة القوزاقية الكرينية . فقد احتفظت أكثر من أى مكان آخر بعادات الكربين الأولين ، وقد اشتهرت نساؤها بالحسن ، في طول القوقاز وعرضها ، من أقدم الأزمان .

والقوزاق يعتمد في معاشه على الكروم وبساتين الفاكهة . والبطيخ ، ومزارع القرع ، وصيد الأسماك والقنص ، وزراعة الحنطة والدخن ، وغنائم الحرب . وقرية نوفوملينسكايا على مسيرة ثلاثة فيرسات أو نحوها من نهر ترك ، وتفصلها عنه غابات كثيفة ، والنهر على جانب من الطريق الذى يحترق القرية . وتقوم على جانبه

الآخر كروم خضر وساتين يشاهد المرء فيها وراءها كتيان فيافي نوغاي . وتحيط بالقرية الطواني وأسيجة التوت الشوكي ، ويلج إليها الداخل من باب طويل يرتكز على عمودين ، يغطيه سقف صغير من القصب . وإلى جواره مدفع ضخيم تحمله عربة مدفع خشبية ، كان القوزاق قد استولوا عليه في وقت من الأوقات ، وبقي عاطلاً منذ مائة عام ، وثمة حارس من القوزاق يحمل الخنجر والبندقية ، يقف حيناً للحراسة بجانب الباب ولا يقف حيناً آخر ، ويرفع السلاح تارة تحية لضابط يمر به ، ولا يرفعه تارة أخرى .

وقد كتب تحت سقف المدخل ، بحروف سوداء على (لوحة) بيضاء : عدد المنازل ٢٦٦ . وعدد الذكور من السكان ٨٩٧ . وعدد الإناث ١٠١٢ ، وترتفع منازل القوزاق جميعاً على أعمدة تعلو عن الأرض قدمين أو ثلاثاً . وقد سقفت في عناية بالقصب : ولها سقف هرمية كبيرة منحوتة ، وهذه المنازل ليست جديدة ومع ذلك فهي على الأقل مستقيمة نظيفة بلا استثناء ، لها أروقة مرتفعة ، متباعدة الشكل . ولم تشيد بحيث يلاصق الواحد منها الآخر ، بل تركت بينها مسافة كافية . وهي تقوم جميعاً وسط منظر رائع على طول الشوارع والدروب العريضة ، وقد غرست أمام النوافذ الكبيرة لكثير من المنازل وفيما وراء الأسيجة أشجار الحور الخضر الداكنة وأشجار السنط بخضرتها الشاحبة الرقيقة وزهرها الأبيض العطر الذي علا المنازل ، ونما في جوارها عباد الشمس الأصفر الكالح الوجه والمتسلقات والكروم . وكانت في الميدان الواسع المكشوف ثلاثة حوانيت تباع المنسوجات وعباد الشمس وبذور القرع ، وفول الحرنوب وخبز الزنجبيل ؛ كما قام مسكن قائد الفرقة بنوافذه ذات الإطار خلف صف من شجر الحور الطويل . يحيط به سياج عال أشمخ وأكبر من أسيجة المنازل الأخرى ، ولا يرى المرء في شوارع القرية في أيام

الراحة إلا قليلاً من الناس . وخاصة في الصيف ، فالشباب يقومون بنوبتهم في
النطاقات العسكرية أو يخرجون في الحملات العسكرية . والشيوخ يصيدون السمك
أو يساعدون النساء في الحداثق والبساتين . ولا يقعد في البيوت إلا الشيوخ
الطاعنون في السن والمرضى والأطفال .

الفصل الخامس

كانت الليلة من تلك الليالي النادرة التي لاتعدها إلا في القوقاز فحسب . وقد توارت الشمس خلف الجبال ، إلا أن الضوء كان لا يزال يشع في الأرجاء . وقد انتشر نور العسق المتورد ، فأضاء ثلث رقعة السماء ، ووضحت ضخامة الجبال وبياضها الكامد وضوحاً بيناً من خلال هذا الضوء ، وكان الهواء خفيفاً ساكناً مليئاً بالأصوات . وامتد ظل الجبال بضعة فيرسات فوق السهب . وكان السهب والجانب الآخر من النهر والطرق مقفرة جميعاً . فإذا حدث من قبيل المصادفة النادرة أن ظهر رجال يمتطون صهوة جيادهم - أخذ القوزاق في النطاق العسكرى والجنح في قراهم يراقبونهم في فضول ممزوج بالدهشة ، ويحاولون أن يخدروا من يكون هؤلاء الرجال الذين يدعو أمرهم للريبة والشك ؟

وما إن يجن الليل حتى يأوى القوم إلى مساكنهم ، وكل منهم يخشى أخاه ، ولا يبقى إلا الطيور والنوحوش تجوب خلال الأماكن المقفرة بلا خوف من الناس . وتبرع النساء قافلات من البساتين قبل أن تغرب الشمس ، وقد كن يربطن الأعقاب

ويتبادلن الحديث مرحلات مسرورات . وتقفز الكروم . شأنها في ذلك شأن كل شيء في الناحية المحيطة بها . إلا أن القرى تنشط نشاطاً عظيماً في هذا الوقت من المساء . فالتناس يقصدون القرية من كل حذب وصوب . سائرين على أقدامهم . أو ممتطين صهوة جيادهم أو سائقين عرباتهم المتعققة . وتركض الفتيات وقد شمرن قضاهن وحملن الغصون في أيديهن . ورحن يتبادلن الحديث فرحات جذلات متجهات إلى أبواب القرية ليلتقن هن والماشية المحشودة تغشاها غمام من الغبار والبعوض جاءت به من السهب وبهم البقر والجاموس الذي عني بتغذيته على غير هدى في الشوارع .

وتسير نساء التوزاق في صدارتهن الملوثة رائحات غاديات تخرج ضحكتهن المرححة وصرخاتهن بخوار الماشية . وبهم قوزاى مسلح هناك بمغادرة النطاق بعد أن انتهت نوبته . ويركب جواده ميمنا شطر منزل من المنازل . ثم يميل على جواده ويطلق نافذة المنزل . فيطل من النافذة رأس وسم لفظة تستجيب لطرقاته . ثم تسمع أصوات ضاحكة تنداعب . ويدى عمل من التوغاى مهلهل الثياب . برزت عظام خديه . نحل قصب من السهب . ويدخل عربته المتعققة إلى فناء قائد التوزاق العريض النظيف . ويرفع النبر عن الثيران فتأخذ في تطويح رؤوسها ، على حين شرع هو وسيدو يصيح كل منها مخاطباً الآخر بالترية .

وكان ثمة بركة ماء أخذت تتسع عاماً بعد عام حتى بلغت الجانب الآخر من الشارع . وكادت . ولم يكن أحد يستطيع أن يلجأ إليها إلا إذا تعلق بالأسبجة . وجاءت امرأة قوزاقية حافية القدمين تحمل حملاً من الحطب على ظهرها وتشق طريقها شقاً وقد شمرت قميصها فكشفت عن ساقين بيضاوين . وصاح بها قوزاى عاد من القنص مازحاً : « أشمريه فوق ما شمرت يا فاجرة ! » وسدد نحوها بندقيته

فأرخت المرأة ثيابها وقلت عنها حمل الخطب . وأقبل شيخ قوزاق عائداً إلى داره بعد صيد السمك وقد شمر سرواله وكشف عن صدره الأشيب المليء بالشعر . وحمل على كتفه شبكة حافلة بالسمك الفضي الذي كان لا يزال يضطرب محاولاً الخلاص . وأراد أن يختصر الطريق فتسلق سياج جاره المكسور . فعلقت سترته بالسياج وهو يفعل هذا . وكان هناك امرأة تجر وراءها فرعاً جافاً من فروع الشجر . وانطلق من ركن الطريق ضوت فأس . وكان أطفال القوزاق يتصايحون وهم يديرون دوايمانهم كلما وجدوا مكاناً أملس في الطريق . كما كانت السوسة تتسلق الأسبيجة إلى منازل متحاشيات الالتفاف حولها . وارتفع من كل مدخنة دخان الكرياك^(١) العطر . وراح يصدر عن كل بيت صوت حركة متزايدة إيذاناً عما يعقب ذلك من سكون الليل .

وتخرج السيدة أولتيكا . وهي زوجة حامل علم قوزاق يعمل مدرساً أيضاً . إلى أبواب الفناء من دارها . شأنها في ذلك شأن النساء الأخريات . وتنتظر الماشية التي تسوقها ابنتها ماريانكا مجتازة بها الطريق . وتندفع جاموسة ضخمة . في غمامة من البعوض . فتحشر نفسها حشراً وهي تخور في باب السياج المنصوع من الغصون المضفرة قبل أن يتسع للسيدة أولتيكا الوقت تماماً لفتحه . وتتبعها بعض البقرات السمينة في بطة . وهي ترمق سيدتها بنظرة من عيوها الكبيرة للتدليل على أنها تعرفها . وتهش على جوانبها بذيولها .

وتدخل ماريانكا الجميلة المشووفة القوام من الباب . وتلقي بالغصن الذي كان في يدها . ثم تصفق الباب بسرعة وتهرع بكل ما في قدميها الخفيفتين من سرعة لتفريق بين الماشية وتقودها إلى حظائرها . وتصيح بها أمها : « اخلعي خفك يا ربيبة

(١) الكرياك : وفود من روث الهائم الجاف .

الشيطان ! فإنك بلا شك مبلية حتى تدركه الثقوب ! » ولم يسنّ ماريانكا قط أن تدعوها أمها بريية الشيطان . بل تأخذ هذا القول منها على أنه إعزاز وتدليل . وتواصل عملها في بهجة وسرور ، وقد غطت وجهها بمنديل ربطته حول رأسها . وارتدت قيصاً وردياً وصدره خضراء ، واختفت داخل الحظيرة المنحدرة السقف التي في الفناء مقتفية أثر الماشية السمينية الكبيرة . وينطلق من الحظيرة صوتها وهي تعاد الجاموسة في رفق وإلحاح قائلة لها : « هلا وقفت ساكنة ! يالك من مخلوقة ! هلمى . هلمى أيتها الصديقة العزيزة ! »

وسرعان ما خرجت الفتاة وأمها العجوز من الحظيرة إلى ملحق الدار حاملتين قدرين كبيرتين من اللبن هما نتاج اليوم . وتتصاعد من مدخنة ملحق الدار غمامة رقيقة من دخان الكزياك . ذلك أنها كانتا تصنعان من اللبن القشدة المتخثرة . ونحسى الفتاة النار . وتشخص أمها إلى الباب . وكان الفسق قد لف القرية بردائه . وامتلاً الجو برائحة الخضر والماشية ودخان الكزياك العطر . وأخذت نساء القوزاق يسرعن في الطرقات حاملات بعض الخرق المشتعلة ، ويسمع المرء من الأفنية نحيب الماشية وعصها على اللجام في هدوء وقد خف عنها ما كان يثقل ضروعها من لبن . أما في الأفنية وفي الشارع فقد انقضت الجلبة . وعاد المرء لا يسمع إلا أصوات النساء والأطفال يتنادون . وكان من النادر أن تسمع صوت سكيري في يوم من أيام الراحة الأسبوعية .

وتقبل من المنزل المقابل إحدى الزوجات القوزاقيات ، وهي امرأة طويلة القامة عجوز عليها سيماء الرجال ، وتقرب من السيدة أولتيكا تلتبس منها ناراً ، وقد حملت في يدها خرقة .

-- مرحى ! أوقد فرغت من عملك ؟

وتقول السيدة أولتيكا وهي تفخر بقدرتها على إسداء يد إلى جاريتها : « إن الفتاة تشعل النار ، أتريدن ناراً ؟ »

وتدخل المراتان الكوخ ، وقد أخذت يدان صلبتان لم تألفا تناول الأدوات الصغيرة في رفع الغطاء مرتعتشتين عن صندوق أعواد الثقاب الثمين ، وهو نادر في بلاد القوقاز ، وتجلس الوافدة البدينة التي عليها سيماء الرجال على عتبة الدار ، وقد وضحت نيها في تبادل الحديث .

وتسأل المرأة السيدة أولتيكا : « أين زوجك . . ؟ هلى هو في المدرسة ؟ »
وتجيبها السيدة أولتيكا : « أجل . إنه يقضى وقته دائماً في تعليم الصغار ، ولكنه كتب يقول : إنه سيعود ليقضى العيد هنا . »

« ياله من رجل بارع . وكل ما يفعله ينتهى إلى الخير ! » .

« إنه لكذلك بلا شك »

وقالت الزائرة : « وإن كان ما ذكرته معلوماً لدى السيدة أولتيكا منذ وقت طويل - « فإن ابني لو كاشكا في النطاق العسكرى ، ولم يسمحوا له بالعودة إلى بيته » ، وكانت المرأة تريد أن تتحدث عن ابنها لو كاشكا الذى أعدته أخيراً للخدمة في الفرقة القوقازية ، وكانت تريد أن تزوجه ماريانكا ابنة السيدة أولتيكا .
« هو إذن في النطاق العسكرى ؟ »

« أى نعم ، ولم يعد إلى المنزل منذ العيد السابق . وقد بعثت إليه ببعض القمصان منذ أيام مع فوموشكين وأنبأني فوموشكين أنه بحير . وأن رؤساء راضون عنه . ثم قال إنهم عادوا يلتسمسون الأبركة مرة أخرى ، وإن لو كاشكا سعيد جداً »
فقالت زوجة حامل العلم : « نحمد الله على ذلك ! إن « أورفان » أى « المتشمل » هى حقاً الصفة (الوحيدة) التى تليق به » ذلك لبساته في انتشار غلام

كان على وشك الغرق من الماء ، وكانت السيدة أولتيكا تشير إلى هذا راغبة هي الأخرى أن ترد تحية أم لوكاشكا بشيء يسر خاطرهما .

وقالت أم لوكاشكا : « أحمد الله على أنه ابن بار ! إنه لفتى شجاع يثنى عليه الجميع ، وكان ما أتمناه هو أن أزوجه ثم أموت راضية مطمئنة »

وسألته السيدة أولتيكا الذكية الأريية وهي ترد غطاء صندوق الثقاب إلى موضعه بيديها الصلبتين في عناية فائقة « أليس في القرية كثيرات من الفتيات ؟ »
ف قالت أم لوكاشكا وهي تهز رأسها : « كثيرات ، كثيرات . . ولكن حسبي بابنتك ماريانكا ، فهي ذلك الطراز من الفتيات الذي أريد ، وليس في الناحية بأسرها فتاة مثلها ! »

وكانت السيدة أولتيكا تعلم ما ترمى إليه أم لوكاشكا ، ولكنها ترددت في الأمر بالرغم من اعتقادها أن لوكاشكا قوزاق طيب ، ذلك أنها كانت أولا زوجة حامل علم ميسورة الحال ، أما لوكاشكا فكان ابن قوزاق يسير الحال يتيم الأب ، وثانياً لأنها لم تكن تريد أن تفترق عن ابنتها بعد . ولكن السبب الأكبر لتردها هو أن ذلك كان أمراً يقتضيه واجب النبلقة .

وأجابت السيدة أولتيكا لمرأة في رزانة وتواضع : « سوف تكون ماريانكا أهلاً للزواج أيضاً متى كبرت . »

وقالت أم لوكاشكا : « سأرسل الخطاب إليك . سأرسلهم ! وما إن تسوى لنا الأمر حتى نأتيك ونقدم إليك احترامنا . ونقدم احترامنا أيضاً إلى إيليا فاسيليفتش »
وأجابته زوجة حامل العلم في زهو : إيليا . حقاً ! إنما يجب أن تتوجهي إلى .
والأمور مرهونة بأوقاتها .

وتبين أم لوكاشكا من وجه زوجة حامل العلم الصارم أن الوقت غير مناسب .

لأن تضيف إلى ما قلته شيئاً . فتشعل حزمها بعود النقاب وتقول وهي تهض
واقفة : « لا ترفضينا . وتذكرى ما قلته . والآن يجب أن أرحل » فقد حان موعد
إيقاد النار .

ثم تعبر الطريق وهي تطرح حزمها المشتعلة . فتلقى ماريانكا . فتتحى لها
الفتاة .

وتقول أم لوكاشكا محدثة نفسها وهي تنظر إلى الفتاة الجميلة ! « تالله إنها للملكة
لا ينقصها شيء ! وعاملة مجدة . فأى حاجة إلى الانتظار حتى يشتد عودها أكثر مما
اشتد ؟ ولقد آن الأوان لزواجها ودخولها في أسرة كريمة ، وأن تزوج لوكاشكا ! »
غير أن السيدة أولتيكا كانت لديها مشاغلها الخاصة . فظلت جالسة على عتبة
الدار . تفكر ملياً في أمر من الأمور : حتى تنادىها الفتاة .

الفصل السادس

كان الرجال من أهل القرية ينفقون وقتهم في الحملات العسكرية وفي النطاق العسكري ، أو في نقط الحراسة كما يقول القوزاق ، وما إن أوشك المساء أن يحل حتى كان لوكاشكا - ذلك «التشيل» ، الذي كانت تتحدث عنه المرأتان المستتان - واقفاً في برج للحراسة من أبراج نقطة «نزه بروتوتسكي» التي تقوم على ضفتي نهر ترك تماماً ، وكان يميل على سياج البرج ويزر عينيه ثم يلقى ببصره تارة إلى الفضاء الممتد أمامه فيما وراء نهر ترك وتارة إلى زملائه القوزاق الذين يقفون تحته ويبادهم كلمة بين الحين والحين .

وكانت الشمس تقرب بالفعل من سلسلة الجبال المكلفة بالجليد ، التي كانت تتلألأ باللون الأبيض فوق السحب القائمة كالعهن ، وأخذت السحب المتماوجة عند سفح الجبال تزداد دكنة فوق دكنة . وكان صفاء المساء واضحاً في الجو ، وسرت من الغابات نضحة من الطراوة والأنسام الرطبة . وإن كان الجو حول نقطة الحراسة لا يزال حاراً ، وكانت أصوات القوزاق الذين يتجاذبون أطراف الحديث تهتر

اهتزازاً اشتد رنينه عن ذى قبل ، وقد بدا أنها أخذت تتلبث في الجو . وكان التباين أشد وضوحاً بين الكتلة المتحركة لمياه نهر ترك السريعة السمراء وبين شاطئيه الجامدين الساكنين . وبدأت هذه المياه في الهدوء والاستكانة ، وكنت ترى الرمال المبتلة هنا وهناك تلمع في لون سنجابي على ضفتي النهر وفي المواضع الضحلة ، أما الجانب الآخر من النهر أمام نقطة الحراسة تماماً فقد كان مقفراً لا ترى فيه إلا برية متسعة الأرجاء نما فيها القصب القليل الارتفاع وامتد حتى سفوح الجبال نفسها ، وترى على الضفة المنخفضة ، على بعد قليل من ناحية منها ، المنازل المسطحة الأسقف المصنوعة من اللبن والمذاخن القمعية الشكل لقرية من قرى الجحجن ، وكانت العينان النافذتان للقوزاق الذى يتولى الحراسة في برج المراقبة - تتبعان من ثايادخان المساء الذى تصاعد من القرية الآمنة - الأشباح الصغيرة المتحركة لساء الجحجن تبدو واضحة من بعيد بملابسها الحمراء والزرقاء .

وكان القوزاق يتوقعون أن يعبر الأبركة النهر ويهاجموهم من الجانب الشرقى في أية لحظة ، وخاصة أن الشهر كان شهر ما يو الذى تكثف فيه الغابات التى تكثف النهر بحيث يتعذر اجتيازها سيراً على الأقدام ، ويضمحل ماؤه في بعض المواضع حتى يسهل على الفارس أن يخوضه ، وكان رجل من القوزاق قد وصل منذ بضعة أيام يحمل منشوراً من قائد الفرقة يعلن فيه القوم أن بعض الكشافات أبلغوه أن في نية نفر من ثمانية رجال أو نحو ذلك عبور نهر ترك ، ويأمرهم باليقظة والسهر في غيابه خاصة ، ولم يكن رجال النطاق العسكري يولون الأمر مثل هذه العناية ، فقد تجرد القوزاق من سلاحهم وأنزلوا السروج عن جيادهم ، كأئهم في ديارهم ، وكان فريق منهم يقضى وقته في صيد السمك . وفريق في الشراب . وفريق في القنص ، وإنما كان جواد الرجل الذى عليه النوبة مسرجاً ، وقد قيدت قوائمه ، فأخذ يتخبط

جائلا بين أشجار العليق قرب الغابة . وكان الحارس هو الرجل الوحيد من دونهم الذى يرتدى سترته الجركسية ويعمل بندقية وسيفاً ، وكان الأومباشى - وهو رجل نحيف مبسوط القامة ، له ظهر طويل إلى حد عجيب وبدان صغيرتان وقدمان مثلها - يجلس على مصطبة الكوخ وقد فك أزرار صدرته ، وبدأ على وجهه سباً الكسل والسأم المعهودين فى الرؤساء ، وأغلق عينيه . ثم ترك رأسه يستريح على راحة يد ثم على راحة اليد الأخرى . واستلقى شيخ من القوزاق ، ذو لحية عريضة سوداء ضاربة إلى اللون السنجابى ، ويرتدى قميصاً له حزام من الجلد الأسود ، على جانب النهر ، وأخذ يحرق فى تكاسل فى أمواج نهر ترك وهى تدور أمامه دوراناً رتيباً يبعث فى النفس الملالة والسأم ، واستبد الخربغيره من رجال القوزاق فحفظوا عنهم ملابسهم وأخذوا يغسلونها فى النهر أو يبدلون اللجم أو يترغمون بالألحان وهم منبطحون على الرمال الساخنة لضفة النهر ، وكان ثمة قوزاق ذو وجه نحيف لوحته الشمس حتى اسود لونه قد استلقى قرب الكوخ ، والظاهر أنه كان قد أفرط فى الشراب حتى فقد الوعي ، ذلك أن الجدار الذى استلقى بجانبه قد تعرض لأشعة الشمس المائلة المحرقة بعد أن كان فى الظل منذ ساعتين .

وكان لوكاشكا الذى وقف للحراسة فى برج المراقبة - فى طويل القامة وسيقماً فى نحو العشرين من عمره يشبه أمه شبيهاً كبيراً ، وقد دل وجهه . بل قوامه كله ، بالرغم من الضمور المعهود فى الشباب - على قوة عظيمة بدنية وخلقية معاً ، وكان قد التحق بالقوزاق الذين فى الجبهة منذ عهد قريب ، إلا أن ملامح وجهه والثقة الرصينة التى بدت من هيئته كانتا تشهدان بأنه قد اكتسب بالفعل تلك السمة العسكرية المزوجة بالعزة والفخار المعهودة بصفة خاصة فى القوزاق ومن ألف من الناس عامة حمل السلاح . وأنه كان قوزاقياً يدرك قيمته كل الإدراك ، وكانت

سترته الجركسية الفضفاضة ممزقة في بعض المواضع وقد وضع قبعته على مؤخر رأسه على طريقة الججن ، وتبدل طماقه إلى ما تحت ركبتيه ، ولم يكن لباسه فاخراً إلا أنه كان يرتديه بتلك العجلة التي عرفت عن القوزاق ونشأت من تقليدهم « لزغيث الججن » وذلك أن كل ما يرتديه الزغيثي فضفاض ممزق مهمل ، وإنما أسلحته هي الثمينة ، على أن هذه الملابس المعزقة وهذه الأسلحة يتمنطق بها ويرتديها على نحو خاص ويوفق بينها بطريقة خاصة لا يستطيع إنسان أن يحدو حدوه فيها ، وهي تسترعى في الحال انتباه القوزاق أو رجل الجبال ، وكان لو كاشكا يشبه الزغيثي من هذه الناحية ، فقد أسند يديه على سيفه ، وأرخى جفونه حتى كاد يغمض عينيه ، وظل يحدق النظر في القرية البعيدة ، ولو أنك نظرت إلى قسماته كل على حدة لوجدتها عاطلة عن الحسن ، إلا أن من يرى هيئته اللطيفة ووجهه الذكي الشديد السمرة لا يملك إلا أن يهتف : « ياله من فتى وسيم ! »

وقال لو كاشكا في صوت حاد وقد كشف في تكاسل عن أسنانه البيض البديعة غير موجه الخطاب إلى أحد بعينه : « انظر إلى النساء فما أكثر عدد من تجول منهن في القرية » ، إلا أن نازاركا الذي كان على الأرض من تحته لم يلبث أن رفع رأسه قائلاً :

« لاشك أنهن يسعين في طلب الماء »

فقال لو كاشكا وهو يضحك : « هب أنني روعتهن بطلقة ، ألا يكون ذلك كفيلاً بالبقاء الفزع في قلوبهن ؟ »

— لن تصل طلقتك إليهن !

فقال لو كاشكا ، وهو يطرد في غضب البعوض الذي هوم حوله في إلحاح : « ماذا تقول ؟ إن طلقتي تتجاوز القرية ! اصبر قليلاً حتى يحل عيدهم ، فأذهب

لأزور جبرى خان وأشرب البوظة معه .

واستعى انتباه القوزاق حفيف فى الدغل ، وما لبث كلب صيد هجين أرقط أن جاء يعدو صوب النطاق ، يهز ذيله الأجرد وأنفه إلى الأرض ، وعرف لوكاشكا الكلب . فهو أحد كلاب جاره العم بيروشكا الصياد ، وسرعان ما رأى الصياد نفسه يتبع الكلب مجتازاً الدغل .

وكان العم بيروشكا عملاقاً بين القوزاق ، له لحية عريضة ناصعة البياض كالثلج ، وقد بلغ عرض كتفيه وصدره حداً لا نظير له بين أهل الغابة مما جعل هامته لا تبدو فارعة الطول بين هؤلاء القوم . وكانت أطرافه القوية غاية فى التناسق ، وقد ارتدى ستره مهلهلة وانتعل نعلان مصنوعاً من جلد الأيل ، غير المدبوغ ربطه بخيط القنب ، فوق الأريطة التى لف بها قدميه ، ووضع على رأسه قبعة بيضاء صغيرة خشنة ، وحمل على أحد كتفيه دريئة يختبئ خلفها حين يصيد الدراج وكيساً فيه دجاجة لإغراء الصقور ، ونازاً صغيراً ، ولفع على الكتف الأخرى هراً برياً كان قد قتله وربطه يسير من الجلد ، وعلق فى حزامه خلف ظهره كيساً صغيراً يحتوى على رصاص بارود وخبز ، وذيل حصان يهش به البعوض ، وخنجر كبيراً فى غمد ممزق تعلوه بقع دم قديمة ، ودراجين نافقين . ونظر العم بيروشكا إلى النطاق العسكرى ثم توقف .

وقال ينادى الكلب : « إيه يا ليام ! » فى صوت جهير مدو أثار الصدى على بعد كبير فى قلب الغابة ، ثم ألقى فوق كتفه بيندقته الضخمة ذات الكبسول من النوع الذى يسميه القوزاق « فلنتا » . ثم رفع قبعته .

وقال موجهاً الحديث إلى القوزاق بصوته المعهود القوى المرح الذى أطلقه دون أن ييذل فى ذلك جهداً فى نبرات عالية كأنه يصيح بإنسان على الجانب الآخر من

النهر : « أوقد قضيتَ وقتاً طيباً أيها القوم الصالحون ؟ »
 فعلت أصوات القوزاق الشبان من كل جانب تقول في مرج : « وقتاً طيباً جداً
 أيها العم ! »

فصاح العم يروشكا ، وهو يحفف العرق عن وجهه الأحمر العريض بكم
 سترته : « ماذا رأيتم ؟ هاتوا ما عندكم ! وحدثونا بكل ما رأيتم ! »
 فقال نازاركا وهو يغمز بعينه ويهز كتفه وساقه : « إن صقراً يعيش في شجرة
 الدلب هذه أيها العم ، وما إن يحن الليل حتى يسرع في الطواف حول هذا المكان »
 فقال الشيخ وهو لا يصدق ما يسمع : « أحقاً ما تقول ؟ »
 فأجاب نازاركا وهو يضحك : « هو الحق أيها العم ! وما عليك إلا أن تبقى
 هنا وترقب » .

وأخذ سائر القوزاق يضحكون .
 ولم يكن هذا الفتى الماخن قد رأى صقراً قط ، إلا أن شباب القوزاق الذين في
 النطاق كانوا قد ألفوا أن يغيظوا العم يروشكا ويضللوه كلما جاء إليهم .
 ونادى لو كاشكا نازاركا من فوق البرج قائلاً : « إيه أيها الأحمق ! ألا تكف
 عن الكذب أبداً ؟ »
 ولزم نازاركا الصمت في الحال .

وأجاب الشيخ : « يجب مراقبته ، وسأراقبه » ، وسر القوزاق جميعاً بجوابه
 غابة السرور . ثم أردف يقول : « ألم تروا شيئاً من الخنازير البرية ؟ »
 وقال الأومباشي وهو يحك ظهره بكلتا يديه وقد سر غابة السرور بتلك الفرصة
 التي تهبأت له للهو : « نرقب الخنازير ! إنما نحن نرصد هنا للأبركة لا الخنازير » ،
 واسترسل يقول ، وهو يقطب ما بين حاجبيه في غير حاجة تدعو إلى ذلك ، فظهرت

أسنانه البيضاء المتراسة : « ألم تسمع شيئاً أيها العم ؟ »
 فقال الشيخ : « الأبركة ؟ كلا ، لم أسمع شيئاً عنهم ، هل عندكم شيء من
 الحكير^(١) ، على بكأس منه أشكر لك صنيعك ، فإني منهوك القوى ، واعلم أنني
 موافيك ببعض اللحم الطازج عندما يحن الحين ، وإني لفاعل » ، ثم عاد يقول :
 « أعطني كأساً »

فسأله الأومباشي كأنه لم يسمع ما قاله صاحبه : « حسن وهل تشاركنا في
 المراقبة ؟ »

وأجاب العم يروشكا : « لقد صح عزمي على أن أراقب الليلة ، ولعني أصيد
 بفضل الله شيئاً للعيد ، فيكون لك منه نصيب ، أجل ، يكون لك نصيب دون
 شك ! »

وهتف لوكاشكا من فوق برج المراقبة منادياً بصوت عال استرعى انتباه
 الحاضرين : « إيه أيها العم ! أيها العم ! » ، ونظر إليه القوزاق جميعاً فاسترسل
 يقول : « ما عليك إلا أن تذهب إلى أعلى النهر وحسب ، فستجد قطعاً عظيماً من
 الحنازير البرية ، أي والله ولا تحسب أنني أكذب عليك » ، ثم أردف يقول وهو
 يصلح من شأن بندقيته على ظهره في لهجة تم عن الجد : « لقد أصاب أحد
 القوزاق من فرقنا خنزيراً منها منذ أيام وأنا بذلك أقول لك الحق »

وقال الشيخ وهو يرنو ببصره إليه : « آه ! لوكاشكا المتشعل هنا ! وأين كان
 صديقك القوزاق عندما أطلق النار ؟ »

فقال لوكاشكا : « ألم ترى ؟ أحسب أنني أصغر كثيراً من أن تراقبني ! » ثم
 أردف في جد وهو يهز رأسه : « قرب الخندق ، فقد كنا نسير بمحاذاته ، وإذا بنا

(١) الحكير : خمر قوقازية تصنع في المنازل .

نسمع قرقرة ، إلا أن بندقيتي كانت في غمدها ، فأطلق إيليا النار . . . سأريك المكان ، فهو غير بعيد من هنا . انتظر لحظة : فإنني أعرف كل مسلك من مسالكها : ثم التفت إلى الأومباشي وقال في حزم وفي لهجة يغلب عليها الأمر : « أيها العم موسيف ، لقد حان وقت استبدال الحرس ! » ، ولفع بندقيته على كتفه وشرع يهبط من برج المراقبة دون انتظار الأمر .

وقال الأومباشي بعد أن كان لوكاشكا قد شرع في الهبوط : « انزل ! » والتفت حوله ثم قال : « أهى نوبتك يا جوركا ؟ هلم فاصعد . . » وأردف يقول موجهاً الحديث إلى الشيخ : « الحق أن صديقك لوكاشكا قد أصبح صيادا بارعاً وهو لا يكف عن الجولان مثلك تماماً ولا يقعد في داره أبداً ، وقد قتل ختيراً برياً منذ أيام » .

الفضل السابع

كانت الشمس قد غربت وأخذت أستار الليل تمتد مسرعة من طرف الغابة ، وفرغ القوزاق من أعمالهم حول النطاق ، واجتمعوا في الكوخ لتناول العشاء ، ولبت الشيخ وحده تحت شجرة الدلب يتربص الصقر ، ويجذب الحيط الذي ربط به ساق الباز ، وكان ثمة صقر يحثم حقاً على شجرة الدلب ، ولكنه أبى أن يتقض على الطعم ، وشرع لوكاشكا يشد الأغنية تلو الأغنية وهو يحجز الشباك على مهل متخيراً أكثف مكان ينبت فيه شجر العليق ليوقع الدراج في حبالها ، وكان كل عمل يؤديه لوكاشكا دقيقاً كان أم غير دقيق - ينجح بفضل براعة أصابعه بالرغم من أنه كان فارغ الطول كبير اليدين .

وناداه نازاركا بصوته الحاد الرفيع من الدغل القريب قائلاً : « إيه يا لوكاشكا ! لقد ذهب القوزاق لتناول العشاء » وشق نازاركا طريقه خلال شجر العليق وتحت إبطه دراج حي ، وظهر في الدرب .
وقال لوكاشكا وهو يقطع أغنيته : « وى ! وى ! من أين لك هذا الديك من

الدراج ؟ أحسب أنه كان في شباكي »

وكان نازاركا من سن لوكاشكا ، ولم يلتحق هو أيضاً بالجبهة إلا منذ الربيع الماضي ، وكان نحيلاً قصير القامة عاطلاً من الحسن ، له صوت حاد يدوي في الآذان ، كما كان هو ولوكاشكا جارين وزميلين ، وكان لوكاشكا جالساً على الكلاء وقد وضع ساقاً على ساق على مألوف التتر يصلح من شأن شباهه .

« لست أدري ديك من هذا ؟ وإني لأحسب أنه ديكك »

« أوجدته فيما وراء الحفرة بجوار شجرة الدلب ؟ إذن هو ديكى فقد نصبت الشباك ليلة أمس »

ونفض لوكاشكا وتفحص الديك الأسير في يد صاحبه . ثم ربت على رأس الطائر اللامع الأسود ، وأخذ الديك يدور بعينه ويمد عنقه فزعاً ، ثم أخذه لوكاشكا بين يديه .

- سنطهوه بالأرز الليلة ، خذه وأذبحه وانتف ريشه

- أو نأكله وحدنا أم نعطي الأومباشى إياه

- لقد كان لديه من الديكة الكثير

فقال نازاركا : « لأحب أن أذبح الديكة »

- ناولنيه !

وأخرج لوكاشكا من تحت خنجره مطواة صغيرة ونفضها نفضة سريعة ،

وصفق الطائر بجناحيه وما إن هم بنشرهما حتى كان الرأس قد مال وأخذ يضطرب ،

وقال لوكاشكا وهو يلقي بالديك : « هكذا يكون الذبح ! وستكون الأكلة دسمة »

وارتعد نازاركا ، وهو ينظر إلى الديك .

ثم قال وهو يأخذ الطائر مشياً إلى الأومباشى : « ألا فلتعلم يا لوكاشكا أن ذلك

الشیطان سیبعث بنا الليلة مرة أخرى لتقیم کمیناً ، وأوقد فوماشکین لیأتی له بخمر ،
فی حین أن النوبة الليلة حی نوبته ، أوقد کتب عینا أن نذهب ليلة بعد ليلة ؟ لقد
دأب علی أن یلقی ذلك دائماً علی کاهلنا »

وأخذ لوکاشکا یضرب فی طوف المعسكر وهو یصفر ، ثم صاح : « خذ هذا
الحیظ معک » ، وأطاع نازارکا أمره

واسترسل نازارکا یقول : « سأصارحه الیوم بشیء مما فی نفسی ، تالله لأفعلن »
ولنقل له : إننا لن نذهب وإن التعب قد نال منا فینتهی الأمر ! کلا . بل الأحرى
أن تقول له ذلك أنت : فیستمع إلیک . إن الأمر لغاية فی السوء ! »

وقال لوکاشکا وقد بدا واضحاً أنه یفکر فی شیء آخر : « اغرب عنی ! فما أتفه
هذا الأمر حتی تجعل منه موضوعاً للحاج ! ، هذا هراء یا رجل ! ولو أنه أقصانا
الآن عن القرية وحرمانا إياها الليلة کان ذلك شیئاً مزعجاً ، ذلك أنك تستطيع أن
تجد فی القرية شیئاً من اللهو ، ولكن ماذا نستطیع أن نفعل هنا علی أية حال ؟ إن
الأمر یرتوی سواء کنا فی النطاق أو فی الکمین ، یا لك من فقی غریب الأطوار ! »
-- أوتذهب إلی القرية ؟

-- سأذهب لحضور العید

فقال نازارکا فجأة : « یقول جورکا : إن حبیبک دونایکا علی صلة
بفوموشکین ! »

فأجابه لوکاشکا کاشفاً عن أسنانه البیضاء المنتظمة وإن کان لم یضحک :
« فلتذهب إلی الجحیم ! کأنی لا أستطیع أن أجد سواها »

« یقول جورکا : إنه ذهب إلی منزلها وکان زوجها غائباً ، فرأى فوموشکین
جالساً یأکل فطيرة محشوة ، ولبت جورکا برهة قصيرة ثم انصرف ، ومر بجانب

النافذة فسمعها تقول : « لقد انصرف الشيطان ، فما بالك لا تأكل فطيرتك يا عزيزى ؟ ما من حاجة تدعوك إلى العودة إلى دارك الليلة ! وقال جوركا من تحت النافذة : لا بأس فهذا هو ما أريده »

- إنك تخلق هذه الرواية

- بل وحق الله

ولاذ لو كاشكا بالصمت برهة قصيرة ثم قال : « حسن ! إن كانت قد وقعت على حبيب آخر فلتذهب إلى الجحيم ، فليست الفتيات بقليلات ، ثم إني قد سئمتها على كل حال »

فقال نازاركا : « انظر أى شيطان أنت ؟ يجب أن تتقرب من ماريانكا ابنة حامل العلم ، ترى لماذا لا تخرج هذه الفتاة مع أحد ؟ »

وقطب لو كاشكا جبينه ثم قال : « هه ، ماريانكا ! كلهن سواء »
« وليكن وما عليك إلا أن تحاول . . . »

« ماذا تظن ؟ أليس فى القرية من الفتيات الكفاية ؟ »

واستأنف لو كاشكا صفيره ، وسار فى النطاق يجذب الورق من الشجيرات التى يمر بها ، واسترعى انتباهه فجأة شجيرة ناعمة رقيقة ، فأخرج المطواة من مقبض خنجره وقطعها ، ثم قال وهو يلوح بالشجيرة حتى أخذت تصفر فى الهواء : « لشد ما تصلح مدكاً للبندقية ! »

وكان القوزاق جلوساً حول مائدة تربية منخفضة على أديم الغرفة الخارجية للكوخ المطلية بالطين عندما أثير موضوع الشخص الذى تحل عليه النوبة فى الكمين . وصاح أحد القوزاق من خلال الباب المفتوح مخاطباً الأومباشى الذى كان فى الغرفة المجاورة : « من الذى حق عليه الذهاب الليلة ؟ »

وصاح الأومباشى مجيئاً : « أى نعم . من ؟ » . ثم قال وهو لا يثق تماماً فيها يقول : « لقد أدى العم بورلاك النوبة . وكذلك قوموشكين » . واسترسل يقول موجهاً الحديث إلى لوكاشكا : « يحسن أن يذهب كلاكم . أنت ونازاركا . وسيدذهب يرجوشوف معكما أيضاً . ولا شك أنه قد نال الآن كفايته من النوم » وقال نازاركا فى صوت خفيض : « إنك لا تنال كفايتك من النوم . فلم يكتفى هو بما يدل ؟ »

وضحك القوزاق .

وكان يرجوشوف هو القوزاقى الذى كان قد رقد قرب الكوخ ثملاً يغط فى النوم . وكان فى تلك اللحظة عيناها قد دخل الغرفة يترنح وهو يفرك عينيه . وقال الأومباشى : « انصرفوا الآن ! افرغوا من عشايتكم واذهبوا ! » . وأغلق الباب دون أن ينتظر علامة على القبول . ومن الواضح أنه لم يك يتوقع أن يطيع القوزاق أمره . ثم قال : « لو لم يصدر الأمر ما أرسلت بطبيعة الحال أحداً ، غير أنه قد يفاجئنا ضابط من الضباط فى أى لحظة ، ومنها يكن من شىء فإنهم يقولون إن ثمانية من الأبركة قد عبروا النهر » .

وقال يرجوشوف : « لا بأس ! وإنى لأحسب أنه ينبغي علينا أن نذهب ، فهذا هو ما تقضى به التعليقات ولا حيلة لنا فى الأمر فى أوقات كهذه . وأعود فأكرر أنه قد ينبغي علينا أن نذهب » .

وكان لوكاشكا فى الوقت نفسه يحمل قطعة كبيرة من ديك الدراج بين يديه يأكلها ويرمق نازاركا حيناً والأومباشى حيناً آخر . وقد بدا غير مكترث قط بما كان يدور بين صاحبيه . وكان إنما يضحك منهما جميعاً . وقبل أن يتها القوزاق للذهاب إلى الكمين دخل العم يروشكا الغرفة المظلمة ، وكان قد انتظر عبثاً تحت

شجرة الدلب حتى حن الليل .

وقال وصوته الجهيرين في أرجاء الغرفة المنخفضة السقف فيطغى على صوت
كل من عداه : « أيها الفتيان ، إني ذاهب معكم ، فتزقون أنتم الجفن . وأترقب
أنا الخنازير البرية ! »

الفصل الثامن

كان الظلام حالك عندما غادر العم يروشكا والقوزاق الثلاثة النطاق ملتفتين في عبءاتهم ويتدققهم على أكتافهم . وقصدوا ذلك المكان على نهر ترك الذي كان عندهم أن ينصبوا فيه كمينهم .

ولم يكن نازاركا يريد الذهب قط . إلا أن لوكاشكا زجره فبدءوا رحلتهم في الخال . وسار القوزاق بضع خطوات بخيم عليهم الصمت . ثم تجنبوا الخندق وساروا في طريق بخفيه القصب أو يكاد حتى بلغوا النهر . وكانت على ضفته كتلة خشبية سوداء عظيمة لفظتها المياه . وكان القصب الذي حولهم قد بدت عليه آثار أقدم مرت منذ وقت قريب .

وسأل نازاركا : « هل تتخذ مقامنا هنا ؟ »

فاجاب لوكاشكا : « لم لا ؟ اجلس هنا فسأعود إليك بعد لحظة . وسأبين لنعم الطريق الذي يسلكه فحسب »

وقال بروجوشوف : « هذا أفضل مكان . فهنا نستطيع أن نرى دون أن يرانا

أحد . ولذلك سنستقر هنا ، إنه المكان المناسب تماماً !
وبسط نازاركا ويرجوشوف عباءتهما واستقرا خلف الكتلة على حين ذهب
لوكاشكا مع العم يروشكا .

وقال لوكاشكا وهو بخطو في خفة أمام الشيخ : « المكان ليس بعيداً من هنا أيها
العم . وسأريك أين كانت الخنازير البرية فأنا الوحيد الذي أعرف مكانها » .
فقال الشيخ في صوت يقرب من الخمس : « هذا هو السبيل ! يالك من فتي
كريم تستحق بجدارة لقب « المتشغل » ! »

وخطا لوكاشكا بضغ خطوات . ثم وقف وانحنى على غدِير ، وأطلق من شفثيه
صفيراً ثم قال : « لقد جاءت تشرب من هنا . أترى ؟ » . وكان يتحدث في
صوت لا يكاد المرء يسمعه . وهو يشير إلى آثار حوافر حديثة .

وأجاب الشيخ : « بارك الله فيك . ثم أردف : « سيكون الخنزير في الوजार
الذي يلي الخندق . وسأترقبه أنا . وتستطيع أنت أن تمضي لشأنك » .

وجذب لوكاشكا عباءته إلى أعلى ، وعاد وحده وهو يلقي نظرات سريعة .
طوراً إلى اليسار نحو سياج القصب . وطوراً إلى نهر ترك ومياهه تتدافع تحت
ضفتيه . وقال يحدث نفسه وهو يتوجس من وجود رجل من رجال الجبال
الجبجن : « أحسب أن ثمة واحداً منهم يراقب أو يتسلل في مكان ما ، وعلى حين
بغته سُمع صوت حفيف عال ورشاش يصدر من الماء . فأجفل وأمسك ببندقته ،
وكان خنزير برى قد قفز وهو يقبع من تحت ضفة الهر وقد ارتسم هيكله المعتم لحظة
على صفحة الماء اللامعة ، ثم اختفى بين أعواد القصب ، وأخرج لوكاشكا بندقيته
وصوبها . إلا أن الخنزير كان قد اختفى في الدغل قبل أن يستطیع إطلاق النار ،
وبصق لوكاشكا غضباً ثم سار في طريقه ، واقترَب من الكمين مرة أخرى ، فتوقف

وصفر صغيراً خفيفاً ، وأجابه صاحبه على صفيره فتوجه إليهما .
 وكان نازاركا قد التفت بعباءته واستغرق في النوم ، أما يرجوشوف فكان يجلس
 واضعاً ساقاً على ساق . ثم تحرك قليلاً . ليفسح مكاناً للوكاشكا .
 وقال نازاركا : « إن البقاء في كمين لشئ جميل ! إنه لمكان طيب حقاً . هل
 أرشدته . إلى الموضع ؟ »

فأجابه لوكاشكا وهو يبسط عباءته : « لقد أريته الموضع . ويا للخطرير البرى
 الكبير الذى أثرته لتوى بجانب النهر تماماً ! إلى لأحسب أنه هو الخطرير المعهود
 بعينه ! ولا شك أنك سمعت الجلبة التى أثارها ! »

فقال يرجوشوف وهو ينتف بعباءته : لقد سمعها بكل وضوح . فعلمت في
 الحال أنه صيد . وقلت أحدث نفسى إن لوكاشكا قد أثار بعض الصيد . ثم
 أردف : « سأستسلم للنوم . فأبقيت عندما تصيح الديكة . يجب أن يسود بيننا
 النظام . سأستلقى وأغفو . ثم تغفوانت وأسهر أنا . وهكذا يجب أن يكون الأمر
 بيننا »

فأجابه لوكاشكا : « لا أريد أن أنام »

وكانت الليلة مظلمة دفيئة وساكنة . ولم تكن النجوم تتألق إلا في جانب واحد
 من السماء . أما في الجانب الآخر ، وهو الأكبر . فقد غشيته غمامة سوداء ضخمة
 امتدت من قمم الجبال . ولم يكن نمة ربح نهب . وامتزجت الغمامة بالجبال .
 وانسأقت إلى الأمام في بطء . وتمهل . وقد وضحت أطرافها المشئية وضوحاً بيناً في
 غمار السماء المرصعة بالكواكب . ولم يكن الرجل من القوزاق ليستطيع أن يتبين سهر
 ترك وما يليه إلا إذا كان أمامه . أما من الخلف أو على الجانبين فقد كان يحيط به
 سباح من أعواد القصب . وكان القصب يمايل بين الحين والحين ويخف بعضه

بعض من غير سبب ظاهر . فإذا شوهدت أطرافه المتماوجة من أسفل منطقة على ذلك الجزء الصحو من السماء . بدت شبيهة بغصون الأشجار التي تحاكي الريش ، وكان أمام القوزاق عن كثب ، بل عند قدميه تماماً ضفة النهر ، وعند قاعدتها السيل المتدافع . وعلى مسافة أبعد قليلاً الكتلة المتحركة للماء الأسمر اللامع تطوف في انتظام رتيب بطول الشاطئ بالمواضع الضحلة وأبعد من ذلك الماء والشاطئ والغمامة تمتزج جميعاً في ظلمة بعيدة القرار ، وكانت تطفو على صفحة الماء كله أشباح سوداء تستبين عين القوزاق المدربة فيها جذوع الأشجار التي يحملها التيار . وما أندر ما كان برق الصيف يكشف عن الضفة المنحدرة الأخرى للنهر إذ ينعكس على صفحة الماء انعكاس النور على مرآة مظلمة . وكانت أصوات الليل المنتظمة الرتيبة وحفيف أعواد القصب وغطيط القوزاق وطنين البعوض واندفاع الماء تقطعه بين الفينة والفينة طلقة تنبعث من بعيد أو قرقرة الماء يزلق فيه جرف من جسر النهر . أو رشاش سمكة كبيرة . أو جلبة يحدتها حيوان يتسلل في أديم الغابة الكثيف .

وقد يحدث أن تطير بومة مجتازة هز تترك وتصرب جناحاً بجناح على نحو رتيب في خفقة دون خفقة . وتنطلق صوب الغابة مسفة تكاد تمس رءوس القوزاق ، ثم تضرب بجناحها كل خفقة . لا خفقة دون خفقة . حتى إذا بلغت شجرة دلب عتيقة تلبث فوقها وقتاً طويلاً تطوف محففة قبل أن يستقر بها المقام بين غصونها ، وكان القوزاق الساهر ينصت بانتباه إلى كل صوت من هذه الأصوات الطارئة ، ويقطب ما بين حاجبيه وهو يتحسس بندقيته عن وعى وإدراك .

وانقضى الشطر الأكبر من الليلة . ونمزق شمل الغمامة السوداء التي كانت قد سارت غرباً . فكشفت عن السماء الصافية المرصعة بالنجوم . وأضاء الهلال

الذهبي المرتفع الجبال في وهج ضارب إلى الحمرة . وبدأ البرد ينفذ إلى الأجسام . واستيقظ نازاركا ، وغغم بشيء . ثم استغرق في النوم مرة أخرى . وشعر لوكاشكا بالسأم فهض وأخرج مديته الصغيرة من مقبض خنجره ، وأخذ يسوى عصاه ليجعل منها مدكاً للبندقية . وكان رأسه زاحراً بأولئك الجحجج الذين يقيمون هنالك في الجبال ، وكيف أن فتياهم الشجعان كانوا يعبرون النهر ولا يخشون القوزاق ، وربما كانوا الآن يجتازون النهر في موضع آخر ، وكم من مرة برز من مخبئه وسرح ببصره في طول النهر . إلا أنه لم يستطع أن يرى شيئاً ، وكلما واصل النظر الفينة بعد الفينة إلى النهر وإلى الضفة المقابلة التي كانت قد بدت معالمها باهتة متميزة عن الماء في ضوء القمر المتقلب - انقطع تفكيره في الجحجج . وانحصر في ترقب الوقت الذي يوقظ فيه صاحبيه ويعود إلى القرية ، ثم استقر تفكيره في القرية وراح ينظر بعين الخيال إلى دنياه ، روحه الصغيرة كما يسمى القوزاق محبوباتهم ، فتكدر خاطره وانتابه الضيق ، وأخذ الضباب القضي يتألق من فوق صفحة الماء مؤذناً بأن الفجر قد لاحت تباشيره ، وكانت النور الصغيرة تصفر وتصفق بجناحيها ، غير بعيد منه ، وبلغ مسامعه آخر الأمر صياح ديك من القرية النائية أعقبه الصوت الممتد المعهود لديك ثان جاوبته أصوات ديكة أخرى .

وقال لوكاشكا يحدث نفسه : « لقد حان الوقت لإيقاظها » ، وكان قد فرغ من إعداد مدك بندقيته وشعر بالكرى يثقل جفنيه ، والتفت إلى زميله وما إن همّ بتمييز ساق أحدهما من ساق الآخر حتى خيل إليه فجأة أنه سمع صوت شيء يطش في الماء في الجانب الآخر من نهر ترك . وعاد ينظر مرة أخرى إلى الأفق وراء التلال حيث كان النهار آخذاً في الطلوع من تحت الهلال الغارب ، ونظر إلى معالم الضفة المقابلة . إلى نهر ترك ، وإلى كتل الحشب يحملها تياره وقد أصبحت الآن واضحة

جلية . وخيل إليه لحظة أنه هو الذى يتحرك . وأن سر ترك وكل الحشب التى يعملها تياره هى التى تقف ساكنة . ثم عاد يحمل مرة أخرى واسترعى انتباهه بوجه خاص كتلة سوداء كبيرة تحمل غصناً . وكانت الكتلة تطفو بشكل عجيب فى وسط التيار . لا تهتز أو تدور . بل لقد بدا أنها لا تسرقط مع التيار . وإنما تجتذره فى اتجاه المواضع الضحلة من النهر . ومد لوكاشكا عنقه وأخذ يرقبها فى انتباه . وعامت الكتلة إلى الأمام كن الضحلة ثم توقفت . وانتحت ناحية على نحو غريب . وخيل إلى لوكاشكا أنه يرى ذراعاً ممدودة من تحتها .

وقال يحدث نفسه : « هبنى قتل رجلًا من الأبركة بمفردى ! » ثم التقط بندقيته وأقام مسندها فى حركة سريعة لا تعجل فيها ، وثبها عليه وأمسكها فى وضع من يستعد للإطلاق ، ورفع الزناد وحبس أنفاسه وشرع يصوبها وعيناه تبحثان فى الظلام .

وقال فى نفسه : « لن أوقظها » ، إلا أن قلبه بدأ ينبض نبضات بلغ من شدة سرعتها أنه تردد وراح يصيح السمع . وغطست الكتلة فجأة وأخذت تعوم مرة أخرى مع التيار متجهة إليه .

وحدث نفسه قائلاً : « يجب ألا أخطئ الهدف . . . » ولمح حينئذ على ضوء القمر الخافت رأس نثرى أمام الكتلة الطافية وصوب بندقيته إلى الرأس مباشرة . وقد لاح أنه قريب منه جداً . . . عند طرف ماسورة بندقيته تماماً . ورفع عينيه عن ذؤابة البندقية . وقال يحدث نفسه ووجهه يفيض بالبشر : « لقد كنت على حق . إنه رجل من الأبركة ! » وهض فجأة واستد على ركبتيه وصوب بندقيته مرة أخرى ، ووجد الهدف واضحاً جلياً عند طرف بندقيته الطويلة فقال : « باسم الأب والابن » ، على طريقة القوزاق التى تعلمها فى طفولته ، ثم جذب الزناد ، وأضاء

ومبيض لامع اعواد القصب والماء لحظة . وحمل الريح صدى الطلقة الحادة المفاجئة عبر النهر . واستحال ترديدا متصل النبرات في مكان ما في الفضاء البعيد . وأصبحت الكتلة تظنن الآن لا عبر التيار بل معه وهي مهتر وتدور .

وهتف برجوشوف يقول وهو يتحسس بندقيته ويتصب على قدميه خلف الكتلة التي كان يستنق جوارها : « أوقفه . أقول لك ! »

فهمس لوكاشكا وهو يكر على أسنانه : « صه ابها الشيطان ! أبركه ! »
فسأله نازركا : « من الذي أطلقت عليه النار ؟ من هو يا لوكاشكا ؟ »

ولم يحب لوكاشكا فقد كان يخشو بندقيته مرة أخرى ويراقب الكتلة الطافية . وتوقفت على بعد قليل على جسر رملي ووضح للعيان أن خلفها شيئا كبيرا أخذ بهتر في الماء .

وأبح القوزاقيان في السؤال : « ما الذي أطلقت عليه النار ؟ ما بالك لا تتكلم ؟ »

فقال لوكاشكا : « قلت لكما : الأبركة ! »

« لا ينطلي علينا هذا ! هل أطلقت البندقية من نقاء نفسها ؟ »

فدمدم لوكاشكا في صوت غبى الانفعال وهو يقفز قائما على قدميه : « لقد قتلت أحد الأبركة . هذا هو ما فعلته . ثم قال وهو يشير إلى الجسر الرملي : « لقد كان رجل يسبح . . . فقتلته ، انظروا هناك »

فقال برجوشوف مرة أخرى وهو يفرك عينيه : « لا تموه علينا بهذه القصة »
فقال لوكاشكا وهو يمسك به من كتفيه ويجذبه بقوة جعلته يئن من الألم :
« لا أموه عليكما ؟ انظر هناك »

ونظر يرجوشوف في الاتجاه الذى أشار إليه لوكاشكا ورأى الجثة فغير لهجته في الحال .

وقال في صوت رقيق وقد شرع يفحص بندقيته : « واهاً لى ولكن غيره سيأتون صدقنى . لقد كان ذلك الرجل كشافاً يختار النهر سباحة ، وصدقنى أن الأمر لا يعدو حالة من الثنتين : فإما أن يكون غيره قد أتوا فعلاً . وإما أن يكونوا في طريقهم غير بعيدين من الضفة الأخرى !

وكان لوكاشكا يفك حزامه . ويخلع سترته الجلدية .

وهتف يرجوشوف يقول : « ما الذى ترمع عليه أيها الأحمق ، حسبك أن تظهر نفسك فتفقد حياتك بلا ثمرة ولا جدوى . ولتصدق ما أقول ! إن كنت قتلته فلن يهرب . على بشيء من البارود أحشوه خزنة بندقيتى . أو عندك منه شيء ؟ أما أنت يا نازاركا فعد إلى النطاق واصطنع المرح ، ولكن لا تحاز الشاطئ وإلا قتلوك . صدقنى ! » .

فقال نازاركا غاضباً : « أو أذهب وحدى فيتصيدونى ؟ اذهب أنت ! » وخلع لوكاشكا سترته وهبط إلى الجسر .

وقال يرجوشوف وهو يجهز بندقيته : « أقول لك : لا تهبط إلى النهر ، نظر فإنى أراه لا يتحرك . وقد أوشك الصبح أن ينبلع . فانتظر حتى يأتوا من النطاق وبحسن بك أن تعود يا نازاركا ، أنت خائف . وإنى لأقول لك : لا تخف ! » وقال نازاركا : « لوكاشكا . إيه يا لوكاشكا ! قل لى كيف قتلته ؟ » .

وعدل لوكاشكا عما كان قد اعتزمه من الهبوط إلى النهر وقال :

« اذهباً سريعاً إلى النطاق . سأقوم أنا بالحراسة ، وأخبر القوزاق بأن يعيشوا بالدورية ، حتى إذا كان الأبركة على هذا الجانب وجب أن يقبض عليهم »

وقال يرجوشوف وهو يهيم بالنهوض : « هذا هو ما قلته ، فإنهم سيهربون ، ولذلك يجب أن يقبض عليهم » .

ونهض يرجوشوف ونازاركا ورسماً علامة الصليب ، ثم شرعاً يسيران إلى النطاق ، ولم يلتزما ضفة النهر ، بل شقاً طريقها خلال أشجار العليق ، ليبلغا طريقاً يضرب في الغابة .

وقال يرجوشوف ، وهو يهيم بالرحيل : « إياك يا لوكاشكا أن تتحرك ، فقد يقطعون عليك السبل هنا ، وخير لك أن تكون شديد الحذر ! »
فقدم لوكاشكا يقول : « امضيا في طريقكما ، فإنني أعرف هذا » ثم فحص بندقيته ، وعاد يجلس خلف الكتلة .

وبقي لوكاشكا وحيداً ، وجلس يحدق في الأماكن الضحلة ، ويتسمع أصوات القوزاق ، وكانت بينه وبين النطاق شقة كبيرة وقد نفذ صبره وضاق لذلك صدره . وظل يحدث نفسه قائلاً : إن الأبركة الذين كانوا صحبة ذلك الرجل الذي قتله سوف يهربون . شأنهم في ذلك شأن الخنزير البري الذي هرب في الليلة السابقة تماماً ، وراح لوكاشكا يرنو ببصره حوله ، وينظر إلى الضفة المقابلة متوقفاً في كل لحظة أن يرى رجلاً ، وأعد مسند بندقيته ، واستعد لإطلاق النار ، ولم يطرأ بباله قط أن القتل قد يحل به هو نفسه .

الفصل التاسع

كان المصيح قد أخذ ينبليج ، وأصبحت جثة الجحني واضحة بينة تهتز اهتزازاً رقيقاً في المياه الضحلة ، وطرق أذن لوكاشكا على حين فجأة صوت حفيف بين أعواد القصب على مسافة قريبة منه ، وسمع وقع أقدام ، ورأى رؤوس أعواد القصب التي تشبه الريش تتحرك فجهاز بندقيته تماماً للإطلاق وتتم . « باسم الأب والابن » وما إن تكتكت البندقية حتى توقف وقع الأقدام .

ونادى صوت أجش جهير يقول في هدوء : « أيها القوزاق لا تقتلوا عمكم ! » . وأخذ العم يروشكا يفرق أعواد القصب ثم ظهر بجوار لوكاشكا تماماً . وقال لوكاشكا : « لقد هممت بقتلك : تالله إني كدت أفعل ! »

وسأله الشيخ : « علام أطلقت النار ؟ » . ودوى صوته الجهير في أرجاء الغابة وعلى طول النهر مبدداً على حين غرة ذلك السكون الغامض الذي ساد الليل ، وأطبق على القوزاق حتى بدا أن كل شيء قد أصبح فجأة أكثر ضوءاً وأعظم وضوحاً .

وقال لوكاشكا وهو بعيد الزناد إلى موضعه في البندقية ويتصب واقفاً في هدوء عجيب : « ولكنك أيها العم لم تر شيئاً ، فأني قتلت وحشاً »
 وكان الشيخ يحدق بانتباه في الظهر الأبيض ، وقد أصبح الآن واضحاً غاية الوضوح ومياه نهر ترك تترقق من حوله .

وقال لوكاشكا : « كان يسبح وعلى ظهره كتلة من الخشب ، إلا أنني رأيته ثم ... انظر هناك ... هناك ! إنه يرتدى سروالاً أزرق وأظن أنه يحمل بندقية ... وسأله : « أترأه ؟ » .

وقال الشيخ غاضباً وقد علت سيماء وجهه نظرة جد وصرامة : « طبعاً أراه ! » . ثم قال وقد تمت لهجته عن الأسى : « لقد قتلت رجلاً من الزغيث »
 « لقد كنت أجلس هنا . فرأيت فجأة شيئاً مظلماً على الجانب الآخر . رأيته وهو لا يزال هناك . وخيل إلى كأن رجلاً أقبل هناك وسقط في النهر . قتلت : أحدث نفسي : إن هذا الأمر غريب . ثم رأيت قطعة من الخشب العائم : قطعة كبيرة . مقبلة تعوم مجتازة النهر ولا تسبر معه . ولم يبد لعيني إلا رأس يظهر من تحتها ! يا للعجب ! ثم نظرت من خلال أعواد القصب . ولكنني لم أتبين شيئاً ، فهضت ، ولا شك أن ذلك الشيطان قد سمعني وتسلل إلى حيث الماء الضحوضاح ونظر حوله . فقلت بمجرد أن بلغ البر ونظر حوله : « كلا ، لن تفلح ! لن تفلح في الحرب ! » وشعرت كأنني أختنق ! فجهزت بندقيتي . ولكنني لم أتحرك وأخذت أتطلع . وانتظر هو لحظة ثم عاد يسبح مرة أخرى ، واستطعت أن أرى ظهره كله عندما بلغ ضوء القمر ، ثم هتفت « باسم الأب والابن والروح القدس » ...
 ورأيت من خلال الدخان وهو يناضل ، وكان يتأوه أو هكذا خيل إلى . فقلت أحدث نفسي : « آه ! أحمد الله . فقد قتلتني ! وجرفه التيار إلى الجسر الرملي ،

فاستطعت أن أراه بوضوح ، وقد حاول أن ينهض إلا أنه لم يتمكن من ذلك ، ثم ناضل لحظة وانطرح في الماء ، لقد رأيت كل شيء ، انظر إنه لا يتحرك ، ولا ريب في أنه مات ! أما رفيقاي فقد عادا إلى النطاق خشية أن يكون قد حل بالمكان سواه من الأبركة .

وقال الشيخ : « وهكذا قتلته ! إنه الآن بعيد جداً يا ولدى ! . . وعاد يز رأسه في حزن .

وفي تلك اللحظة طرق آذانها صوت تكسر الشجيرات وأصوات القوزاق العالية وهم يقتربون على طول الشاطئ بعضهم يمتطون صهوة جيادهم ، وبعضهم يسرون على الأقدام فصاح لوكاشكا قائلاً : « هل أنيتم بالقارب ؟ » وصاح أحد القوزاق : « إنك لفتى بارع يا لوكاشكا ! جره إلى الضفة » . وأخذ لوكاشكا يخلع ملابسه دون أن ينتظر القارب وبصره لا يغيب أبداً عن فريسته .

وصاح الأومباشي قائلاً : « انتظر لحظة ، فإن نازاركا يأتي بالقارب » وصاح قوزاق آخر : « أيها الغبي ! ربما كان حياً ويتظاهر بالموت ! خذ خنجرك معك ! »

فقال لوكاشكا وهو يخلع عنه سرواله : « إليكم عنى ! » وخلع ملابسه بسرعة ورسم علامة الصليب ، ثم ألقى بنفسه في النهر واجتازه سباحة قاصداً المواضع الضحلة منه ضارباً الماء ضربات طويلة بذراعيه البيضزين ، رافعاً ظهره عالياً خارج الماء . وهو يتنفس تنفساً عميقاً ، ووقفت على ضفة النهر جمهرة من القوزاق يتكلمون بصوت مرتفع ، وركب ثلاثة من الفرسان جيادهم وانطلقوا ليقوموا بأعمال الدورية ، وظهر القارب حول ثنية في النهر ، ووقف لوكاشكا على الجسر الرملي

وانحنى على الجثة وهزها مرتين ، وصاح فى صوت حاد : « إنه ميت بلا شك ! »
 وكان الجحشى قد أصيب بالرصاص فى رأسه ، وقد ارتدى سروالاً أزرق وقيصاً
 وسترة جركسية وربط على ظهره بندقية وخنجراً ، وطوى فوق هذا كله غصناً كبيراً
 وهو الغصن الذى خدع لوكاشكا أول الأمر .

وصاح أحد القوزاق الذين كانوا قد اجتمعوا فى حلقة ، عندما رفعت الجثة من
 القارب ووضعت على الضفة ، فقلت على الكلا : « أى شُوط حملت إلى
 البر ! »

وقال ثان : « ما أشد شحوبه »

وقال ثالث : « أين ذهب رفاقنا يبحثون ؟ أظن أن بقيتهم على الضفة الأخرى
 ولو لم يك هذا الرجل كشافاً ما سبح بهذه الطريقة وإلا فما باله قد سبح بمفرده ؟ »
 وقال لوكاشكا ساخراً وقد وقف يرتعد أسفل الضفة ويعصر ملابسه المبتلة :
 « لاشك أنه كان حاذقاً ، إذ تقدم الآخرين بنى جلدته ، ياله من زغبى ! لقد
 صيغ لحيته وقص شعر رأسه »

وقال رجل من القوزاق : « ثم إنه طوى سترته على ظهره على هيئة الكيس حتى
 تسهل عليه السباحة »

وقال الأومباشى الذى كان قد أمسك بالخنجر والبندقية اللذين انتزعهما من
 الميت : « اسمع يالوكاشكا ، تحتفظ لنفسك بالخنجر والسترة جميعاً ، ولكنى
 سأعطيك ثلاثة روبلات من الفضة نظير البندقية » ، ثم أردف وهو ينفخ فى فوهة
 البندقية : « وهأنذا ترى أن الماسورة لا تصلح لشيء » ، وإنما أريد البندقية على سبيل
 التذكار .

ولم يجب لوكاشكا ، وكان من الواضح أن هذا اللون من ألوان الاستجداء

بضايقه . ولكنه كان يعلم أنه ما من سبيل لتحاشيه .

فقال مقطباً حاجبيه وملقياً بستره الجعنى إلى الأرض : يا للشيطان ! لقد كان حرياً به أن يتزود على الأقل بستره سليمة . فإن هذه لا تعدو أن تكون خرقة ! »
وقال رجل من القوزاق : « لسوف تصلح لحمل الخطب »

وقال لوكاشكا : « موسيف . سأعود إلى دارى » . وكان من الواضح أنه نسي غضبه . وأراد أن يحصل على مزية لقاء ما يجب عليه من تقديم هدية إلى رئيسه .
- لا بأس . فلتعد .

وقال الأومباشى وهو لا يزال يفحص البندقية : « عودوا بالجثة إلى النطاق أيها الفتيان ، وضعوا عليها غطاء يقيها الشمس ، فقد يبعثون من الجبال من يسعى لافتدائها »

وقال بعضهم : « إن حرارة الشمس لم تشتد بعد »
وقال قوزاقى : « وماذا يكون من أمره إذا أدركه ابن آوى ؟ لن يكون هذا خيراً كثيراً . أليس كذلك ؟ »
« سنقيم عليه الحراسة . فلن يكون من الخير أن يجذوه ممزقاً إذا جاءوا يطلبون افتدائه »

فقال الأومباشى مبتهجاً : « حسن يا لوكاشكا ، قل ما تريد ، ولكن عليك أن تقدم للفتيان سطلاً من القودكا »

وأمن القوزاق على كلامه قائلين : « طبعاً ! فتلك هي العادة ، انظر أى حظ جعله الله من نصيبك ؟ لم تبل الحياة من بعد قط ، وتقتل واحداً من الأبركة ! »
وقال لوكاشكا : « اشترُوا الخنجر والسترة ولا تكونوا شحيحين . سأدع لكم السروال أيضاً ، فهو أصبى من أن يلائمى . فقد كان الملعون نحيلاً » .

واشترى رجل من القوزاق السترة بروبل ، ودفع آخر ثمن سطلين من الفودكا نظير الخنجر .

وقال لوكاشكا : « اشربوا أيها الفتيان ! سأقدم لكم أنا سطلاً ! سأتيكم به من القرية بنفسى ! »

وقال نازاركا : « واقطع السروال مناديل للفتيات ! »
وانفجر القوزاق ضاحكين .

وقال الأومباشى : « كفناكم ضحكاً ! واحملوا الخئة بعيداً ، أو تتركون هذا الجثمان العفن بجانب الكوخ ؟ » .

وصاح لوكاشكا بالقوزاق فى صوت الأمر : « فيم وقوفكم هناك ، جروه أيها الفتيان ! » ، وأمسك القوزاق بالخئة فى تردد مطيعين إياه كما لو كان رئيسهم ، وجروها بضع خطوات . ثم تركوا الساقين تسقطان . فسقطنا على الأرض لا حراك بهما ، وابتعد القوزاق عن الخئة . ثم وقفوا للحظات يخيم عليهم الصمت ، ثم تقدم نازاركا وعدل من وضع الرأس الذى كان مجنباً حتى ظهر الجرح المستدير الذى فوق الصدغ فانكشف وجه الميت كله .

وقال : « انظروا أية علامة تركتها الإصابة وقد استقرت فى صميم مخه ، ولن تخطئه الأنظار . بل سيعرفه أصحابه دائماً ! »

ولم يحبه أحد . ورفرف السكون بجناحيه مرة أخرى على رءوس القوزاق . وكانت الشمس قد اعتلت كبد السماء وأضاءت أشعتها المنكسرة الحضرة التدية ، وأخذت مياه نهر ترك القريب تترقق فى الغابة التى كانت قد نفضت عنها الكرى ، وراح الدراج يتنادى محيياً الصباح . ووقف القوزاق ساكنين ساكنين حول الميت يحملون فيه ، وكان الجسم الأسمر ، وقد تجرد من اللباس إلا من سروال

أزرق مبتل يمسكه حزام فوق البطن الغائر ، حسن التكوين ممشوق القد تدلت على جانبيه ذراعان مفتولتا العضل ، وانطرح إلى الخلف رأسه المستدير الخليق حديثاً وقد ضرب إلى الزرقة وظهر الجرح المتخثر على جانب منه ، وكان الجبين الناعم الذى لوحته الشمس يواثم كل المواهمة ذلك الجزء الخليق من رأسه ، وحملت عيناه المفتوحتان الشبهتان بالزجاج فى السماء وقد جمدا إنساناهما كأنهما فى تحديقهما يتجاوزان كل شيء . أما الشفتان الرقيقتان فقد بدتا مشدودتين عند زاويتي القم كأنهما قد ثبتتا تحت الشارب الأحمر المشذب على ابتسامة فيها تهكم أريب رحيم ، وغطت المعصمين النحيلين شعيرات حمراء واثنت الأصابع منطبقة واصطبغت الأظفار باللون الأحمر .

ولم يكن لو كاشكا قد ارتدى ملابسه بعد ، فقد كان مبتلاً ، وكان عنقه أشد احمراراً وعيناه أكثر تألقاً من المألوف ، أما وجنتاه العريضتان فكانتا ترتجفان ، وقد تصاعد من جسمه السليم الصحيح فى هواء الصباح الطلق بخار تكاد تخطئه العين . وتمتم تمتمة تجلى فيها أنه كان يعجب بالجنة : « لقد كان هو الآخر رجلاً ! » وقال أحد القوزاق : « أجل ، ولو قد وقعت فى يده ما رأيت منه شيئاً من الرحمة ! » .

وكان ملك الصمت قد ولى وشرع القوزاق يُضَوِّضُونَ هنا وهناك ، ويلغطون ، وذهب اثنان منهم ليقطعا بعض الشجيرات يحمون بها ، وتمشى بعضهم متجهين صوب النطاق ، وركض لو كاشكا ونازاركا ، لبتأها للذهاب إلى القرية . وما إن انقضت ساعة حتى كان لو كاشكا ونازاركا فى طريقهما إلى دارهما وهما يتحدثان حديثاً متصلاً ويركضان أو يكادان خلال الغابات الكثيفة التى تفصل نهر ترك عن القرية .

وكان لوكاشكا يقول لصاحبه في صوته الحاد : « حذار أن تقول لها : إننى بعثت بك إليها ! وحسبك أن تذهب ، فترى إن كان زوجها فى الدار » .
وقال نازاركا الصديق المخلص : « وسأمر أيضاً على يامكا وسنعتقد مجلس أنس ومرح . أليس كذلك ؟ » .

وأجابه لوكاشكا قائلاً : « ومتى نعتقده إن لم نعتقده اليوم ؟ » .
وبلغ القوزاقيان القرية فشربا وناما حتى المساء .

الفضل المباشر

في اليوم الثالث من انقضاء الحوادث التي وصفناها بلغت سريتان من فرقة قوقازية للمشاة قرية نوفوملينسكايا القوزاقية ، وكانت السروج قد خلعت عن الجياد ووقفت عربات السريتين في الميدان ، وكان الطهاة قد حضروا حفرة وجمعوا الحطب من الأبنية المختلفة (وكان أصحاب هذا الحطب لم يتحفظوا عليه التحفظ الكافي) . وأخذوا الآن يطهون الطعام ، وكان الباشجاويشية ينادون الأسماء وشرع رجال سلاح الخدمة يدقون الأعمدة على الأرض ؛ ليعقلوا الخيل ؛ وكان أمناء الميرة يجولون في الشوارع كأنهم في ديارهم ويرشدون الضباط والجنود إلى المضارب التي يعسكرون فيها .

وكان ثمة صناديق خضر للذخيرة رصت في صف ، وعربات وحيد خاصة بالسريتين وقدر كبير يطهى فيها الثريد . وكان ثمة أيضاً يوزباشى وملازم أول وباشجاويش يدعى أونيسيم ميخائيلوفتش ، وقد جرى كل ذلك في قرية قوزاقية ؛ إذ صدرت الأوامر للجنود هاتين السريتين بأن يعسكروا فيها ، ومن هنا شعر كل منهم

بأنه في داره .

فلم عسكر هؤلاء الجنود في القرية ؟ ومن يكون أولئك القوزاق الذين نزلوا بينهم ؟ وهل يرضى القوزاق عن حلول الجنود بين ظهرانيهم ؟ وهل هم من المؤمنين القدامى أولاً ؟ الحق أن كل هذه المسائل لم تكن مما يؤبه له أو يلتفت إليه ! وأخلى الجنود من العمل ، وكانوا منهكين يعلوهم الغبار فانطلقوا في الميادين والشوارع يهضبون في هرج ومرج كأنهم جاعة من النحل توشك أن تحط .

ولم يأبه الجنود بما تضطرب به قلوب القوزاق من حفيظة ، وراحوا يثرثرون في مرج ، ودخلوا الأكواخ وينادقهم تقعقع اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة ، وعلقوا عتادهم وفكوا حقائبهم ، وأخذوا يمزحون مع النساء ، واجتمعت طائفة كبيرة من الجنود في مكانهم المحبوب ، حول قدور الثريد ، ووضعوا غلايينهم الصغيرة بين أسنانهم ، وأخذوا يحدقون تارة في الدخان الذي بدأ يتجمع في سحب بيضاء كثيفة وهو يتصاعد إلى السماء الحارة ، وتارة إلى نيران المعسكر وهي تضطرب في الهواء الطلق كأنها الزجاج المصهور . ويتماجنون بالقوزاق رجالاً ونساء ، ويسخرون منهم : ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يعيشون قط كما يعيش الروس . وكنت تستطيع أن ترى الجنود في كل فناء وأن تسمع ضحكهم وصيحات نساء القوزاق الحادة المحقة وهن يدافعن عن منازلهن أو يرفضن إعطاء الجنود ماءً أو أواني للطهو ، وتعلق الصبية والبنات الصغار بأمهاتهن أو تعلق بعضهم ببعض ، وشرعوا يراقبون كل حركة من حركات الجنود (ولم يكونوا قد رأوا جندياً من قبل) وقد غلکهم حب الاستطلاع الممزوج بالخوف ، أو يركضون خلفهم مخلين بينهم مسافة كافية .

وكان الشيوخ من القوزاق يخرجون من دورهم في صمت ووجوم ، ويجلسون على المصاطب حول أكواخهم يراقبون نشاط الجنود كأنهم لا يدركون أو يأبهون بما

ينتهى إليه ذلك كله .

وقد نزل أوليين الذى كان قد التحق بالفرقة بوصفه طالباً فى المدرسة الحربية قبل ذلك بثلاثة أشهر - فى بيت من أحسن بيوت القرية . وهو بيت حامل العلم إيليا فاسيليفتش : أى عند السيدة أوليتكا .

وقال فانيوشا وهو يلهث مخاطباً أوليين : « والله يعلم كيف تكون الحياة هنا يا ديمترى أندرييفتش » وكان فانيوشا يرتدى سترة جركسية ويركب جواداً من فصيلة كاباردا اشتراه فى جروزنايا . وقد أخذ يلج فناء المنزل الذى خصص له منطلق الأسارى بعد مسيرة خمس ساعات .

وسأله أوليين : « كيف ؟ وما الخبر ؟ » . وراح يداعب جواده . وينظر فى مرج إلى فانيوشا الذى كان قلقاً أشعث الشعر يتصب عرقاً ، وقد وصل بالعربات وأخذ يفك المتاع المهزوم الذى كانت تحمله .

وبدا أوليين رجلاً يختلف كل الاختلاف وما عهدناه ، فقد أصبح له شارب فنى ولحية قصيرة بعد أن كان حليق الشارب واللحية . أما وجهه الشاحب الذى كان قد أهكه سهر الليالى فقد تورد منه الآن الحدان والجبين والإهاب الذى يلتف بأذنيه ، ولفحته سمر الشمس الناطقة بالصحة والعافية . ولم يد كما عهدناه فى سترته الرسمية السوداء الجديدة . بل كان يرتدى سترة جركسية بيضاء قدرة ونقبة حافلة بالطيات . ويحمل بندقية على كتفه . وهجر البنيقة المشاة لتوها . وربط رقبته بالشريط الأحمر لصدرته الحربية وكان يرتدى اللباس الجركسى . ولكنه لم يكن يحسن ارتدائه . فإذا رآه أحد أدرك أنه روسى وليس من الزغيث . كانت تبدو عليه سيماء الجراكسة . ولكن شتان بين الأصل والتقليد . ومع ذلك كله فقد كان كيانه كله ينطق بالصحة والغبطة ورضا النفس .

وقال فانيوشا : « أجل . يبدو لك هذا مضحكاً . ولكن حاول أنت نفسك أن تتحدث إلى هؤلاء القوم تجدهم يزورون عنك وهكذا ينتهى الأمر . ولاستطيع أن تفوز منهم حتى بكلمة » . وألقى فانيوشا بدلو على العتبة غاضباً ، ثم استرسل : « إن فيهم شيئاً يجعلهم يختلفون هم والروس » .
« عليك أن تتحدث في ذلك إلى شيخ القرية » .

فقال فانيوشا في طجة غلب عليها الحق : « ولكنى لا أعرف أين يقيم ؟ » .
وسأله أوليين وهو ينظر حوله : « من ذا الذى أغضبك كل هذا الغضب ؟ » .
فأجاب فانيوشا وهو يضع يديه على رأسه : « لا يعلم ذلك إلا الشيطان ! لا أجد للقوم شيئاً بمعنى الكلمة هنا . يقولون إنه ذهب إلى كرينجة^(١) من الكرينجات . أما المرأة العجوز فهى والشيطان سواء ! اللهم احفظنا » . ثم ختم كلامه قائلاً : « لست أدرى : كيف نعيش هنا ؟ فالقوم أسوأ من التتر ، وهم يدعون أنهم مسيحيون ! إن الترى شرير حقاً . ولكنه مع ذلك أكثر منهم نبلاً . ذهب إلى « الكرينجة » بلاريب ! ولكنى لا أعلم ماذا تكون « كرينجتهم » هذه ؟ ثم انتحى جانباً .

وقال له أوليين مازحاً دون أن يترجل عن جواده : « ألا يشبه هذا المنزل غرف الخدم في بلدنا ؟ »

وقال فانيوشا . وقد بدا أن هذه الظروف الجديدة قد بعثت في نفسه الحيرة إلا أنه استسلم نصيره : « أفلا تفضل على بجوادك ؟ »
وعاد أوليين يقول وهو يترجل عن جواده ويضرب السرج : « إذن فالتترى أكثر نبلاً . أليس كذلك يا فانيوشا ؟ » .

(١) الكرينجة : موضع مسور على ضفة الهر يستخدم لصيد السمك

وتعم فانبوشا غاضباً : « اضحك ، على رسلك . إنك لتظن أن الأمر بيعث على الضحك »

فأجابه أوليين وهو لا يزال يبتسم : « لا عليك ! اترك الغضب يا فانبوشا ، فإني ذاهب لأحدث مع أهل الدار ولترين أنتى سأسوى كل شىء . إنك لا تدرى ما سنصيب فى حياتنا هنا من مرح ، وكل ما أطلبه منك ألا تعضب » .

ولم يحب فانبوشا . بل قطب ما بين حاجبيه وشيع سيده بنظرة ازدراء ، وهز رأسه . ولم يكن فانبوشا ينظر إلى أوليين إلا نظرة الخادم إلى سيده ، وكذلك كان أوليين لا ينظر إلى فانبوشا إلا نظرته إلى خادم ، ولو أن أحداً قال لها : إنها صديقان - كما كانا فى الواقع على غير وعى منها - لبلغت منها الدهشة كل مبلغ . وكان فانبوشا قد حُمل إلى منزل سيده وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره ، وكان أوليين فى هذه السن نفسها . وعندما بلغ أوليين الخامسة عشرة لقن فانبوشا بعض الدروس مدة من الزمن وعلمه قراءة الفرنسية ، وكان فانبوشا فخوراً بذلك كل الفخر . وهو لا يزال على عهده يتفوه ببعض الكلمات الفرنسية إذا تملكه السرور ، ويضحك دائماً فى بلادة وغباء إن فعل هذا .

وارتقى أوليين فى عجلة درج المدخل . ودفع باب الكوخ فانفتح وقفزت ماريانكا بعيدة عن الباب فزعة مضطربة . ولم تك ترتدى إلا قيصاً وردياً . شأن نساء القوزاق جميعاً وهن ملازمات لبيوتهن والتصقت بالجدار . وغطت الجزء الأسفل من وجهها بكما العريض . ودفع أوليين الباب فزاد انفراجاً . ورأى فى غبشة الدهليز طيف الفتاة القوزاقية المليح المشوق . ورمق بفصول الشباب المتلهفين المشوقين ذلك الجسم العذرى الغض يفضحه القميص المطبوع الرقيق . وتلك العينين السوداوين الجميلتين اللتين أخذتا تحدقان فيه فى رعب كالأطفال

وتشوف فطرى لا تكلف فيه ولا صناعة .

وقال أوليين يحدث نفسه : « هذه هي » ، وطراً على ذهنه فى الحال ما جعله يستدرك قائلاً : « ولكنى سأجد كثيرات من أمثالها فى القرية » . ثم فتح الباب الداخلى .

وكانت السيدة أولتيكا منحنية وظهرها إليه تكس الأرض ولم تكن ترتدى هى أيضاً إلا قيصاً .

وأشأ يقول : طاب صباحك أيتها الأم ! لقد جئت أحدثك فى شأن مسكنى « والتفتت المرأة القوقازية إليه بوجهها الصارم الذى احتفظ بما كان عليه من وسامة دون أن تنتصب قائمتها . ثم صاحت وهى تنظر إلى ذلك الوافد الجديد شزراً من تحت جبينها المقطب :

« ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ أتريد أن تسخر منا ؟ سأعلمك كيف تسخر ؟ ألا فليحل بك الطاعون ! » .

وكان قد خيل إلى أوليين أول الأمر أن القوم سيستقبلون جيش القوقاز الباسل الذى أنهكه الطريق - وكان هو فرداً من أفرادة - بالابتهاج فى كل مكان . وخاصة القوقاز رفقاءهم فى الحرب . ومن ثم تحير فى أمر هذا الاستقبال . وحاول وهو يحتفظ بسرعة خاطره أن يشرح للمرأة أنه قصد أن يدفع أجر مسكنه إلا أن العجوز أبت أن تلقى بسمعها إليه .

وصرخت السيدة العجوز بصوت حاد . ولم تترك لأولينين الفرصة للكلام : « لماذا جئت ؟ ومن ذا الذى يود طاعوناً مثلك بوجهك الأملط الذى يشبه رأس السمكة ؟ انتظر لحظة حتى يعود رب الدار فيريك المكان الذى ستزل فيه ، ولا أريد نقودك القذرة ! نقوداً . عجباً ! كأننا لم نر نقوداً قط ! لتلوثن المنزل

بطباقتك الحقير ، ثم تروم أن تطهره بنقودك ! أولم نرأونة على شاكلتك من قبل ؟
ألا فليصحبك الرصاص في أمعائك وقلبك ! »

وقال أولينين يحدث نفسه : « يبدو أن فانيوشا كان على حق ! إن الترى لأكثر نبلاً » . وخرج من الكوخ تشيعه لعنة السيدة أولنيكا . وفيما هو يغادره انفلتت ماريانكا من الدهيز فجأة ومرت به . وكانت لا تزال ترتدى قيصها الوردى دون سواء ، إلا أنها كانت قد أخفت وجهها إلى ما تحت عينيها بمنديل أبيض ، وهبطت الدرج مسرعة تطرقع بقدميها العاريتين ، ثم هبطت ركضاً من مدخل الكوخ ، ونظرت إلى الشاب نظرة خاطفة بعينيها الضاحكتين . وما لبثت أن اختفت خلف ناصية الكوخ .

وأخذ أولينين أشد من ذي قبل بمخطوطها الفتية الثابتة والنظرة الآبدة تتألق من عينيها تحت المنديل الأبيض . وقوامها اللدن المكتنز .

وقال يحدث نفسه : أجل إنها هي ولاسواها ، وظل يلتفت لحفه إلى ماريانكا وهو يقترب من فانيوشا وقد قل اهتمامه بأمر المسكن أكثر وأكثر .

وقال فانيوشا ، وقد علا وجهه شيء من البشر بالرغم من أنه كان لا يزال مشغولاً بأمر المتاع : « أرايت ؟ إن الفتاة متوحشة توحش سائر أهل البلد ، حتى لكأنها مهرة وحشية ! » . ثم أردف يقول بالفرنسية في صوت مرتفع ثم عن الفوز : « آه من المرأة ! » . وانفجر ضاحكاً .

الفصل الحادى عشر

عاد رب البيت من صيد السمك قبل أن يحل المساء . وعلم بأن طالب المدرسة الحربية يريد أن يدفع أجر مسكنه . فطيب خاطر المرأة العجوز . وأجاب فانيوشا إلى طلباته .

واستقر الأمر بهما فى مسكنها الجديد ، فقد انتقل أصحاب المسكن إلى المنزل الشتوى ، وتركوا الكوخ الصيق للطلاب لقاء ثلاثة روبلات فى الشهر ، وتناول أوليين شيئاً من الطعام . وذهب لينا . واستيقظ قبيل المساء واغتسل ، ثم أصلح من شأنه وتناول عشاءه . ثم أشعل لفاقة تبغ ، وجلس بجانب النافذة التى تطل على الشارع . وكان الجو قد ازداد لطفاً ، وامتد الظل المائل للكوخ بأسفله الهرمية المزينة مجتازاً الطريق المغبر . بل تسلق قاعدة المنزل المقابل الذى كان سقفه الشديد التحدر المغطى بأعواد القصب يلمع فى أشعة الشمس الغاربة ، وازداد الهواء رقة وصفاء . وكان كل ما فى القرية ينطق بالأمن والسكينة ، فقد استقر الجنود وأخلدوا إلى الهدوء . ولم تك القطعان قد سقت بعد إلى القرية . ولا عاد القوم من عملهم .

وكان مسكن أوليين في طرف القرية تقريباً ، وكانت أصوات إطلاق النار المكتومة تطرق الآذان في فترات نادرة من مكان ما في الفضاء البعيد وراء نهر ترك ، وفي الاتجاه الذي قدم منه أوليين (في جبال الحجن أو في سهل كوميك) ، وكان أوليين راضى النفس كل الرضا ، بعد أن عاش في المعسكرات الخلاوية ثلاثة أشهر ، وكان يشعر أن وجهه الذي غسله لتوه قد غدا ناضراً وأن جسمه القوي قد أصبح نظيفاً (وهو شعور لم يألفه بعد الحملة) ، وأن جميع أعضائه المستريحة قد سرى فيها شعور بالهدوء والقوة ، وأن عقله أيضاً قد شمله النقاء والصفاء !

كان يفكر في الحملة وما ألم به من أخطار ، وتذكر أنه واجه هذه الأخطار بروح لا تقل عن روح غيره ، وأن الجنود قد قبلوه رقيقاً في صفوف القوقازيين الشجعان ، أما ذكرياته عن موسكو فقد تركها وراءه والله يعلم بعد الشقة بينه وبينها الآن ! لقد انمحت حياته القديمة وبزغ فجر حياة جديدة كل الجدة لم يقع فيها حتى الآن شيء من الأخطاء ، وهو يستطيع هنا أن يكسب سمعة جديدة طيبة بوصفه رجلاً جديداً بين قوم جدد ، كان يحس بهجة الحياة ، بهجة خالصة فتية لا يعرف لها علة ولا سبباً ، وكان يطل من النافذة حيناً ويشاهد الأطفال يدورون دواماتهم في ظل المنزل ، ويدور ببصره حيناً آخر في أرجاء مسكنه الصغير الجديد ، ويتحدث نفسه بالمتعة التي سوف تصيبه باستمراره في هذه الحياة الجديدة بالقرية القوزاقية ، وكان يسرح ببصره الفتية بعد الفتية في الجبال والسماء فيحس بما عليه الطبيعة من عظمة مهية ويمتدح هذا الإحساس بذكرياته وأحلامه ، لقد بزغ فجر حياته الجديدة ، على نحو يخالف ما تخيله عندما رحل عن موسكو ، بل إن هذا الفجر قد أشرق إشراقاً لم يدر في حسابه ، الجبال ، الجبال ، الجبال ، لقد كانت قوام كل أفكاره ومشاعره .

وأخذ صبية القوزاق الذين كانوا يدورون دواماتهم تحت النافذة يصيحون فجأة وهم ينظرون إلى الطريق الجانبي : « لقد قبل كلبه مودعاً ! ولعن القدر ! لقد قبل العم يروشكا كلبه ! »

وصاح الأطفال وهم يختشدون ويتراجعون : « لقد قبل كلبه وباع خنجره لقاء كأس ! » .

وكانت هذه الصيحات موجهة إلى العم يروشكا . وهو عائد من رحلة صيد وقد حمل بندقيته على كتفه ، وتدلى بعض الدراج من حزامه .

وقال وهو ينوح بذراعيه بقوة ، ويرفع بصره إلى النوافذ على جانبي الطريق : « لقد أخطأت أيها الفتيان ! لقد أخطأت ! » ، وعاد يقول وهو يادى الغضب وإن كان يتظاهر بعدم المبالاة : « تركت الكلب يذهب ليشرب كأساً ، وكان هذا خطأ مني ! » .

وعجب أولنين من سلوك الأطفال نحو الصياد الشيخ إلا أن عجبه كان أعظم لرؤية الوجه الذكي الصادق والبنية القوية لذلك الرجل الذي ناداه الصبيان بالعم يروشكا .

فصاح به أولنين : « هنا أيها العم ! هنا أيها القوزاق ! تعال هنا ! » . ونظر الشيخ إلى النافذة ووقف .

وقال وهو يرفع قبعته الصغيرة عن رأسه الخلق : « طاب مساؤك أيها الصديق الكريم ! » .

فأجابه أولنين : « طاب مساؤك أيها الصديق الكريم » ، ما هذا الذي جعل أولئك الصغار يتصايحون عليك ؟ » .

واقرب العم يروشكا من النافذة ، وقال بتلك النبرات الموسيقية الثابتة التي

يتحدث بها الشيخ من أهل الوقار : « إنما هم يعابثون رجلاً مسناً ، ولا عليهم ،
 فإن عبثهم هذا يروق لى . دعهم يتندرون بعمهم الشيخ » . ثم أردف يقول :
 « أنت قائد الجند ؟ » .

فأجابه أولينين : « كلا . فأنى ضالب فى المدرسة الحربية » ، ثم سأله : « ولكن
 أين أصبت تلك الدراج ؟ » .

فقال الشيخ وهو يدير ظهره العريض إلى النافذة ليريه فرخات الدراج التى
 كانت مدلاة ورءوسها مثبتة فى حزامه تلوث سترته بدمائها : « صدت هذه الفرخات
 الثلاث فى الغابة ! » .

ثم سأله : « ألم تفرخات من قبل ؟ » ، أخذ زوجاً منها إذا شئت ! « وناوله
 فرختين من النافذة ثم سأله : « هل أنت صياد أيضاً ؟ » .

« أجل وقد أصبت منها أربعاً خلال الحملة » .

فقال الشيخ فى تهكم : « أربعاً ؟ عدد عظيم ! أو تشرب الخمر ؟ وهل تتناول
 الخكير ؟ » .

« لم لا ؟ إن الشراب يطيب لى » .

فقال العم يروشكا : « آه ! أرى أنك شاب ظريف ، سنكون أنت وأنا
 صديقين حميمين » .

وقال أولينين : « ادخل . ستناول شيئاً من الخكير » .

فأجاب الشيخ : « حرى لى أن أفعل . ولكن خذ الفرختين » ، وبدأ على وجه
 الشيخ أنه أحب طالب الحرية ، وأدرك لنوه أنه مستطيع أن يحصل من الطالب
 على كئوس من الشراب من غير مقابل ، وأن الفرختين لن تضيعا هباء .

وسرعان ما ظهر العم يروشكا على باب الكوخ ، ولم يدرك أولينين حق الإدراك

ما كان عليه هذا الرجل من كبر الحجم وضخامة البنيان إلا في ذلك الوقت . وبدأ وجهه الأسمر الضارب إلى الحمرة بلحيته العريضة الناصعة البياض ، خطت الشيخوخة والعمل الشاق خطوطاً عميقة فيه ، وكانت عضلات ساقيه وذراعيه وكفيه كبيرة وبارزة إلى حد عجيب لا نعهده في الشيخوخة ، وكانت تملأ رأسه ندوب غائرة ، وتعطى رقبته الغليظة القوية ثنيات عميقة متقاطعة كأنها رقبة ثور وتعشى يديه المصليتين سحباً وخدوش . وتحطى الرجل عتبة الباب في خفة ويسر ، وخلع بندقيته ووضعها في ركن ، ثم ألقى نظرة خاطفة على الغرفة . ولاحظ قيمة المتاع والأثاث الذي في الكوخ ، ثم خطا إلى وسط الغرفة وأصابع قدميه مرفوعة ، وكان يتعلل خفًا من الجلد غير المدبوغ ، تفعمه ريح قوية هي مزاج من الجكير والفودكا والبارود والدم المتخثر .

والحنى العم يروشكا أمام الأيقونات ، وسوى لحيته ، ثم اقترب من أوليين ، ومد إليه يده الغليظة السمراء وقال : « كوشكيلدى » ، وهذه هي العبارة التثنية المرادفة لـ « طاب صباحك » ، أما في لغة هؤلاء القوم فعناها « السلام عليك » . فأجاب أوليين وهو يصفحه : « كوشكيلدى ! وإني لأعرف ذلك » . فقال العم يروشكا وهو يهز رأسه كأنه يلومه : « كلا ، إنك لا تعرف ، لا تعرف الرد الصحيح أيها الأحمق ! ذلك أنه إذا قال لك أحد « كوشكيلدى » وجب أن يكون ردك عليه « الله راسى بوسون » أى « حفظك الله » . وهكذا يكون الرد يا رجل ، وليس كوشكيلدى ، لقد كان يقيم بيننا هنا رجل اسمه إيليا موسيتش ، وهو أحد مواطنكم الروس ، وكنا صديقين حميمين ، لقد كان إيليا هذا فتى ولا كافتبان ، سكيراً ولصاً وصياداً - وأى صياد ! لقد علمته كل شئ ! » .

وسأله أولنين وقد بدأ الشيخ يثير اهتمامه أكثر وأكثر : « وما الذى عزمت أن تعلمنى إياه ؟ » .

« سأخذك معى للقنص ، وأعلمك صيد السمك ، وسأريك الججن ، بل أبحث لك عن فتاة إن شئت ! فعلى هذا طبع ! إننى أصلح لكل شيء ! »
وضحك الشيخ ثم قال : « لأجلس فإنى متعب » ، ثم أردف متسائلاً :
« كارجا ؟ » .

وسأله أولنين : « وما معنى كارجا ؟ » .
« عجباً ، إن معناها « لا بأس » فى لغة الكرج ، ولكنى أقولها فى كل مناسبة ، وهذا وكدى ، بل هى الكلمة المفضلة عندى ، فأنا أقول من غير مناسبة كارجا ، كارجا ، أقصد أننى أقولها وأنا أمزح ، إيه يا رجل ! أفلا تأمر لنا بشيء من الحكير ؟
أليس عندك جندى يقوم على خدمتك ؟ » ، وصاح الشيخ : « إيه يا إيفان ؟ كل الجنود اسمهم إيفان ، فهل اسم خادمك إيفان ؟ » .

« صدقت كل الصدق » ، إن اسمه إيفان - فانيوشا^(١) ، إلى . . . إلينا يا فانيوشا هلا أتيت ببعض الحكير من ربة الدار وحملته لنا هنا ! » .
وقال الشيخ : « يستوى أن يكون اسمه إيفان أو فانيوشا . لم تسمون جنودكم جميعاً باسم إيفان ؟ إيفان يا صديقى ، قل لهم : أن يعطوك شيئاً من الدن الذى افتضوه وشيكاً ، فإن عندهم خير جكير فى القرية ، ولكن حذار أن تدفع أكثر من ثلاثين كويكا ثمناً له : ذلك أن تلك الخيزيون سيستحفها الفرح . . . ! » . واسترسل العم يروشكا يقول فى لهجة من يسربشء بعد أن خرج فانيوشا :

(١) فانيوشا : هو اسم التذليل من إيفان

« إن قومنا قوم أغبياء حلت عليهم اللعنة ، فهم لا ينظرون إليكم نظرهم إلى أناس من بنى البشر ، بل إنكم في نظرهم لأسوأ من التتر ، وهم يصفونكم بقولهم : إنكم « الروس من أهل الدنيا » ، أما بالنسبة لك فإنك في نظري ما زلت إنساناً فيك روح بالرغم من كونك جندياً ، أليس هذا صحيحاً ؟ لقد كان إيليا موسييتش جندياً ، ولكن أى ذخر كان يحمله بين يديه ؟ أليس كذلك يا صديقي ؟ ولهذا السبب لا يحبنى قومي ، ولكنى لا أحفل بذلك ، فأنا رجل مرح أحب كل إنسان ، أنا يروشكا ، أجل يا صديقي » .

وريت القوزاق الشيخ على كتف الشاب في ود ومحبة .

الفصل الثاني عشر

كان فانيوشا بادی السرور والانشراح ، فقد فرغ في هذه الأثناء من ترتيب أموره المنزلية ، بل خلق ذقنه عند حلاق السرية . ونزع سرواله من طهارة دلالة على أن السرية استقرت في أماكن مريحة . وراح ينظر إلى يروشكا نظرة انتباه لا نظرة الشفقة والبر ، كأنه إزاء وحش لم يره من قبل قط . ثم هز رأسه مرخياً بصره إلى الأرض التي كان الشيخ قد لوثها . وذهب إلى رية الدار بعد أن أخرج زجاجتين من تحت أريكة من الأرائك .

وقال وقد صح منه العزم على أن يكون غاية في اللطف والدمائة : « طاب مساؤكم يا أهل الفضل . لقد بعث بي سيدى للحصول على شيء من الجكير أفلا تخرجون لي شيئاً منه يا أصحاب الكرم ؟ » .

ولم تحر المرأة العجوز جواباً ، والتفت الفتاة في صمت إلى فانيوشا ، وكانت تسوى مندبلاً على رأسها أمام مرآة تربية صغيرة .

وقال فانيوشا وهو يشخّش بقطع النقود البرونزية في جيبه : « سأؤدى لكم ثمنه

أيها القوم المحترمون ، ثم أردف : « أكرمونا نكرمكم » .
فسألته العجوز في اقتضاب : « كم تطلب ؟ » .
« ثماناً » (١) .

فقالت السيدة أولتيكا موجهة الحديث إلى ابنتها : « اذهبي وائتي له بشيء من الجكير يا عزيزتي ، خذيه من الدن الذي اقتضضناه يا غالية » .
وأخذت الفتاة المفاتيح والزجاجة ، وخرجت من الدار في صحبة فانيوشا .
وسأل أولينين يروشكا مشيراً إلى ماريانكا التي كانت تمر بالنافذة : « خبرني من تكون هذه الفتاة ؟ » وغمز الغم يروشكا الشاب وكثره بمرفقه ، وقال له : « انتظر قليلاً » ، وأطل من النافذة ، وسعل : « إحم » ، ثم صاح في صوت كالخوار :
« يا عزيزتي ماريانكا ، إيه يا بنيتي ماريانكا ! ألا تحبينني يا حبيبتي ؟ » ثم همس في أذن أولينين : « إنني أصلح لكل شيء »

ولم تلتفت الفتاة برأسها إليه ، بل مرت بالنافذة تهز ذراعها في حركة منتظمة نشيطة ، متعلقة بتلك الخطوة الرشيقة الجريئة المعهودة في المرأة القوزاقية ، واكتفت بأن أدارت عينها المكحلتين ببطء تجاه الشيخ .

وصاح يروشكا : « هي لي حبك تكتب لك السعادة » ، ثم غمز بعينه ونظر نظرة المتسائل إلى طالب الحرية قائلاً : « إنني رجل ظريف ، بل أنا كالمخ في الطعام ! إن تلك الفتاة للملكة سماوية ، أليس كذلك ؟ »

فقال أولينين : « إنها لفاتنة ، ادعها إلى هنا ! »

فأجاب الشيخ : « كلا ، كلا ، إن تلك الفتاة ستزوج لوكاشكا وهو قوزاق كرم شجاع فقد قتل رجلاً من الأبركة منذ أيام ، وسأبحث لك عن فتاة خير منها ،

(١) أي عن جالون

سأبحث لك عن فتاة تخطر في الحرير والفضة . وأنا إذا قلت شيئاً فعلته ، سأبحث لك عن آية من آيات الحسن .
فقال أوليين : « أنت الشيخ . . . وتصدر منك هذه الأقوال وى ، إنها لمعصية ! »

فقال الشيخ بلهجة التوكيد : « معصية ؟ أين هي المعصية ؟ أمن المعصية أن ينظر المرء إلى فتاة حسناء ؟ أمن المعصية أن يداعبها . أو أن المعصية أن يحبها ؟ أهذا هو الشأن في بلادكم ؟ كلا يا صديق ، ليست في ذلك معصية بل فيه خلاص النفس ! فالله هو الذى خلقك . وهو الذى خلق الفتاة أيضاً . وهو خالق كل شيء ، وليس من المعصية أن تنظر إلى فتاة جميلة ، لقد خلقها الله لهذا ، خلقها لتحب وتشيع البهجة والسرور ، وهذا هو رأى . يا صديق »

وكانت ماريانكا قد اجتازت الفناء ، ودخلت مخزناً مظلماً رطباً مليئاً بالدنان ، ثم يمت شطردن منها وتلت الصلاة المألوفة . وأدلت فيه بدلو وكان فانيوشا يقف بالباب مبشماً وهو ينظر إليهم ودار بخلده أن من أعجب الأمور ألا ترتدى الفتاة إلا قيصاً محبوكاً من الخلف . مشموراً من الأمام ، وأعجب من ذلك أن تتقلد قلادة من النقود الفضية . ورأى في ذلك مجافاة شديدة لما ألفه الروس ، وأن كل من ينزل بأحياء رقيق الأرض في بدة خليق بأن يضحك إذا رأى فتاة كهذه ، وحدث نفسه قائلاً : « لا بأس بالفتاة قط على ما هي عليه . وذلك من قبيل التغيير ، وسأنبئ سيدى بهذا الحاضر » .

وصاحت الفتاة فجأة : « فيم وقوفك في الضوء أيها الشيطان لم لا تناولنى الزجاج ؟ »

وملأت ماريانكا الزجاجية بالخمير الحمراء الرطبية وناولت فانيوشا إياها .
وقالت وهي تدفع يده التي كانت تحمل النقود : « أعط أمي النقود » .
وضحك فانيوشا ، ثم قال في رقة وهو يبدل قدميه متردد الفكر حائراً على حين
كانت الفتاة تغطي الدن : « ما بالك مسرفة في الغلظة يا عزيزتي ؟ »
وراحت الفتاة تضحك ثم قالت : « وأنت ! أتراك رقيق الحاشية ؟ »
فأجاب فانيوشا في قوة وعزم : « إنا ، سيدى وأنا ، على حظ عظيم من رقة
الحاشية ، بل لقد بلغ من رقة حاشيتنا أننا أينما حللنا كان مضيفونا يلهجون دائماً
بالثناء المستطاب علينا ، ذلك أن سيدى من النبلاء »
ووقفت الفتاة تنصت إليه . .

ثم سأله : « وهل سيدك متزوج ؟ »
قال فانيوشا يزيداً علماً : « كلا ، إن سيدى صغير السن لم يتزوج بعد ،
والسادة النبلاء لا يتزوجون أبداً صغاراً »
وهتفت تقول : « صغير السن جداً ! أتور ضخم كبير مثله أصغر من أن
يتزوج ؟ » ثم سأله : « هل هو رئيسكم كلكم ؟ » .
وشرع فانيوشا يقول فخوراً : « إن سيدى طالب بالمدرسة الحربية ، أى أنه لم
يصبح بعد ضابطاً ، ولكنه أعظم شأنًا من قائد جيش ! إنه لرجل عظيم الشأن
يعرفه أميرالاي سريتنا بل القيصر نفسه ! ذلك أننا لسنا على شاكلة أولئك
الشحاذين من أفراد الكتيبة النظامية ، فقد كان أبوه عضواً في مجلس الشيوخ ،
وكان له ألف ونيف من رقيق الأرض كلهم ملك يمينه ، وكانوا يبعثون إلينا بألف
روبل دفعة واحدة ، وهذا هو السر في أن الجميع يحبونا ، وقد يبلغ غيره رتبة
اليوزباشى ويكون خلو الوفاض من المال ، فما فائدة ذلك ؟ » .

وقالت الفتاة مقاضعة إياه : « اذهب فإننى سأغلق المحزن »
 وحمل فانيوشا الخمر إلى أوليين وقال له بالفرنسية : « إن الفتاة جميلة
 جداً ! » ، ثم ضحك في غباء وخرج من فوره .

الفصل الثالث عشر

كان نغير « نوبة الانصراف » قد انطلق في هذه الأثناء في ميدان القرية ، وعاد القوم من أعمالهم ، وأخذ القطيع يحور وقد احتشد عند باب القرية فبدأ كسحب انعقدت من الغبار الذهبي ، وهرعت الفتيات والنساء مجتازات الطرق والأفنية يسفن مواشيهن واختفت الشمس تماماً خلف قمم الجبال النائية المكلفة بالجليد وانتشر فوق الأرض والسماء ظل شاحب ضارب إلى الزرقة ، وكانت الكواكب الباهتة اللون قد أخذت تتألق فوق البساتين المعتمة ، وبدأت الأصوات تحمد في القرية رويداً رويداً وعينت النساء بأمر الماشية وتركنها تبيت ليلتها ، ثم خرجن وتجمعن عند نواصي الطرقات ، وجلسن على مصاطب المنازل وهن يقصقطن بذور عباد الشمس بين أسنانهن ، وكانت ماريانكا قد فرغت من حلب البقرتين وجاموسة فلحقت بإحدى هذه الجماعات ، وكانت مؤلفة من بضع نساء وفتيات ومن شيخ قوزاق ، ودار الحديث بينهم عن ذلك الرجل من الأبركة الذي لقي مصرعه ، وكان القوزاق يروي القصة والنساء يوجهن له الأسئلة .

وقالت إحدى النساء : « أعتقد أنه سينال مكافأة سخية »

-- بلاريب ، وقد قيل : إنهم سينعمون عليه بوسام الصليب .

ولكن موسيف حاول أن يظلمه إذ أخذ منه البندقية ، غير أن ولاية الأمور في كزليار سمعوا بالخبر .

- إن موسيف لمخلوق دنيء !

وقالت إحدى الفتيات : « يقولون : إن لوكاشكا قد عاد إلى القرية . »

- إنه ونازاركا يلهوان في محل يامكا (وكانت يامكا امرأة قوزاقية غير متزوجة

سيئة السمعة ، تملك خماراً) « وقد سمعت أنهما قد شربا نصف سطل من الخمر »

وقالت إحدى النساء : « ما أسعد حظ هذا الأورقان ! » ، إنه « لمتشل

حقاً ، ولكن لا سبيل للإنكار إنه شاب ذكي لا يعجزه شيء . بل هوفتي راجع

العقل ! وقد كان أبوه العم كريك من هذا الطراز تماماً ، والفتي يخذو خذو أبيه

الذي حزن عليه القرية بأسرها عندما لقي مصرعه . » وأردفت المتكلمة تقول وهي

تشير إلى القوزاقين اللذين كانا مقبلين من الطريق نحوهم : « انظروا هاهما ذان

يقدمان . وقد تمكن يرجوشوف من الحضور معها ! يا للسكير ! » .

وكان لوكاشكا ونازاركا ويرجوشوف قد شربوا نصف سطل من الفودكا ، وأقبلوا

في اتجاه الفتيات ، وكانت وجوه الرجال الثلاثة وخاصة وجه القوزاق العجوز -

أكثر تورداً من المعتاد ، وكان يرجوشوف يترنح : وقد لجج في الضحك ، وراح

يلكز نازاكا بين الضلوع .

ثم صاح بالفتيات : « لم لا تغنين ؟ أقول لكن : هيا أنشدن وشاركنا

مرحنا ! »

واستقبلهم الجمع هاتفاً : « أوقصيم وقتاً طيباً ؟ أوقصيم وقتاً طيباً ؟ »

وقالت إحدى النساء : « وما الذى بدعونا إلى الغناء واليوم ليس بيوم عيد ؟
أنتم سكارى ، فاذهبوا وغنوا »

وانفجر يرحشوف ضاحكاً ولكن نازاركا وقال : « يحمل بك أن تغنى ، وسأبدأ
أنا أيضاً ، ولتعلم أنى أجيد الغناء » .

وقال نازاركا : « وى ! أوتستسلمن للنوم يا فتيتاى الحسان ؟ لقد جئنا من
النطاق للنهوى ونمرح ، وقد شربنا لتونا نخب لوكاشكا »

وعندما بلغ لوكاشكا الجماعة رفع قبعته ببطء ووقف أمام الفتيات وقد توردت
صفحتا وجتيه ورقبته وتحدث فى رقة ورزانة ، على أن هدوءه ورزاقته كان فيها من
الحوية والقوة أكثر مما فى حديث نازاركا كله من فصاحة وصخب ، وكان
لوكاشكا فى ذلك يذكر المرء بمهر لعوب ، ينشخ بمنخره ويلوح بذيله ، ثم يكف
فجأة ويقف كأن قوائمه الأربع قد سمرت بالأرض جميعاً ، كان يقف فى هدوء أمام
الفتيات ضاحك العينين لا يتحدث إلا قليلاً ، ينظر إلى زميله الثخين تارة ويرمق
الفتيات تارة أخرى .

ولحقت ماريانكا بالجماعة ، فرفع قبعته بحركة ثابتة متتدة ، وأفسح لها الطريق ،
ثم وقف قبالتها ، وقد مد إحدى قدميه إلى الأمام قليلاً ووضع إبهاميه فى حزامه ،
وراح يعبث بمنخره ، وأجابته ماريانكا على تحيته بانحناءة رقيقة من رأسها ،
واستقرت على المصطبة ، وأخرجت بعض البذور من صدر قبصها ، وأخذ
لوكاشكا يقصقص البذور فى بطة بأسنانه ويلفظ القشر محدقاً النظر فى ماريانكا ،
وخيم السكون على الجماعة عندما لحقت بها الفتاة .

وسأله امرأة قاطعة حبل الصمت : « أوقد جئت لتقيم بيننا طويلاً ؟ » .
فأجاب لوكاشكا فى رصانة ووقار : « حتى صباح الغد » .

وقال الشيخ القوقازى : « كتب الله لك التوفيق ، إني لسعيد بك كما كنت أقول توأ »

وقال يرجوشوف التمل وهو يضحك : « وإني لأشاركك فى القول أيضاً » ، وأردف مشيراً إلى جندى كان يمر بهم : « ما أكثر من يحل بيننا من ضيوف ! إن فودكا الجنود طيبة وإني لأستعديها » .

وقالت إحدى النساء : « لقد بعثوا إلينا بثلاثة من هؤلاء الشياطين ، وقد فرغ جدى إلى شيوخ القرية فقالوا : إنهم لا يستطيعون حيالهم شيئاً »

وقال يرجوشوف : « آه ! إذن فقد لقيت بعض المتاعب ، أليس كذلك ؟ » وقالت امرأة أخرى : « أظن أن رائحة طباقهم قد حملتك على ترك دارك ! أما أنا فأقول لهم : دخنوا ما شئتم فى الفناء ، ولكننا لا نسمح لكم بالتدخين فى داخل الكوخ ، ولو جاءنا شيخ القرية نفسه فلن أسمع بذلك ، ثم إنهم قد يسرقونك ، ومادام هذا الشيخ ابن الشيطان لم يستصف أحداً منهم - فلا ضير عليه »

وشرع يرجوشوف يقول مرة أخرى : « ألا ترضى عن هذه الحال ؟ » وقال نازاركا وهو يدفع بإحدى قدميه إلى الأمام ويميل بقبعته متشبهاً بلوكاشكا : « وقد سمعت أيضاً أن على الفتيات أن يسوين فراش الجنود ، ويقدمن لهم الجكير والشهد » .

انفجر يرجوشوف ضاحكاً ضحكاً مجلجلاً وأمسك بأقرب الفتيات إليه وعانقها قائلاً : « سأصدقك القول » .

وصرخت الفتاة : « إليك عنى أيها اللجوج ! ولأخبرن زوجتك العجوز ! » فصاح : « أخبريها ! إن ما يقوله نازاركا هو الحق كل الحق وقد أذيع منشور بذلك ، وأنت تعلمين أنه يعرف القراءة ! إن قوله هو الحق كل الحق ! » وراح

يعانق الفتاة التالية .

وصرخت أوستنكا المستديرة الوجه الموردة الحدين ضاحكة وهي ترفع ذراعيها لتضربه : « ماذا تروم أيها الوحش ؟ »

وارتد القوزاق وأوشك أن يسقط ثم قال : « وى ! يقولون : إن الفتيات تعوزهن القوة ، وهأنذى قد أوشكت أن تقتليني ! » .

وقالت أوستنكا : « أغرب عني أيها اللجوج ! أى شيطان جاء بك من النطاق ؟ » ثم أولته ظهرها وأغرقت مرة أخرى في الضحك قائلة : « لقد كنت نائماً وأخطأت الأبركة ، أليس كذلك ؟ ولو أنه قتلك لكان ذلك خيراً ! »

فقال نازاركا ضاحكاً : « أظن أنك خليفة بأن تولولى »

— أولول ! أمر جائر !

فقال يرجوشوف : « أنظر . إنها لا تحفل بالأمر ، لسوف تولول يا نازاركا ، أليس كذلك ؟ »

وكان لوكاشكا طوال هذا الوقت يقف صامتاً محققاً في ماريانكا ، وقد بدا جلياً أن نظرتة أخرجت الفتاة ، ثم قال وهو يقترب منها : « إيه يا ماريانكا ! لقد سمعت أنهم جعلوا أحد الرؤساء يقيم بينكم »

وجرت ماريانكا على مألوفها من التريث قبل أن تجيب ، رفعت عينيها ببطم إلى القوزاق ، وكانت عينا لوكاشكا تضحكان ، كأن شيئاً خاصاً كان يجرى بينه وبين الفتاة بمعزل عما كان يدور حوله حديث القوم .

وأجابت امرأة عجوز بالنيابة عن ماريانكا : « أجل ، ولا ضير عليهم في ذلك ، فإن لهم دارين ، أما آل فوموشكين فيتزل بينهم اليوم أحد الرؤساء ، وهم يقولون : إن متاعه قد ملأ ركناً بأكمله ، وقد ضاق المكان بالأسرة » ، ثم قالت :

« هل سمع أحد بمثل هذا ؟ وما الذى سيفعلونه هنا بحق الشيطان ؟ »
 وقالت إحدى الفتيات : « سمعت أنهم سيقيمون جسراً على نهر ترك »
 وقال نازاركا وهو يقترب من أوستنكا : « علمت أنهم سيحفرون حفرة يدفنون فيها الفتيات ، لأنهن لا يبادلن الفتيان الحب ! » ، ثم أتى بحركة غريبة أخرى أثارت الضحك بين القوم ، ومر يرجوشوف بماريانكا التى كان عليها الدور ، وشرع يعانق امرأة عجوزاً .

فقال نازاركا : « لم لا تعانق ماريانكا ؟ إنها صاحبة الدور » فصاح القوزاق ،
 مقبلاً العجوز وهى تناضله : « كلا ، إن صاحبتى العجوز أحلى ! » .
 وصرخت المرأة ضاحكة : « ستخفنى »

وقطع عليهم ضحكهم وقع أقدام بعض الجنود النظاميين فى الطرف الآخر من الطريق ، فقد كان ثلاثة من الجنود يسرون فى خطوات منتظمة وقد التقوا بعباءاتهم ، وحملوا بنادقهم على أكفأهم ، ليحلوا محل بعض رفاقهم فى حراسة عربة الذخيرة ، ونظر الأومباشى وهو رجل مسن من الفرسان فى غضب إلى القوزاق ، وقاد رجاله رأساً إلى حيث كان لوكاشكا ونازاركا يقفان فى وسط الطريق حتى يضطرا إلى إفساح الطريق لهم ، وانتقل نازاركا من مكانه ، أما لوكاشكا فقد قطب حاجبيه وحسب ، وأدار ظهره العريض لهم دون أن يتحرك من مكانه ، والتفت نصف التفاتة إلى الجنود وراح يشيعهم بنظرات الازدراء والاحتقار وغمغم يقول : « إن ثمة أناساً يقفون هنا ، فدوروا حولهم » ، ومر الجنود فى صمت ومضوا فى الطريق المغبردائين على خطواتهم المنتظمة ، وشرعت ماريانكا تضحك ، ولحق بها الفتيات الأخريات جميعاً .

وقال نازاركا : « يا لهم من مختالين ! وكأنى بهم بعض القساوسة » ، ثم سار

بضع خطوات في الطريق يقلد الجنود ، وانفجر القوم جميعاً يضحكون ويلعلعون مرة أخرى .

وانجه لوكاشكا في خطى وثيدة إلى ماريانكا ، وسألها : « أين أنزلتم الرئيس ؟ »
 وفكرت ماريانكا لحظة ثم قالت : « تركنا له الكوخ الجديد »
 وسألها لوكاشكا وهو يجلس بجوارها : « أشاب هو أم شيخ ؟ »
 وأجابته الفتاة : « أتظن أنني سألت عن هذا ؟ لقد ذهبت لآتي بشيء من
 الجكير ، فرأيتني يجلس بجوار النافذة هو والعم يروشكا ، وقد بدا لي أنه أحمر
 الشعر . ثم إنهم جاءوا بحمل عربية كامل من المتاع » ، ثم أرخت بصرها
 وقال لوكاشكا وهو يزداد اقتراباً من الفتاة وراح ينظر في عينيها نظرة مستقيمة
 طوال الوقت : « ما أسعدني إذ استطعت الإفلات من النطاق ! »
 وسألته ماريانكا وعلى شفيتها ابتسامة خفيفة : « أوقد أتيت لتقيم بيننا
 طويلاً ؟ »

فقال لها : « حتى الغد » ، ثم مد يده وقال : « أعطيني بعض البذور »
 وعندئذ ابتسمت ماريانكا ابتسامة عريضة ، وفكت بنية قيصها ثم قالت :
 « لا تأخذها كلها »

وقال في همس مكبوت هادئ وهو يتناول بعض البذور من صدر قيصها :
 « لقد كنت طول الوقت أشعر بوحشة شديدة وأنا بعيد عنك والله على ما أقول
 شهيد » ، وأخذ يميل عليها أكثر فأكثر وهو يواصل حديثه معها في صوت خفيض
 وعيناه تضحكان .

وقالت ماريانكا فجأة بصوت مرتفع وهي تميل مرتدة عنه : « أقول لك : إنني
 لن آتي ! »

وهمس لوكاشكا : « كلا ، وإيم الحق . . فقد كنت أريد أن أقول لك شيئاً ،
فصدقني ! وتعال ! »

وهزت ماريانكا رأسها ، إلا أنها فعلت هذا وهي تبسم
وأقبل أخو ماريانكا الصغير يناديها وهو يركض ميمماً شطر القوم : « ماريانكا
ماريانكا ! إن أمي تناديك ! فقد حان وقت العشاء ! »
وأجابت الفتاة : « إني قادمة ، اذهب أنت يا عزيزي ، اذهب وحدك ،
سألتحق بك بعد لحظة » .

وانتصب لوكاشكا واقفاً ورفع قبعته .

ثم قال لوكاشكا وهو يحاول أن يظهر بمظهر من لا يعنيه الأمر ، وإن لم يستطع أن
يرد نفسه عن الابتسام : « أظن أنه يحسن في أن أعود أيضاً إلى داري ، فإن هذا هو
خير ما أفعل » . ثم اختفى خلف ناصية المنزل .

وكان الليل في هذه الأثناء قد أسدل ستاره على القرية ، وانتشرت الكواكب
متألقة في صفحة السماء المظلمة ، وكانت الطرقات معتمة مقفرة ، وظل نازاركا في
صحبة النساء على المصطبة ، وكانت ضحكاتهم لا تزال تطرق الأسماع ، إلا أن
لوكاشكا ، كان قد ابتعد عن الفتيات في بطم وتمهل . وجثم على الأرض كأنه
القط ، ثم انطلق فجأة يعدو في خفة وهو ممسك بجنجره حتى لا يهتز ، على أنه لم
يركض في اتجاه داره بل في اتجاه دار حامل العلم ، واجتاز طريقين ثم انعطف في
زقاق ، ورفع طرف سترته ثم استوى على الأرض في ظل سياج ، وراح يدير
الحديث بينه وبين نفسه عن ماريانكا « يالها من فتاة جديرة بأبيها صاحب العلم !
أوتأبى الشيطانة حتى المرح ؟ ولكن صبراً قليلاً » .

واسترعى انتباهه وقع أقدام امرأة تقترب منه ، فأخذ يصيح السمع ثم ضحك

في قرارة نفسه .

وكانت ماريانكا تسير بخطوات سريعة منتظمة في اتجاهه مباشرة وقد حنت رأسها وأخذت تضرب خوازيق السباح بعسلوج تحمله في يدها ، ونهض لوكاشكا فتوقفت ماريانكا وقد تملكها الفزع .

وقالت وهي تضحك بصوت عال : « أهو أنت أيها الشقي ؟ لشد ما روعتني ! إذن فأنت لم تعد إلى دارك ! »

وطوقها لوكاشكا بذراع ورفع وجهها بالذراع الأخرى ثم قال : « تالله لقد كنت أود أن أقول لك شيئاً ! » واضطرب صوته ثم سكت .

فأجابه ماريانكا : « ما هذا الذي تود أن تقوله في بهيم الليل ؟ إن أمي تنتظر وخير لك أن تمضي إلى حبيبك » ، ثم خلصت نفسها من ذراعيه ، وركضت بضع خطوات ، وما إن بلغت سور دارها المقام من الأغصان المجدولة حتى وقفت ، والتفتت إلى القوزاق وكان يجري بحداثها لا يتفك يحاول إقناعها بالبقاء معه لحظة . « إيه ! ما الذي تود أن تقوله يا ساهر الليل ؟ » ، وراحت تضحك مرة أخرى .

« لا تسخرى مني يا ماريانكا ! بالله عليك ! وأى ضمير في أن تكون لي حبيبة ؟ ألا فتذهب إلى الجحيم ! وحسبك أن تفصحى فأحبك أنت ! وأفعل كل ما تريدن ، اسمعي هذا ! » ثم شخش بالنقود في جيبه ، وأردف يقول : « نستطيع أن نحيا الآن حياة رائعة ، إن غيرى ينعم بحياته ، ولكن ما شأنى أنا ؟ إني لأحظى منك بأى شيء يا عزيزتى ماريانكا ! »

ولم تحر الفتاة جواباً ، بل وقفت أمامه تكسر عسلوجها قطعاً صغيرة بحركات سريعة من أصابعها .

وكرر لوكاشكا فجأة على أسنانه وقبض يديه وقال : « فيم كل هذا الانتظار ،
ألمت أحبك يا امرأة ؟ » ، ثم أردف بغتة وهو يقطب حاجبيه غضباً ويمسك كلتا
يديها : « تستطيعين أن تفعلى لى ما تشائين » .

ولم يتغير الهدوء الذى ارتسم على وجه ماريانكا وشاع فى لهجتها .

وأجابته دون أن تجذب يديها من يديه بل أبعدت القوزاقى عنها على طول
ذراعيها : « لا تنفض ما فى نفسك يا لوكاشكا بل أنصت لى ، فأنا فتاة بلا شك ،
ولكن أنصت لى ! إن الأمر ليس فى يدى ، فإن كنت تحبى فأنى قائلة لك
شيئاً » ، ثم أردفت دون أن تدير وجهها : « دع يدى ، فسأصارحك بالقول دون
حاجة تدعو لى ما تفعل ، سأتزوجك ولكن لن تنال منى شيئاً أبداً من هذا
العبث » .

فقال لوكاشكا : « تتزوجينى ؟ إن الزواج لا يتوقف علينا ، فهبى لى حبك أى
ماريانكا العزيزة ! » ، وزال عنه عبوسه وغضبه وعاد كما كان لطيفاً طبعاً رقيقاً
وأخذ يتسم وهو يحرق النظر فى عينيها ، وتعلقت به ماريانكا ، وطبعت على شفثيه
قبلة قوية ، وهمست : « أيتها العزيز ! » وهى تضمه إليها متنفضة الأوصال ، ثم
انزعرت نفسها فجأة ، وولجت باب دارها من غير أن تلتفت إليه !

ولم تقف ماريانكا بالرغم من توسلات القوزاقى بأن تنتظر لحظة أخرى حتى
تسمع ما يريد أن يقوله لها .

وصاحت : « اذهب لثلا يرانا أحد ! فأنى أعتقد أن ذلك الساكن الملعون
يتمشى فى الفناء » .

وحدث لوكاشكا نفسه قائلاً : « تريد ابنة حامل العلم الزواج بي ، لا بأس من
 الزواج أبداً ، ولكن لم لا تفنع بحبي ! » .
 ووجد نازاركا في خمارة يامكا ، فجلس برهة قصيرة معه يحتسى الخمر ، ثم
 ذهب إلى منزل دونايكا حيث قضى ليلته بالرغم من عدم وفائها له .

الفصل الرابع عشر

وقد صدقت الفتاة في قولها كل الصدق : ذلك أن أوليين كان يتمشى في الفناء عندما دخلت ماريانكا من الباب ، ووصل إلى سمعه ما قالته عن ذلك « الساكن الملعون » ، وكان قد قضى المساء كله مع العم يروشكا في رواق مسكنه الجديد ، وأمر بإحضار منضدة وآنية على الشاي وبعض الخمر وشمعة مشتعلة ، وأخذ ينصت وهو يشرب قدحاً من الشاي ويدخن سيجاراً إلى القصص التي كان يقصها عليه ذلك الرجل الشيخ وهو جالس على عتبة البيت ، وكان الهواء ساكناً إلا أن الشمعة كانت تذوب قطرات وتهترل عليها فتضيء حيناً عمود الرواق ، وحيناً المنضدة بما عليها من أوان من الفخار ، وحيناً رأس الشيخ الحليق ، وكانت الفراشات تدور حول اللهب ، ويتثر من أجنحتها الغبار وهي ترفرف على المائدة والأقداح ، أو تطير منطلقة في لهب الشمعة حيناً أو تختفي في الظلام الخيم على المكان فيما وراء المنضدة حيناً .

وكان أوليين ويروشكا قد أفرغا خمس زجاجات من الحكيبر ، وكان يروشكا

يملاً قدحيهما في كل مرة ويقدم إلى أوليين قدحه ثم يشرب نخبه ، ويواصل الكلام دون أن يدركه سأم أو ملل ، ولقد تحدث الرجل : تحدث عن حياة القوزاق في الأيام الغابرة ، وعن أبيه « العريض الكفين » الذي كان في مقدوره أن يحمل على ظهره جثة خنزير تزن ثلاثة قناطر إنجليزية لا يستعين في ذلك بأحد ، وأن يشرب ملء سطلين من الجكير في جلسة واحدة ! وتحدث عن حياته هو وعن صديقه جيرشيك الذي ألف أن يهرب وإياه عباوات من البلاد عابرين نهر ترك عندما كان وباء الطاعون يحتاج البلاد ، وروى كيف أصاب غزالين في صبيحة يوم من الأيام ، وتكلم عن حبيته التي ألفت أن تهرع إليه في النطاق ليلاً ، وكان يروى ذلك كله بفصاحة عجيبة ويصوره تصويراً رائعاً حتى إن أوليين لم يشعر بمرور الوقت ، آه يا صديقي ! لو كنت عرفتني في شرح شبابي لأطلعتك على أمور وأمر : إن يروشكا اليوم « يلحق الإباء » غير أن يروشكا كان وقت ذاك يدوى صيته بين أفراد الكتيبة جميعاً ، فمن ذا الذي كان جواده أحسن جواد ؟ ومن ذا الذي كان يملك سيفاً من صنع جوردا^(١) ، والذي كان يطيب لك أن تشرب معه وتمرح ؟ ومن الذي حق عليه أن يوفد إلى الجبال ليقتل أحمد خان ؟ عجباً ! إنه يروشكا دائماً ! ومن الذي كانت تحبه الفتيات ؟ لقد كان يروشكا هو دائماً الشخص الذي عنده الجواب ، ذلك أنني كنت « زغيثي » بحق ، سكيراً ، ولصاً ، وقد ألفت أن أسطو على قطعان من الخيل في الجبال ، ومغنياً لقد كنت أستطيع أن أفعل أى شيء ! وليس بين القوزاق اليوم رجال من هذا الطراز ، إن النظر إليهم يورثني الاشمزاز : ذلك أنهم ما إن يبلغون هذا الطول (ومد يروشكا يده على ارتفاع ثلاث أقدام من الأرض) حتى يتعلوا أحذية عجيبة ولا ينفكوا ينظرون إليها - وهذا هو كل ما يعرفون من

(١) كانت أحسن سيوف وخناجر في نظر القوزاقين التي تنسب لصانعها جوردا .

متعة - أويعبوا من الخمر ما يملأ بطونهم ، وهم لا يستطيعون أن يشربوا كما يشرب الرجال ، بل إن كل ما يفعلونه يلزمه الخطأ بوجه من الوجوه ، أما أنا فأرى رجل كته ؟ كنت يروشكا اللص ، وكانوا يعرفونني في القرى وفي الجبال ، وقد ألف الأمراء أن يأتوا لزيارتي ! ، كانوا أصدقاء الحميمين ، وكنت الصديق الحميم لكل إنسان ، فإذا كان تترياً ، كنت تترياً ، وإذا كان أرمنياً كنت أرمنياً ، وإذا كان جندياً كنت جندياً ، وإذا كان ضابطاً كنت ضابطاً ، كان لا يعينني من أمره شيء مادام سكيراً ، يقولون لي : « يجب أن تتطهر من أدران الاهتمام بأمور الدنيا ، ويجب ألا تشرب مع الجنود ، ويجب ألا تأكل مع تترى ! »

وسأله أوليين : « من يقول هذا ؟ »

« وى ! إنهم مشايخنا ! وحسبك أن تستمع إلى شيخ من مشايخ الدين أو قاض من قضاة التتر فتجده يقول : « أيها الكفرة الفجرة ، لم تأكلون لحم الخنزير ؟ » ، وهذا يدل على أن لكل امرئ شريعته ، على أني أعتقد أن الشرائع جميعاً واحدة ، فقد خلق الله كل شيء لينعم به الإنسان ، وليس في شيء من ذلك معصية ، وخذ مثلاً على ذلك الحيوان نفسه : فهو يقيم بين أعواد القصب في أرض التتر أو في أرضنا وأينما حل في أرض فهي موطنه ! وأي رزق يسوقه الله إليه يأكله ! ولكن قومنا يقولون : إنه قد حق علينا أن نلحق المقاتل في الجحيم جزاء لنا على ذلك ! » ، ثم سكت وأردف بعد لحظة : « وأظن أن هذا القول كله باطل »

وسأله أوليين : « وما هذا الباطل ؟ »

- ما يقوله الوعاظ طبعاً ، لقد كان عندنا في جرفنلايا قائد جيش ربططني به أواصر الصداقة الحميمة ، كان فتى ظريفاً مثلي تماماً ، وقد لقي مصرعه في ججنيا ، وقد جرى هذا الرجل على القول بأن ذلك كله اختراع جاء به الوعاظ من عند

أنفسهم ، ثم إنه أَلَف أن يقول لى : « إنك إذا مت نما الكلا فوق قبرك ! وهذا هو كل ما فى الأمر ! » وضحك الشيخ ثم أردف : « لقد كان فتى متهوراً »
وسأله أوليين : « وكم تبلغ من العمر ؟ »

- لا يعلم ذلك إلا الله ! ولا بد أن أكون قد ناهزت السبعين : ذلك أننى لم أك حدثاً عندما اعتلت قيصرة عرش البلاد ، وأنتك تستطيع بذلك أن تحسب عمرى ، لا بد أننى فى السبعين ، أليس كذلك ؟ »

- بلى ، لا بد أنك فى السبعين ، ولكنك مازلت فتى ظريفاً .
- أحمد الله على ذلك فما زلت صحيحاً ، وكل ما فى سليم ، اللهم إلا أن امرأة أفسدت على أمرى ، تلك الحيزبون . . !

- وكيف كان ذلك ؟
- أجل ، أفسدت على أمرى
- فكرر أوليين قوله : « وهكذا سوف ينمو الكلا على قبرك عندما تموت ! »
وكان من الواضح أن يروشكا لا يريد الإفصاح عما يحول بخاطره ، وسكت الرجل لحظة ، ثم صاح فجأة وهو يتشم ويتناول أوليين بعض الخمر : « وماذا ظننت ؟ اشرب ! »

الفصل الخامس عشر

واسترسل يروشكا يقول ، وهو يحاول أن يتذكر : « حسن ، إلام بلغ بي الحديث ؟ ، أجل ، إننى من ذلك الطراز من الرجال ، فأنا صياد ، وما من صياد فى الكتبية يساوينى ، سأبحث لك عن أى حيوان أو أى طائر ، وأريك ماذا تفعل هذه الحيوانات والطيور ؟ وأين تذهب ؟ فإننى أعرف ذلك كله ! وعندى كلاب وبندقيتان وشباك ودريئة وصقر ، عندى كل شىء والحمد لله ، فإن كنت رياضياً حقاً ولست مدعياً فسأريك كل شىء ، أتعرف أى رجل أنا ؟ إننى رجل ما إن أرى الأثر حتى أعرف الحيوان ، أعرف أين يرقد ؟ وأين يشرب أو يتمرغ ؟ وأبنى لنفسى مجتماً أصرف فيه ليلتى وأسهر وأراقب ، إذ ما الخير فى القعود بالدار ! لن يعود عليك منه إلا الأذى ! ثم إنك خليك بأن تسكر ، ويدخل عليك النساء ويشرعن فى الثرثرة ويأتى الأطفال ويصرخون فى وجهى ، وهذا حقيق بأن يفقد المرء عقله .

« أما الخروج فى الفجر فأمر يختلف ، وما عليك إلا أن تختار لنفسك موضعاً

تطوى أعواد القصب ثم تجلس عليها وتنتظر كالعثة من الفتيان ، وإنك لتعرف كل ما يجري في الغابات ، وتطلع إلى السماء ، وترقب حركة الكواكب وهي تدلك على الوقت ، ثم إنك تتلفت حولك ، وتسمع حفيفاً في الغابة ، وتمضي في الانتظار بصبر لا ينفد حتى يطرق أذنك صوت فرقة بين الشجيرات ، فتتوقع بينك وبين نفسك أن خنزيراً برياً قد أقبل ليتمرغ في الطين ، وتصرخ صغار النسور ، وتصبح الديوك في القرية أويقظن الإوز ، فإذا سمعت هذه النقطة كان ذلك دليلاً على أن الليل لم يتصف بعد ، وأنا أعلم كل شيء عن هذه الأمور ! وقد تسمع طلقة صادرة من بعيد ، مكان بعيد ، فتدفعك إلى التفكير ، ترى من ذا الذي أطلق النار ؟ أهو قوزاق آخر مثلك كان يرصد حيواناً ؟ وهل قتله ، أو لعله لم يبلغ منه مقتلاً بل أصابه بجرح وقد أخذ الحيوان المسكين يعرج وهو يشق طريقه بين أعواد القصب مخلفاً وراءه أثر دمائه ؟ وكل ذلك لا جدوى منه ولا فائدة ! إني أمقت ذلك ! آه لشد ما أمقته ! لماذا نصيب الحيوان بالأذى ؟ إنها لحماقة ، حماقة ! أولئك تفكر في الأمر على نحو آخر فتقول : « ربما قتل أحد الأبركة شاباً قوزاقياً أحرق ، ويمتلي ذهنك بهذه الأفكار ، وقد جلست مرة ساهراً بجوار النهر ، فرأيت مهداً طافياً يسير مع التيار ، ولم يكن فيه من عيب إلا أن أحد أركانه قد خلع من موضعه ، وتواردت على الأفكار في ذلك الحين ! ترى من يكون صاحب هذا المهد ؟ وذهب بي التفكير إلى أن بعض جنودكم الملاحين اقتحموا لاشك قرية من القرى وقبضوا على نسائها من الججن ، وقتل جندي من أولئك الملاحين الطفل الرضيع ، إذ أمسك به من ساقيه وحطم رأسه على الجدار ! أتراهم لا يرتكبون مثل هذه الأفعال ؟ آه لقد تجرد الناس من الضمائر !

وطافت برأسي أفكار ملأت قلبي بالحزن والأسى ، أجل لقد ذهب بي الظن إلى

أنهم قذفوا بالمهد وطرّدوا الزوجة وأحرقوا المنزل ، على أن زوجها حمل بندقيته وعبر النهر إلى ناحيتنا وجاء ليسرقتنا ، فما أكثر الأفكار التي تساورك وأنت تجلس في مجثمك ! فإذا سمعت صوت أغصان تتكسر في الدغل بدأ قلبك يشتد وجيبه في أعماقك فتتف « اسلكن هذا الطريق يا حسناواتي ! » ثم تقول بينك وبين نفسك : « سيشمون رائحتي » فتجلس ساكناً لا تريم وتشعر أن قلبك يخف ويخف ويخف حتى لتكاد تطير في الهواء ، وقد حدث مرة في هذا الربيع أن اقترب مني وليد لطيف لبعض الحيوان ، ورأيت شيئاً أسود فقلت « باسم الأب والابن » ، وكنت على وشك إطلاق النار عندما قبعت الخنزيرة ونادت صغارها قائلة : « حذار يا أطفالي ؟ فئمة رجل هنا » . فجروا جميعاً يشقون طريقهم في الغابة ، فوددت لو استطعت أن أعمل فيها أسناني ! » .

وسأله أوليين : « وكيف تستطيع الخنزيرة أن تحذر أطفالها من وجود رجل في مكان قريب ؟ »

« لم لا تفعل ؟ أنحسب ذلك الحيوان غيباً ؟ كلا ، إنها لأعقل من الإنسان وإن كنت تدعوها بالخنزيرة ! فهي تعرف كل شيء وإليك هذا الدليل على سبيل المثال : فقد يمر الإنسان على أثرك ويغيب عنه ، ولكن ما إن تصادف الخنزيرة أثرك حتى تشممه ثم تهرب ! ، ألا يدلك هذا على أن فيها شيئاً من العقل ؟ إنك أنت نفسك لا تعرف رائحتك ولكنها تعرفها ! ثم إنني أحب أن أقول لك هذا أيضاً : أنت تريد قتل تلك الخنزيرة ، ولكنها تفضل أن تجول في الغابات مبقية على حياتها ، إن لك شريعتك ، ولها شريعتهما ، فهي خنزيرة ولكنها ليست أسوأ منك ! وكلنا من خلق الله ! آه يا صديق ! إن الإنسان لأحمق ! أحمق ! أحمق ! ، وكرر الشيخ هذا اللفظ عدة مرات ، ثم نكس رأسه وراح يفكر وغرق أوليين أيضاً

في لجة من التفكير ، ثم هبط من الرواق ووضع يديه خلف ظهره ، وشرع يذرع الفناء روحة وجيئة ، واستيقظ بروشكا من سباته ، ورفع رأسه ثم أخذ يمدق ملياً في الفراشات التي كانت تحوم حول لهب الشمعة المشتعل ، فتحرق نفسها فيه . وقال : ما أحققكن ! ما أحققكن ! إلى أين نظرون ؟ ما أحققكن ! ما أحققكن ! « ، ثم انتصب واقفاً وشرع يقصّي الفراشات بأصابعه الغليظة . ستحرقن أنفسكن أيتها الحمقاوات الصغيرات ! فلتنظرن في هذا الاتجاه ، فإن في الفضاء متسعاً ، وكان يتكلم بحنان ومحاول أن يمسكها برقة من أجنحتها بأصابعه الغليظة ، ثم يتركها نظير ثائية ، « إنكن تقتلن أنفسكن ، وإني لأشعر بالأسى من أجلكن ! »

وجلس مدة طويلة يثرثر ويرتشف الحمر من الزجاج ، وكان أوليين يذرع الفناء روحة وجيئة ، فأدهشه أن يسمع فجأة صوت همس خارج الباب ، وحبس أنفاسه على غير وعى منه . فسمع ضحكة امرأة وصوت رجل ثم صوت قبلة ، وعبث بقدميه في الكلاء عامداً ، فأثار فيه حقيقاً ، وعبر إلى الناحية الأخرى من الفناء ، إلا أن السياج المصنوع من الأغصان المجدولة ما لبث أن صر صرياً ، ومر على الجانب الآخر من السياج قوزاق يرتدى السترة الجركسية الداكنة اللون وقبعة بيضاء من جلد الماعز (وكان هو لوكاشكا) ثم مرت بأولينين امرأة طويلة القامة تضع منديلاً أبيض على رأسها ، وبدا من خطواتها الثابتة أنها تقول : « لاشيء يربط بين أحدهما وبين الآخر » ، وشيعها بنظراته حتى رواق الدار ، بل رآها من خلال النافذة تلحج منديلها وتجلس ، وغشى الشاب فجأة شعور بالوحدة كئيب ، وهزته أشواق وآمال غامضة مبهمة ، وتملك قلبه حسدٌ من شخص ما . وكانت الأنوار الأخيرة قد أطفئت في المنازل ، وخمدت آخر الأصوات ،

ولاحت السياجات المصنوعة من الأغصان المجدولة تتألق ، هي والمماشية مشرقة في الأفنية ، وبدت سقوف المنازل وشجر الحور السامقة المهيبة جميعاً كأنها قد أخذت لنوم مطمئن هنئ بعد طول عناء ، ولم يطرق أذن الشاب إلا نقيق الضفادع المتصل يأتيه من البقاع الرطبة البعيدة ، وقد أخذت النجوم في الشرق يقل عددها ، وبدأ أنها تذوب في الضوء المتكشف ، إلا أنها كانت فوق رأسه أشد كثافة وأكثر بعداً مما كانت عليه ، وكان الشيخ يغفو معتمداً رأسه على يده ، وصاح ديك في الفناء المقابل له ، إلا أن أوليين ظل يذرع الفناء وقد شغله التفكير في أمر من الأمور ، واتصل به صوت أغنية تنشدها أصوات مجتمعة ، فأنجبه إلى السياج وراح ينصت ، وكان بعض الشبان القوزاقيين يغنون في مرج وسرور وقد علا صوت على أصواتهم جميعاً .

وقال الشيخ مستيقظاً : « أو تعلم من الذي يغنى هناك ؟ إنه لو كاشكا الشجاع ، لقد قتل رجلاً من الجحش . وهو الآن يطرب ويتهج . . ولكن فيم الابتهاج ؟ . . ياله من أحقق ! ياله من أحقق ! »

وسأله أوليين : « ألم تقتل أحداً من الناس قط ؟ »

وهم الشيخ فجأة على مرفقيه وأدنى وجهه من أوليين وصاح به : « أيها الشيطان ، ما هذا الذي تسألني ؟ لا تتحدث في هذا الأمر . فإن القضاء على مخلوق بشري أمر خطير . . إيه ! إنه أمر خطير جداً » ، ثم قال وهو يتصب واثقاً : « طابت ليلتك يا صديق ، لقد ننت كفايتي من طعامك وشرابك ، فهل لي أن أحضر غداً ولنخرج للصيد ؟ »

.. أجل . افعل

- فاستيقظ مبكراً ، وإذا تأخرت في النوم أوقعت عليك غرامة ! فأجاب

أولينين : « لا تخف ، سأستيقظ قبلك »

وبارح الشيخ الدار ، وانقطع الغناء ، إلا أن الأقدام والحديث المرح كان لا يزال مسموعاً ، وعاد الغناء مرة أخرى بعد أمد وجيز ، إلا أن مصدره كان أبعد مما كان ، وكان صوت يروشكا المرتفع يرن أيضاً .

وقال أولينين متنهداً يحدث نفسه وهو يعود إلى كوخه وحيداً : « يا لهم من قوم ! يا لها من حياة ! »

الفضل السادس عشر

وانقطعت صلة العم يروشكا بخدمة الجيش العامل ، وأقام وحده : ذلك أن زوجته كانت قد اعتنقت الأرثوذكسية منذ عشرين سنة ، وهجرته دون أن يعقب منها ولداً وتزوجت باشجاويشاً روسياً ، ولم يك يروشكا مدعياً عندما تحدث عن نفسه قائلاً : إنه كان أشجع الشجعان وذوى الإقدام في القرية وهو بعد شاب ، وكان كل من في الكنية يعلم جرأته وبسالته في صدر حياته ، وكان ضميره يحمل وزر قتل أكثر من روسي وأكثر من ججني ، وألف يروشكا السب والنهب في الجبال وكان يسرق الروس أيضاً ، وقد دخل السجن مرتين ، وقضى الشطر الأكبر من حياته يصطاد في الغابات وكان يعيش فيها أياماً على الخبز وحده ، ولا يشرب إلا الماء القراح على أنه كان يفضح بالمرح من الصباح إلى المساء عندما يكون بالقرية . ونام يروشكا بضع ساعات بعد أن غادر أولينين واستيقظ قبل أن ينبثق الفجر ، واستلقى في فراشه يفكر في الرجل الذي تعرف به في الليلة السابقة ، لقد سره كثيراً ما رأى من سداجة أولينين (والسداجة عنده أن أولينين لم يبخل عليه

بكأس) ، كما سر من أوليين نفسه وتعجب من أمر الروس ؛ إذ كيف يبلغون من السذاجة والثراء الواسع هذا المبلغ . وما بالهم لا يعرفون شيئاً مع أنهم متعلمون ؟ وراح يفكر في هذه الأمور ، ويتدبر ما يمكن أن يحصل عليه من أوليين .

وكان كوخ العم يروشكا كبيراً حديث البناء ، إلا أن أثر غياب المرأة فيه كان واضحاً كل الوضوح : فقد كان من جميع نواحيه قدراً مضطرباً غاية الاضطراب على خلاف ما اتصف به القوزاق من نظافة ؛ إذ ألقيت سترة ملطخة بالدم على المنضدة ، وكنت ترى نصف فطيرة مصنوعة بالبندق بجوار غراب مشوه من غريان الزرع تنف ريشه واستخدمه الرجل في تغذية الصقر ، وقد تبعثرت على الأرائك أخفاف من الجلد وبندقية وخنجر وكيس صغير وملابس مبتلة وخرق شتى ، وقام في ركن من الأركان برميل من ماء آسن تقع فيه خف آخر ، وبجانبه بندقية ودريئة صيد ، وقد ألقيت شبكة على الأرض فيها بعض الدراج النافق ، وربطت فرخة منها من ساقها ، وكانت تتمشى قرب المنضدة تنقر بمنقارها في الأقدار ، وكان ثمة قدر مكسورة قائمة في الموقد غير المحمي فيها سائل في لون اللبن ، ووقف فوق قمة الموقد باز يصرخ ويحاول قطع الحبل الذي ربط به ، وألقى صقر متلبد الريش على حافة الموقد في هدوء ينظر شزراً إلى الفرخة ويحني رأسه من حين إلى حين ناحية اليمين وناحية اليسار .

وكان العم يروشكا في قبضه قد انبطح على سرير صغير حشر حشراً بين الجدار والموقد وقد رفع ساقيه القويتين ، وأسند قدميه على الموقد ، وراح يتف بأصابعه الغليظة الخدوش التي خلفها الصقر في يديه ، وكان قد ألف أن يحمل الصقر من غير أن يرتدى قفازاً . وقد شاع في الغرفة كلها - وخاصة قرب الشيخ - ذلك المزيج القوي غير الكريه من الروائح التي كانت تفوح دائماً أينما حل الشيخ .

وجاءه صوت حاد ينادى من النافذة عرف فيه صوت لوكاشكا « أويده - أيها العم ، » (هل أنت هنا أيها العم ؟)

وصاح الشيخ : « أويده ، أويده ! أنا هنا ! ادخل أيها الجار ماركا ، ادخل يا لوكا ماركا ، ماذا يستطيع عملك أن يفعله من أجلك ؟ وهل أنت في الطريق إلى النطاق ؟ »

وصفق الصقر بجناحيه عند سماعه صياح سيده ، وأخذ يجذب الحبل الذى ربط فيه .

وكان الشيخ مغرمًا بلوكاشكا ، بل إن لوكاشكا كان هو الشخص الوحيد الذى نجا من احتقاره الشامل للجيل الجديد من القوزاق ، ثم إن لوكاشكا وأمه كانا - باعتبارهما من جيرانه الأقربين - يزودان الشيخ فى كثير من الأحيان بالخمر والقشدة المتخثرة وغيرهما مما يصنع فى البيوت ولا يتيسر ليروشكا ، وكان العم يروشكا الذى ترك نفسه طول عمره على سجيئتها تستجيب لأى مؤثر - يعلل شغفه بالناس دائماً تعليلاً عملياً ، وقد جرى على أن يحدث نفسه فيقول : « حسن ، ولم لا ؟ إنها مستطيعان أن يزودانى دائماً بما يزوداننى من أشياء ، وسأعطيها بعض اللحم الطازج أو طائراً من الطيور ولن ينسيا عمهما ، بل إنها أحياناً سيحضران له كعكة أو قطعة من فطيرة » .

وصاح الشيخ فى بشر وأنس : « طاب صباحك يا ماركا ! إننى سعيد برؤيتك » ، ثم أسرع فدللى قدميه العاريتين وقفز من فراشه ، وسار خطوة أو خطوتين على أديم الكوخ الذى أخذ يصر ، ونظر إلى أصابع قدميه المتباعدة ، ثم ابتسم فجأة وقد سره منظر قدميه وضرب الأرض بكعبه العارى ، ثم ضربها مرة أخرى ، ثم قفز قفزة .

وسأله وعيناه الصغيرتان تألقان : « أليست هذه القفزة رائعة ؟ »

فابتسم لوكاشكا ابتسامة خفيفة

وسأله الشيخ : « أو عائد أنت إلى النطاق ؟ »

- لقد جئتك بالحكيم الذى وعدتك به عندما كنا فى النطاق .

فهتف الشيخ : « حفظك الله ! » ، ثم تناول السروال الممعن فى القفصضة

الذى كان ملقى على الأرض كما تناول صدرته وارتداهما ، وتمنطق بسير من الجلد

حول وسطه وسكب شيئاً من الماء على يديه من جرة من الفخار ، ومسحها فى

سروال قديم ، وسوى لحيته بقطعة من مشط ، ثم وقف أمام لوكاشكا وقال له :

« إننى مستعد » .

وجاء لوكاشكا بكأس ومسحها ثم ملاًها بالخمير وناول الشيخ إياها . .

وقال الشيخ وهو يقبل الخمير فى رزاة ووقار : « فى صحتك ! فى نخب الأب

والابن ، ألا فلتتل كل ما تمنى ، ولتكن دائماً بطلاً ، ولتكافأ بوسام الصليب »

وشرب لوكاشكا أيضاً قليلاً من الخمير بعد أن رتل صلاة من الصلوات ، ثم

وضع الخمير على المنضدة .

ونفض الشيخ وجاء ببعض السمك المجفف ، ووضع على العتبة ، وأخذ يضربه

بعضاً حتى يلين ، ثم أخذه ووضع فى طبق أزرق (كان هو الطبق الوحيد الذى

عنده) ، ووضع الطبق على المنضدة .

وقال فخوراً : « عندى كل ما أحتاج إليه ، عندى طعام والحمد لله ، ثم

أردف : « حسن ، وما أخبار موسيف ؟ »

وقص لوكاشكا على الشيخ : كيف أن الأومباشى أخذ منه بندقيته ، وكان من

الواضح أنه يريد بذلك أن يعرف رأى الشيخ فى ذلك .

فقال الشيخ : « دحك من البندقية ، فإنك إن لم تنهها له عجزت عن أن تنال مكافأة » .

ولكنهم يقولون أيها العم : إن المرء لا ينال إلا مكافأة قليلة إذا كان لم يدخل بعد في زمرة فرسان القوزاق ، ثم إن البندقية ثمينة تساوي ثمانين روبلاً .
- إيه ! دعها له ! فقد كان حدث في خلاف مثل هذا مع الضابط كان يريد أن يأخذ جوادى ، فقال لى : « أعطنيه فأجعلك حامل علم ! ولكننى رفضت فلم أنل شيئاً ! »

- ولكننى مضطر أيها العم إلى شراء جواد ، ويقول الناس : إنك لا تستطيع الحصول على جواد من الجانب الآخر للنهر بأقل من خمسين روبلاً ، ولم تبع أمى بعد خمرينا .

فقال الشيخ : « لم نك نهم بمثل هذا الأمر ، فإن عمك يروشكا كان قد سرق بالفعل ، وهو في مثل سنك ، قطعاً من الجياد انتهبها من النوغاي ، وساقها بجنازاً نهر ترك ، وكنا أحياناً نبيع جواداً أصيلاً لقاء نصف لتر أو أقل من الفودكا أو لقاء عباءة ! » .

فسأله لوكاشكا : « ولم كنتم تبيعونه بمثل هذا الثمن البخس ؟ »
فقال الشيخ بازدرء : « إنك لغبي يا ماركا ، غبي ، عجبا ، إنما يسرق المرء حتى لا يكون ممسكاً ! أما بالنسبة إليك فإني لا أظن أنك لم تبلغ من المعرفة ما يتيح لك أن ترى كيف تسرق الجياد ؟ ما بالك لا تتكلم ؟ »
فأجاب لوكاشكا : « وماذا أستطيع أن أقول أيها العم ، يبدو أننا لسنا من الطراز الذى كتبه »

فرد الشيخ مقلداً القوزاق الشاب : « إنك لغبي يا ماركا ، غبي ! لست من

هذا الطراز ! لم أك أيضاً من هذا الطراز من القوزاق وأنا في مثل سنك .
وسأله لوكاشكا : « وكيف ذلك ؟ »

وهز الشيخ رأسه في ازدراء وقال : « كان عمك يروشكا ساذجاً ، ولم أك
أنفس على أحد شيئاً ! ولذلك كنت الصديق الحميم للججن جميعاً : كان يأتي
لزيارتي صديق حميم فأسقيه من الفودكا حتى يسكر وأجعله يحس بالسعادة ، وأترك
له فراشي ينام فيه ، فإذا ذهب ، لزيارته حملت له هدية معي ! هكذا يجب أن
يكون الأمر لا كما تفعلون اليوم ، إن كل ما تلهون به اليوم أيها الشباب هو أن
تكسروا البذور وتلفظوا القشر ! »

وفرح الشيخ من حديثه وقد غلب على لهجته الاستخفاف والازدراء وهو يقلد
قوزاق اليوم وهم يكسرون بذور عباد الشمس ويلفظون القشر !

وقال لوكاشكا : « أجل ، إني لأعلم ذلك ، وإنك لمحق كل الحق »
- وإذا شئت أن تكون شاباً من الطراز القويم فكن من الرغيث لا من
الفلاحين ، فإن الفلاح نفسه يستطيع أن يشتري جواداً ، ولا يكلفه ذلك إلا أن
يؤدي الثمن ويأخذ الجواد .

ثم أخذ الرجلان إلى الصمت برهة قصيرة .

وقال لوكاشكا : « ألا فتعلم أن الحياة كثيفة غاية الكثافة في القرية وفي النطاق
أيها العم ، ولا يستطيع المرء أن يجد مكاناً يذهب إليه ليلهو قليلاً ، ثم إن جميع
الفتيان من زملائنا يستبد بهم الخوف ، وخذ نازاركاً مثلاً : فقد ذهبنا منذ أيام إلى
القرية وطلب منا كراي خان أن ننشخص إلى النوغاي ، لنحصل على بعض
الحياض ، ولكن لم يذهب أحد ، فكيف كان يمكن أن أذهب وحدي ؟ »

- هل نسيت عمك ؟ هل ظننت أن عودي قد ذبل ؟ . . . وى ! إنني

لم أبلغ هذا المبلغ ، أعطى جواداً فأخرج من فوري شاخصاً إلى النوغاي .
فقال لوكاشكا : « أى نفع يرجى من هذه الشقشة ؟ لخير لك أن ترشدنى إلى
ما أفعله مع كراى خان ، فهو يقول : ما عليك إلا أن تأتى بالجياذ إلى نهر ترك وأنا
خليق بأن أجد لها مكاناً حتى لو جئتني بقطع كامل منها ! وإنك لتعلم أنه من
الجهن أيضاً ولا يمكنك من ثم الوثوق به »

– تستطيع أن تنق بكرائى خان فإن أهل عشيرته كلهم كانوا من خيار القوم ،
وكان أبوه من أصدقائى الصدوقين المخلصين ، فأنصت إلى عمك فإنه لم يخدعك ،
دع كراى خان يقسم فلا ينالك منه ضرر ، وإذا خرجت معه فلتكن غذارتك مع
ذلك معدة للانطلاق ، وخاصة عندما يحين الحين لقسمة الجياذ ، فقد كاد رجل
من الجهن يقتلنى لهذا السبب عندما طلبت منه مرة عشرة روبلات ثمناً لجواد ،
ولا بأس عليك إذا وثقت بإنسان ، ولكن لا تذهب إلى النوم دون أن تكون معك
بندقيتك » .

وأنصت لوكاشكا فى انتباه إلى الشيخ .

ثم أخذ إلى الصمت لحظة وسأله : « وبهذه المناسبة أيها العم ، هل عندك شيء
من الحشيشة المقتتة للحصى ؟ »

– ليس عندى منها شيء ، ولكنى سأعلمك كيف تحصل عليها ؟ إنك لفتى
كريم ، ولا تنس شيخاً تقدمت به السن ، فهل لى أن أنبئك ؟
– أنبئنى أيها العم .

– أعرف السلفاة ؟ إنها للمعونة !

– أعرفها من غير شك !

– ابحث عن وجارها وحطه بسياج حتى لا تستطيع الدخول ، إنها ستأتى

وتلف حوله ثم تنطلق باحثة عن الحشيشة المفتتة للحصى ، وسرعان ما تعود حاملة شيئاً منها ، وتقتحم السياج ، فاحرص على أن تذهب إلى هناك في الموعد المناسب صبيحة اليوم التالي تجد الحشيشة المفتتة للحصى ملقاة عند السياج المكسور ، فخذها حينما شئت ، فلن يعوقك عائق أو يمنحك مانع ؟

- هل جربتها أنت نفسك أيها العم ؟

- أما عن تجربتها فإني لم أجربها ، ولكن أناساً من الصالحين حدثوني بأمرها ، ولم أك أستعمل إلا رقية واحدة ، هي أنني كنت أردد أنشودة « السلام عليكم جميعاً ! » إذا امتطيت صهوة جوادى . ولم يقتلني أحد قط !

- ما أنشودة « السلام عليكم جميعاً » أيها العم ؟

- وى ! ألا تعرفها ؟ يا لكم من قوم ! لقد أصبت إذ سألت عمك أنصت وردد ما أقول :

السلام عليكم ! يا من تقيمون في أورشليم

هاهو ذا ملككم

وإنا لثمنطى صهوة جيادنا

فتبكي صوفونيا

ويتحدث زكريا

ولا يزال الأب ماندريك كشأنه

يحب الناس جميعاً

وردد الشيخ عبارة : « يحب الناس جميعاً » ثم قال : « أوقد عرفت الأنشودة

الآن ، إذن عليك بترديدها » .

فضحك لوكاشكا وقال :

- خل عنك أيها العم ، أمن أجل هذا لم يقتلك أحد قط ؟ لعل الأمر كان محض مصادفة !

- لقد بدأت تتذكري أكثر مما ينبغي ! استظهر الأنشودة ورددها ؛ فلن تضار بشيء إذا فعلت ، وما عليك إلا أن تنشد « السلام عليكم جميعاً ! » فلا يصيبك مكروه ، ثم شرع الشيخ نفسه يضحك ويقول : « خير لك ألا تذهب إلى النوغاي يا بلوكاشكا ! » .
- ولم لا ؟

- لقد تغيرت الظروف ، وأصبحت طرازاً آخر من الرجال يختلف عما كنا ، لقد غدوتم أيها القوزاق من حثالة الناس بحق ، انظر عدد الروس الذين وطئوا ديارنا ! سيقدمونك إلى المحاكمة ، فهلهم وكف عما اعتزمت ؛ فلست بالرجل الكفء لهذه المهمة ، لقد ألفت أنا وجيرشك . . . وكان الشيخ على وشك أن يبدأ برواية قصة من قصصه التي لا تنتهى ، وإذا بلوكاشكا ينظر إلى النافذة ويقاطعه قائلاً :

- لقد انبلج الصبح أيها العم ، وقد حق على الرحيل ، فلتأت لزيارتنا يوماً .
- الله معك ! وإني لذاذهب للقاء رجل الجيش ؛ فقد وعدت أن أخرج معه للصيد ، ويبدو لي أنه فتي كريم .

الفصل السابع عشر

وانصرف لوكاشكا من كوخ يروشكا إلى داره ، وكان الضباب الندى يرتفع من الأرض ويشمل بغلالته القرية ، وكانت الماشية بعيدة عن الأنظار إلا أن صوتها كان مسموعاً من كل الجوانب ، وقد بدأت تتحرك ، وأخذت الديكة تتنادى بالصياح في تكرار متزايد وإلحاح دائم ، وكان الضوء يشتد وأهل القرية قد بدءوا يستيقظون ، ولم يستطع لوكاشكا أن يتبين سياج فناء كوخه الذي غشيه الندى من جميع نواحيه ، أو مدخل الكوخ أو الحظيرة المكشوفة حتى اقترب منها تماماً ، ودخل لوكاشكا الكوخ ، وكانت أمه قد استيقظت ، ووقفت عند الموقد تلقى فيه الحشب ، أما أخته الصغيرة فكانت لا تزال مستغرقة في النوم في فراشها ، وسأله أمه في هدوء : « إيه يا لوكاشكا ! هل أصبت من المرح واللهو كفايتك ؟ وأين قضيت الليل ؟ »

فأجابها ابنها متردداً وهو يمد يده إلى بندقيته ويخرجها من جرابها ويفحصها فحصاً دقيقاً : « لقد كنت في القرية » .

وهزت أمه رأسها .

وصب لوكاشكا شيئاً من البارود في خزانة البندقية ، وأخرج من جيبه كيساً أخذ منه بعض الخراطيش الفارغة ، وبدأ يملؤها وهو يدك كلاً منها دكاً محكماً برصاصة لف حولها خرقة ، ثم اختبر الخراطيش الممتلئة بأسنانه وتفحصها ، وأعاد الكيس إلى جيبه .

وقال لها : « أماه . قلت لك : إن حقائبي في حاجة إلى إصلاح ، فهل تم إصلاحها ؟ »

- أي نعم ، فقد كانت أختك البكماء تصلح شيئاً في الليلة الماضية ، أو قد حان موعد عودتك إلى النطاق ؟ إنني لم أكد أراك .

فأجابها لوكاشكا وهو يربط كيس البارود : « أجل ، لا مناص لي من الرحيل حالما أستعد ، وأين أختي البكماء ؟ هل هي في خارج الكوخ ؟ »

أظن أنها تكسر شيئاً من الخشب ، لقد ظلت قلقة عليك ، وقد أشارت لي بما معناه « هل من سبيل إلى رؤيته ؟ » ووضعت يدها على وجهها هكذا ولققت بلسانها وضغطت على قلبها بيديها وكأنها تود أن تقول : « ليتني أستطيع رؤيته » ، أو أدعوها إلى هنا ؟ لقد وقفت على قصة الأبركي بخذافيرها »

فقال لوكاشكا : « ناديا ، لقد وضعت بعض الشحم هناك فأتيني به ، إذ لا بد لي من تشحيم سبقي » .

وخرجت العجوز ، وما إن انقضت بضع دقائق حتى جاءت أخت لوكاشكا الصماء البكماء ترقى الدرج المصصر ثم دخلت الكوخ ، وكانت تكبر أخاها بست سنوات ، ولعلها كانت خليفة بأن تنشأ على صورته تماماً لولا سمات وجهها الحاملة التي كانت مع ذلك تتغير تغيراً غليظاً (شأنها في ذلك شأن الصم والبكم جميعاً) .

كانت ترتدى قيصاً خشناً قد حفل بالرقع جميعاً ، وكانت قدماها عاريتين موحلتين وعلى رأسها منديل قديم أزرق اللون ، وكان عرقها وذراعها ووجهها كثيرة العضلات حتى لقد بدت أشبه بالرجال منها بالنساء ، ودلت ملابسها بل مظهرها كله على أنها قد ألفت القيام بأعمال الرجال الشاقة .

وأقبلت الفتاة تحمل ملء ذراعها من الخشب وألقت به بجانب الموقد ، ثم انجھت إلى أخيها ولمست كفه ، وقد افترثرها عن ابتسامة سعيدة جعلت وجهها يتغضن كله ، وأخذت تشير إليه بإشارات سريعة بيديها ووجهها وجسمها كله . وأجابها أخوها وهو يوميء برأسه : « هذا صحيح ، هذا صحيح ، أيتها الفتاة الطيبة ستيكا ، لقد جئت بكل شيء ، وأصلحت كل شيء ، يا لك من فتاة بارعة ! هالك ، ولتأخذى هذا جزاء لك ! » . وأخرج من جيبه قطعتين من كعك الزنجبيل وأعطاهما إياهما .

وتورد وجه البكاء من فرط السرور ، وأخذت تهتف هتافات غريبة معبرة عن فرحها وسرورها ، وأمسكت بكعك الزنجبيل ثم راحت تشير بيديها وتحرك جسمها في أثناء الكلام حركات أسرع ، وكثيراً ما كانت تشير إلى ناحية ، وتمر بإيهاها على حاجبها ووجهها ، وكان لو كاشكا يدرك ما تعنيه ، وظل يوميء برأسه وعلى شفثيه ابتسامة فاترة ، كانت ستيكا تطلب منه أن يعطى الفتيات شيئاً من الحلوى وتنبهه بأنه يروق لمن : وأن إحداهن تحبه ، وهى ماريانكا خيرهن جميعاً ، وقد دلت على ماريانكا بإشارة سريعة إلى منزل هذه الفتاة ثم بإشارة إلى حاجبها هى ووجهها وبالتلمظ بشفثها وهز رأسها ، وقد عبرت عن حب ماريانكا بضغط يدها على صدرها وتقبلها متظاهرة بأنها تعانق شخصاً ، وعادت أمها إلى الكوخ ، ورأت ما كانت ترمز إليه ابنتها البكاء ، فابتسمت وهزت رأسها ، وأرثها ابنتها كعك

الزنجبيل ، ثم عادت تصرخ بالصوت الذى عبرت به عن فرحها وسرورها .
وقالت الأم : « لقد أخبرت أولتيكا منذ أيام بأننى سأرسل إليهم خاطبة ، وقد
تقبلت قولى بقبول حسن » .

ونظر لوكاشكا فى صمت إلى أمه ثم قال : « ولكن ما قولك فى بيع الحمر
يا أماه ؟ إنى فى حاجة إلى جواد » .

وقالت الأم - وكان من الواضح أنها لا تريد أن يتدخل ابنها فى الشئون
المنزلية - « سأحملة على عربة عندما يحين الوقت ، ولابد لى من إعداد البراميل ،
وستجد فى الدهليز عندما تخرج حقيبة اقترضتها من الجيران ، ووضعت فيها بعض
أشياء تعود بها إلى النطاق ، أو تفضل أن أضعها فى خرجك ؟ »

فأجابها لوكاشكا : « لا بأس ! وإذا عبر كراى خان النهر وجاء إلى هنا فابعثى به
إلى فى النطاق ، فإنى لن أحصل على إجازة أخرى قبل انقضاء مدة طويلة ، وإن
لى معه لشأناً » .

وأخذ يستعد للرحيل .

وقالت العجوز : « سأبعث به إليك ، ألم تك تخرج فى محل يامكا طول
الوقت ؟ لقد خرجت فى الليل لأعنى بالماشية وخيل إلى أننى سمعتك تنشد بعض
الأغاني » .

ولم يحر لوكاشكا جواباً ، بل خرج إلى الدهليز وألقى حقائبه فوق كتفه ورفع
أطراف سترته ، وأخذ بندقيته ، ثم وقف لحظة على عتبة الدار .

وقال وهو يغلق الباب الذى خلفه : « إلى اللقاء يا أماه ! أرسلى لى برميلاً
صغيراً مع نازاركا ، فقد وعدت به الرفاق وسيأتى أحدهم فى طلبه » .

وقالت العجوز وهى تتجه إلى السياج : « حفظك البارى يا لوكاشكا والله

معك ! سأبعث إليك بشيء من الخمر ، شيء من البرميل الجديد » ، ثم أردفت وهي تميل على السياج : « ولكن أنصت إلى » :

« لقد كنت تمرح هنا ، فلا بأس عليك ولا حرج ، وما الذي يمنع شاباً من أن يقضى وقتاً طيباً ؟ لقد وفقك الله وهذا جميل ، ولكنى أوصيك يا بنى بأن تلزم منذ الآن جانب الحذر ، ولا تمخض فى طريق يصيبك منه الضرر ، عليك قبل كل شيء أن ترعى حق رؤسائك عليك ، يجب أن تفعل هذا ، وسأبيع الخمر وأوفر لك المال اللازم لشراء الجواد ، وسأخطب لك الفتاة »

وأجابها ابنها وهو يقطب حاجبيه « حسن ! حسن ! »

وند من أخته البكماء صوت تسترعى به نظره ، وأشارت إلى رأسها ، ثم إلى راحة يدها بما يدل على أنها تعنى رأس ججنى حليقاً ، ثم قطبت حاجبيها وتظاهرت بأنها تصوب بندقيتها ، وصرخت وأخذت تهمهم وتمز رأسها فى سرعة . وكان هذا معناه أن لوكاشكا يجب أن يقتل ججنيا آخر !

وأدرك لوكاشكا ما ترمى إليه ، فابتسم وحمل بندقيته وراء ظهره تحت عباءته وخطا فى خفة وسرعة نحو الضباب الكثيف ، ووقفت العجوز عند الباب لحظة ، ثم عادت إلى الكوخ فى صمت ، وراحت تعمل من فورها .

الفتىل الثامن عشر

وخرج لوكاشكا قاصداً إلى النطاق ، على حين كان العم يروشكا قد صفر لكلايه ، وتسلق السياج . واتجه إلى مسكن أولينين سالكاً الدروب الخلفية ، وكان يكره لقاء النساء قبل خروجه للصيد أو القنص .

وكان أولينين لا يزال نائماً ، أما فانيوشا فقد كان بالرغم من استيقاظه يقلب بصره في الغرفة ويقول بينه وبين نفسه : إن الوقت قد حان للنهوض ، وإذا بالعم يروشكا يفتح الباب ، وقد حمل بندقيته على كتفه ، وارتدى حلة الصياد الكاملة ، وصاح بصوته الجهورى : « هراوة ! إنذار ! لقد أطبق الحجن علينا ! إيفان ؟ جهزو عاء على الشاى لسيدك » . ثم صاح : وانهض أنت نفسك - وتيقظ فهذه هى طريقتنا يا صديقى ! وى ! لقد استيقظ الجميع حتى الفتيات ! انظر من النافذة انظر ، ها هى ذى ذاهبة لتقلأ جرتها وأنت ما زلت فى فراشك ! » واستيقظ أولينين وقفز من فراشه وهو يشعر بالنشاط والسرور لمراى الشيخ وسماع صوته ثم صاح : « أسرع يا فانيوشا ! أسرع ! »

وقال الشيخ : « أهكذا تخرج إلى الصيد ؟ إن غيرك من الناس يتناول فطوره وأنت لا تزال في فراشك ! ثم نادى كنبه « ليام ! تعال ! »

وصاح في صوت مرتفع كأن الكوخ قد امتلأ بجمهرة من الناس : « هل بندقيتك جاهزة ؟ »

وقال أوليين : « إني أعترف بخطئي ولكن لا حيلة لي في الأمر ! البارود يا فانيوشا والبواشير ! »

وصاح الشيخ : « غرامة ؟ »

وسأل فانيوشا وهو يكشر عن أنيابه ويقول بالفرنسية : « أتريد شيئاً من الشاي ؟ »

وصاح الشيخ في فانيوشا كاشفاً عن جذور أسنانه : « لست منا ، فإن ثرثرتك أيها الشيطان لا تمت للغتنا بسبب ! »

وقال أوليين في مرح وهو يلبس حذاءه العالي : « إن أول ذنب لحقيق بالغفران »

وأجاب يروشكا : « سنصفح عن الذنب الأول ، فإن تأخرت في النوم مرة أخرى حكمنا عليك بغرامة قدرها سطل من الحكير ، ولن نصادف إلا أيلأ واحداً إذا ازداد الجو دفئاً »

وقال أوليين وهو يكرر الكلمات التي قالها الشيخ في الليلة الماضية : « فإن اتفق ووجدناه كان أوسع منا حيلة ، ولن نستطيع أن توقعه في حبالك »

— أي نعم ، غالب الأمر بالضحك ! ولخير لك أن تصيب الأيل أولاً ثم تشرع في الحديث ، والآن أسرع ! . وأردف يروشكا وهو ينظر من النافذة : « انظر ، هاهو ذا رب البيت نفسه يصل للقائك ، وقد ارتدى سترة جديد ، ليدلك على أنه

ضابط ، آه من هؤلاء القوم ! آه من هؤلاء القوم ! » ، ومصادفاً لقوله دخل فانيوشا وأعلن أن رب البيت يريد لقاء أوليين .

وقال فانيوشا بالفرنسية في تدبر وإمعان منذراً سيده بمغزى هذه الزيارة : « المال ! » ، ودخل رب البيت الغرفة في أعقابهِ ، وهو يرتدى سترة جركسية على كتفها أشرطة ضابط ، ويتعل حذاء جيد الصقل ، (وهذا شيء نادر من القوزاق) ، وراح يميل يمينه ويسرة ويرحب بنزله بمجرد وصوله .

وكان إيليا فاسيلييتش حامل العلم قوزاقياً متعلماً ، فقد ارتحل إلى روسيا نفسها واشتغل بالتدريس ، وكان فوق هذا وذاك نبيلاً من النبلاء ويجب أن يظهر بمظهر النبلاء إلا أن من يراه لا يملك إلا أن يشعر بأن وراء دعواه العريضة بأنه رجل مهذب ، وتكلفه وثقته بنفسه وطريقته الغربية في الكلام - شخصاً لا يفترق في شيء عن العم يروشكا ، وكان من اليسير عليك أن تلمح ذلك أيضاً في وجهه ويديه اللتين لوحتهما الشمس وأنفه الأحمر ، ودعا أوليين الرجل إلى الجلوس . وقال يروشكا وهو ينحنى له انحناءة رقيقة بدا لأوليين أنها تدل على التهكم والسخرية : « طاب صباحك أيها الأب إيليا فاسيلييتش »

فقال حامل العلم وهو يوميء برأسه في غير اكتراث : « طاب صباحك أيها العلم ، إذن فقد سبقتنى إلى هنا »

وكان حامل العلم في نحو الأربعين من عمره له لحية شهباء ، وكان ذاوى العود نحيلاً ، ومع ذلك فقد كانت تبدو عليه مسحة من وسامة . وتشيع في وجهه نضارة لا تناسب سنه . وقد جاء الرجل لمقابلة أوليين ، وكان من الواضح أنه يخشى أن يحسبه أوليين من عامة القوزاق ، فأراد أن يشعره بما له من شأن منذ البداية . وقال الرجل موجهاً الحديث إلى أوليين وهو يشير إلى الشيخ بابتسامة تم عن

يعتازه بنفسه : « هاك نمرودنا العصرى . وإنى لأشهد أمام الله بأنه صياد عظيم ! وهو إمامنا فى كل شىء ، وهأنذا أرى أنه قد سرك التعرف به » .

وحدق العم يروشكا فى قدميه بنعلها المصنوع من الجلد الغفل اللزج وهز رأسه متديراً قدرة حامل العلم وعلمه ، وتمم محدثاً نفسه : « نمرودنا العصرى ! ألا ما أعجب ما يفكر فيه من أمور ! » .

وأجاب أوليين : « أجل : فى نيتنا أن نخرج للصيد »

وقال صاحب العلم : « إنى لأدرك ذلك كل الإدراك ياسيدى ، ولكنى فى معك شأنًا صغيراً أريد أن أحدثك فيه » .

ما الذى أستطيع أن أفعله من أجلك ؟

وأنشأ حامل العلم يقول : « أما وإنى أتوسم فيك أنك سيد مهذب ، وأحسب أننى أيضاً فى مصاف الضباط - فإننا نستطيع دائماً أن نتفاهم تفاهماً يشر بالخير ، كما هو دأب السادة المهذبين . . . » (ثم سكت ونظر مبتسماً إلى أوليين وإلى الشيخ) ، « هذا إن شئت ووافقت أنا ، ذلك أن زوجتى امرأة حمقاء من نساء طبقتنا ، لم تستطع أن تفهم حديثك الذى حدثتها به البارحة ، ومن ثم فإنى مستطيع أن أؤجر مسكنى إلى أركان حرب الكتبية لقاء ستة روبلات باستثناء الحظائر ، إلا أننى أستطيع دائماً أن أحرم نفسى إياها دون أن أتقاضى عنها أى مقابل ، ولكن بما أنك تريد فإنى - وأنا نفسى فى رتبة الضباط - أستطيع الاتفاق معك على كل شىء شخصياً ، بوصنى من أهل هذه الناحية . بمقتضى ما توجه به العادات ، ومع ذلك فأننا قادر على الوفاء بالشروط من كل وجه . . . »

وتمم الشيخ : « ما أوضح كلامه ! »

واسترسل حامل العلم فى حديثه ضارباً على هذه النعمة نفسها وقتاً طويلاً ،

وأدرك أوليين آخر الأمر ، وفي شيء من المشقة - أن حامل العلم يريد أن يؤجره مسكنه مقابل ستة روبلات في الشهر ، ووافق أوليين على ذلك بسرور ، وقدم إلى ضيفه قدحاً من الشاي إلا أن حامل العلم رفض تناول القدح .

وقال : « إننا نرى بحسب تقاليدنا الحمقاء أن شربنا الشاي من قدح دنيوى شيء من المعصية وإن كنت بحكم تعليمي أستطيع بطبيعة الحال أن أفهم الأمر ، إلا أن زوجتي بما جبلت عليه من ضعف البشر . . . »

— لا بأس إذن ، ولكن ألا تتناول شيئاً من الشاي ؟

فأجاب حامل العلم : « سأحضر قدحى الخاص بى إذا سمحت لى بذلك » ، ثم

خرج إلى مدخل الكوخ وصاح : « على بقدحى ! »

وما انقضت بضع دقائق حتى انفتح الباب وامتد ذراع لَوْحته الشمس يطل من كم وردى ويحمل قدحاً ، واتجه إليه حامل العلم وتناول القدح ثم أسر بشيء إلى ابنته ، وصب أوليين الشاي لحامل العلم فى قدحه الخاص به ، وصب ليروشكا فى قدح دنيوى .

وقال حامل العلم وهو يلهب شفثيه بالشاي الساخن ويأثى على قدحه كله : « على أننى لا أود أن أعطلك : ذلك أننى أيضاً مشغوف بصيد السمك ، وإنما جئت إلى هنا فى إجازة كما يقولون أروح بها عن نفسى من عناء العمل ، وأنا أيضاً تملكنى الرغبة فى أن أجرب حظى لعل بعض خيرات نهر ترك تكون من نصيبى . وإنى لأرجو أن تأتى أنت أيضاً وترورنا وتشرب من خمرنا وفقاً لعادات قريتنا » . ثم انحنى حامل العلم وصافح أوليين وخرج ، وبينما كان أوليين يتأهب للخروج سمع حامل العلم يصدر أوامره إلى أسرته فى لهجة حازمة متزنة ، وما لبث أن رآه بعد بضع دقائق يمر بالنافذة فى ستره مهلهلة وقد شمر سرواله حتى ركبتيه ولفع شبكة من

شباك صيد السمك على كفه .

وقال العم يروشكا وهو يفرغ قدحه الدنيوى : « ياله من محال ! أوقد صحت نيتك على أن تدفع له حقاً ستة روبلات ؟ وهل سمع أحد قط بمثل ذلك ؟ إنك تستطيع أن تستأجر أحسن كوخ في القرية لقاء روبلين ، يا للوعد ! وى ! إننى لأرضى بأن أؤجر لك كوخى بثلاثة روبلات ! »

وقال أولينين : « كلا ، سأتبقى هنا »

« ستة روبلات ! إنك تلقى بمالك جزافاً ! » ، وتهد الشيخ ثم أردف : « علينا

بشيء من الجكير يا إيفان ! »

وخرج أولينين هو والشيخ قبل أن تحل الساعة الثامنة بعد أن تناولا شيئاً من الطعام وشربا قدحاً من الفودكا يستعينا بها على تحمل عناء الطريق ، وصادفا عند الباب عربة تجرها الثيران وكانت ماريانكا تجر الثيران بجبل ربطته في قرونها وقد عصبت رأسها بمنديل أبيض أوشك أن يصل إلى عينيها ، وارتدت معطفاً فوق قبيصها ، وانتعلت حذاءً عالياً وحملت في يدها عسلوجاً طويلاً

وقال الشيخ متظاهراً بأنه على وشك الإمساك بها : « يالللجمال ! »

ورفعت ماريانكا عسلوجها كأنها تهم بضربه ، ثم نظرت إليهما بعينيها الجميلتين نظرة تنم عن المرح والسرور .

وشعر أولينين بالبشر يفيض به قلبه أكثر وأكثر .

ثم قال : « وهو يلقى بيندقيته على كفه شاعراً بأن نظرات الفتاة مسلطة عليه :

« والآن هيا بنا ، هيا بنا »

ورن خلفها صوت ماريانكا وهي تنادى الثيران ، وأعقبته قرقة العربة وهي

تتحرك .

واسترسل يروشكا في الحديث وهما يقطعان الطريق الذى امتد خلال المراعى خلف القرية ، ولم يك يستطيع أن ينسى حامل العلم فظل يهجوّه .

وسأله أوليين : « فيم غضبك هذا الشديد عليه ؟ »

فأجابه الشيخ : « إنه لحقير وأنا لا أحب هذا منه ، إنه لتارك كل ما يملك من حطام الدنيا متى أدركه الموت ، فمن أجل من يقتصد إذن ؟ لقد شيد بيتين وانترع من أخيه بستاناً آخر بدعوى قضائية وما أكثر دناؤه فيما يتصدى له من كتابة الموائيق ! إن القوم يقصدونه من القرى الأخرى ويطلبون منه أن يكتب موائيق ، فيتحقق لهم كل ما يخطه قلمه من هذه الموائيق ، وهو لا يبذل جهداً ، ولكن ترى من أجل من يقتصد ؟ إنه لم يرزق إلا غلاماً وهذه الفتاة ، فمن يبقى له بعد زواجها ؟ »

فقال أوليين : « إذن هو يقتصد ليني بمهرها »

- أى مهر - الفتاة كثيرة الخطاب ، لأنها حسناء ، وقد بلغ من حبث الرجل أنه لا يريد زواجها إلا من غنى ، ويطلب فيها ثمناً عالياً ، ولأضرب لك مثلاً بلوكاشكا ، فهو قوزاق من جيرانه ، وابن أخى ، وشاب مليح ، بل هو الذى قتل الجحنى ، لقد ظل لوكاشكا يتودد إليها زمناً طويلاً ، ولكنه يأتى أن يزوجه إياه ، وقد اعتذر من ذلك بأعذار كثيرة ، وآخرها : « إن الفتاة صغيرة جداً » ، ولكنى أعلم ما يدور فى رأسه ! إنه يريد منهم أن يظلوا ينحنون له ويتملقونه ، ومع ذلك فإنهم سيفوزون بها للوكاشكا : ذلك أنه خير قوزاق فى القرية ، إنه زغيثى ، وهو الذى قتل رجلاً من الأبركة وسينعم عليه بوسام » .

وقال أوليين : « ولكن كيف هذا ؟ لقد كنت أسير فى الفناء ليلة أمس فرأيت ابنة رب الدار وقتى من القوزاق يقبل كل منهما الآخر ! » .

- وسكت الشيخ برهة قصيرة ثم صاح : « لا أصدقك ! »
 وقال أوليين : « أقسم لك على ذلك »
 وقال الشيخ يروشكا : « إنها لشيطانة » ، ثم غرق في لجة من أفكاره
 وأردف : « ولكن أى فوزاقى هو ؟ »
 - لم أستطع أن أتبينه
 - إذن ، أى نوع من القبعات كان يلبس ؟ أكانت قبعة بيضاء ؟
 - أجل .
 - وسترته حمراء ؟ وفى طولك تقريباً ؟
 - كلا ، بل كان أطول منى قليلاً .
 - وى ! لقد كان هو ! وانفجر يروشكا ضاحكاً ، واسترسل يقول : « لقد
 كان هو لوكاشكا نفسه ، إنه لوكاشكا ، ولكنى أسميه ماركا على سبيل المزاح ، إنه
 لوكاشكا نفسه وأنا أحبه . فقد كنت أنا نفسى على شاكلته ، إذ أى فائدة ترجى
 من الاحتفال بأمرهم ؟ لقد جرت حبيبتى على النوم مع أمها وزوجة أخيها ، ولكنى
 أدير أمر التسلل إليها ، كانت تنام فى الدور الأعلى وكانت أمها الحيزيون امرأة ماكرة
 غاية فى الحبث ، وما أكثر ما كانت تكرهنى ! وقد جريت على الذهاب إليها صحبة
 صديقتى ، وكان اسمه جيرشك ، كنا نقبل فنقف تحت نافذتها ، ثم أنسلق على
 كنفه ، وأدفع النافذة ثم أبدأ فى تحسس طريقى ، كانت الفتاة تنام على أريكة قرب
 النافذة تماماً ، وقد حدث أن أيقظتها مرة فكادت تصرخ مستنجدة ، ذلك أنها لم
 تعرفنى ، وقالت : « من هناك ؟ » فلم أستطع الإجابة ، بل إن أمها بدأت تتحرك
 إلا أننى خلعت قبعتى ودفعتها فوق فها فعرفتها فى الحال ، لأنها كانت ممزقة ،
 وهرعت إلى ، لقد كنت أبلغ جميع ما أريد فى تلك الأيام » ، وأردف يروشكا

يقول بلهجته العملية : « فقد كانت توافيني بالقشدة المتخثرة والعنب وكل شيء ، ولم تك هذه الفتاة هي حبيبتى (الوحيدة) وهذه هي الحياة التى كنا نحياها ! » .
- وماذا بعد ؟

- ستبع الآن الكلب ، ونحمل على طائر من الدراج فيحط على شجرة ، وعندئذ نستطيع أن نطلق عليه النار .
- لم لا تبذل محاولة فى سبيل ماريانكا ؟

وقال الشيخ وهو يشير إلى كلبه المحبوب ليام : « راقب الكلب سأكشف لك الأمر الليلة .

وسكتا برهة قصيرة ثم استأنفا حديثها سائرين مائة خطوة أخرى تقريباً ، وعاد الشيخ فتوقف وأشار إلى غصن كان يعترض الطريق .
وقال : « ما رأيك فى هذا ؟ أتخسه لا يدل على شيء ؟ » إن هذه العصا يجب ألا تكون موضعها هكذا ، إنها نذير شؤم !
- ولماذا تكون نذير شؤم ؟

وابتسم الشيخ فى تهكم وسخرية وقال :
- آه ! إنك لا تدري شيئاً ، فاستمع إلى : عندما تعترض طريقك على هذا النحو فلا تحط فى مواجهتها ، بل يجب أن تلتف حولها أو تتبعد عن الطريق هكذا ،
وتقول : « أيها الأب والابن والروح القدس » ، ثم تمضى على بركة الله ، فلا يصيبك شيء ، وهذا هو ما كان الشيخ يعلموننى إياه .
فقال أوليتين : « كفى ، فما أسخف ما تقول ! وإنى لأفضل أن تريدنى علماً بأمر ماريانكا ، أتراها تبادل لوكاشكا ودأً بود ؟ »
وعاد الشيخ يقاطعه هامساً : « صه . . . والزم الآن جانب الهدوء ! وما عليك

إلا أن تنصت ، فسنلتف بالغابة » .

وأخذ الشيخ يسير في هدوء في نعله اللين ، وأم الطريق مجتازاً درباً ضيقاً إلى رتم الغابة البرى الكثيف ، وراح يلتف من حين إلى حين وقد قطب حاجبيه ناظراً إلى أوليين الذى كان يخشخش ويقرقع بجذائه الثقيل ، وكثيراً ما علقت بندقيته التى كان يحملها في غير عناية بأغصان الأشجار التى نمت في عرض الدرب .
وهمس الشيخ غاضباً : « لا تحدث مثل هذه الضوضاء ، وسر يرفق أيتها الجندي ! »

وكان يغشى الجو شىء ينبئ بأن الشمس قد أشرقت ، وأخذ الضباب ينقشع إلا أنه كان لا يزال مكتنفاً لقمم الأشجار ، وقد بدت الغابة رفيعة الذرا تسلط على من حولها تسلط الغالب القاهر ، وكان المنظر يتغير في كل خطوة ، فإذا رأيت العشب حسبها شجرة وإذا رأيت عود القصب ظنته شجرة !

الفصل التاسع عشر

كان الهدوء مخيماً ، وكان الرجلان النذان خرجا لنصيد يسمعان الأصوات المنبعثة من القرية ، ثم انقطعت هذه الأصوات ، وعادا لا يسمعان إلا صوت الحسك يخشخش كلما جرت الكلاب تحته وكانت الطيور تتنادى من حين إلى حين ، وقد أدرك أوليين أن الخطر كان يحتم في الغابة . وأن الأبركة يخشون دائماً في مثل تلك المواضع ، على أنه كان يعلم أيضاً أن البندقية وقاية عظيمة للرجل الذي يسير على قدميه في الغابة ، ولم يكن يحس بذلك عن خوف ، بل كان يحس بإحساس غيره من الناس الذين كانوا خليقين بأن يدركهم الخوف لو كانوا في مكانه ، وأخذ ينظر إلى الغابة الرطبة الخافتة بالضباب ، وينصت إلى الأصوات النادرة الخافتة مرهف الحس ، ثم ينقل قبضته على بندقيته ويكابد شعوراً لذيذاً كان جديداً عليه .

وكان العم يروشكا يسير أمامه ، ثم يقف وينعم النظر فاحصاً مدققاً في كل بركة ألم بها حيوان وترك عندها أثراً مزدوجاً ، ويطلع عليه أوليين ، وكان لا يتكلم إلا في

القليل النادر ، بل يهمس ببعض الملاحظات إلى أوليين من حين إلى حين ، وكان الطريق الذى يسلكه قد شقته العربات مرة إلا أن العشب كان قد نما فوقه منذ وقت طويل ، فغطى الأخاديد ، وكانت غابة الدردار والدلب التى تكتنفها من الجانبين كثيفة جداً وقد غطتها النباتات المتسلقة حتى أصبح من المستحيل أن يتبين المرء شيئاً خلاها ، وكانت كل شجرة تقريباً قد لفها الكروم البرية من أعلاها إلى أسفلها . وامتد الحسك الداكن اللون امتداداً كثيفاً على الأرض ، وكانت شجيرات التوت وأعواد القصب السمرء المريشة تغطي كل ممر صغير فى الغابة . وآثار الخوافر وآثار أقدام الدراج على هيئة الأفاعى الصغيرة تودى فى بعض مواضع الطريق إلى الدغل . وكان أوليين يأخذ العجب فى كل خطوة من قوة نماء هذه الغابة التى لم تسرح فيها البهائم قط ، ذلك أنه لم يك قد رأى ما يماثلها من قبل قط ، وقد بدت له الغابة ، والخطر الجاثم ، والشيخ بهمساته الغامضة ، وماريانكا بقامتها المعتدلة المليئة بالحوية ، والجبال - كأنها جميعاً حلم من الأحلام .

وهمس الشيخ وهو يلتفت خلفه ويشد قبعته على وجهه : « لقد استقر دراج على الشجرة ، فأغلق فلك ! دراج ! » ، ثم أشار إلى أوليين فى غضب ، وزحف إلى الأمام على أربع تقريباً . ثم أردف : « إنه لا يجب طلعة الإنسان ! » . وكان أوليين لا يزال خلفه عندما وقف الشيخ ، وأخذ يختبر شجرة من الأشجار ، وكان ثمة ديك من الدراج على الشجرة ينقث فى وجه كلب كان ينبع عليه ، وقد رأى أوليين الطائر ، إلا أنه دوت فى تلك اللحظة طلقة كأنها طلقة مدفع من بندقية يروشكا الضخمة ورفرف الطائر بجناحيه مصعداً وفقد بعض ريشه ، ثم سقط على الأرض ، وآثار أوليين دراجاً آخر وهو يتجه نحو الشيخ ، ثم رفع بندقيته وصوبها وأطلق النار ، واستمر الدراج يحوم فى السماء لحظة ثم وقع على

الأرض بعد أن علق بالعنق في أثناء سقوطه .

وصاح الشيخ وهو يضحك : « أحسنت يا فتى ! » ، فقد كان لا يستطيع أن يصيب طائراً في جناحه .

وانتقلا الديكين واستمرا في طريقهما ، وأثارت أولنين الرياضة والمديح ، فظل يوجه الملاحظات إلى الشيخ .

وقاطعه يروشكا قائلاً : « قف ! تعال من هنا ، فقد شاهدت أثر الأيائل في هذا المكان بالأمس » .

وانعطفا في الدغل وسارا نحو ثلاثمائة خطوة ، ثم دلفا إلى ممر تغطيه أعواد القصب ، وقد طغى الماء على جزء منه ، ولم يستطع أولنين اللحاق بالصياد العجوز ، وسرعان ما وقف يروشكا على مسيرة نحو عشرين خطوة أمامه ، وهو يباطئ رأسه ويومئ بذراعه ، ولحق به أولنين ، فتبين أن يروشكا كان يشير إلى أثر أقدام رجل .

- أوترى هذا ؟

فقال أولنين وهو يحاول أن يتحدث بأقصى ما يستطيع من هدوء : « حسن ، إنها آثار أقدام رجل »

وطاف بذهن أولنين على غير إرادة منه « كاشف الطريق » لكوبر ، وتذكر الأبركة ، ثم لاحظ الطريقة الغامضة التي كان يسير بها الشيخ ، فأشفق من أن يسأله : وظل الشك يساوره ، هل هذا الغموض ينبعث من تهيب الخطر أو من رياضة الصيد نفسها ؟

وأجاب الشيخ ببساطة وهو يشير إلى العشب حيث كان أثر حيوان يبدو واضحاً أويكاد : « كلا ، إنها آثار أقدامى أنا »

ومضى الشيخ في طريقه ، وقد لازمه أوليين ، ثم هبطا إلى أرض منخفضة على مسيرة عشرين خطوة أو نحوها ، فبلغا شجرة كثرة وارف الظل ، ظهر تحفا على الأرض السوداء روث لبعض الحيوان ندى طرى ، وكان الموضع قد لفته الكروم البرية من جميع جوانبه فبدا كالمرفأ الأمين ظليلاً رطيباً .

وقال الشيخ وهو يتهد : « لقد كان هنا هذا الصباح ؛ فإن المصجع لا يزال رطباً ندياً »

وطرق آذانها فجأة صوت قرقة خفيفة تدوى في الغابة على مسيرة نحو عشر خطوات منها ، وفرغ كلاهما وأمسكا ببندقتيهما إلا أنها عجزا عن أن يبصرا شيئاً ؛ وإنما سمعا صوت الغصون تتكسر وظلا لحظة يسمعان طرقات ركض سريع متدركة ، تحول إلى دمدمة جوفاء أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً وتردد صداها في دوائر تتسع وتتسع في الغابة ، وشعر أوليين كأن شيئاً قد نهش قلبه نهشاً ، وراح يحرق النظر بلا جدوى في الدغل الأخضر ، ثم التفت إلى الشيخ ، وكان العم يروشكا قد وقف ساكناً لا يرم ويبندقته لا تزال على كتفه ، وقد دفع بقبعته إلى الوراء ، وتألقت عيناه ببريق عجيب . وبدا فيه وأسنان الصفرء البالية مكشراً عن أنيابه غضباً وكأنه قد جمعد في هذا الموضع !

وغمغم يقول : « أيل ذوقرون ! » ، وألقى ببندقته إلى الأرض يائساً ، وأخذ يشد لحيته الشهباء : « لقد كان يقف هنا تماماً ، وكان ينبغي لنا أن نأق إلى هنا سالكين المر . . . ما أحمقنا ! ما أحمقنا ! » ، وجذب لحيته غضباً ، وعاد يقول : « غبي ! خنزير ! » ، وهو يشد لحيته شداً عنيفاً مؤلماً .

وبدا لهما أن شيئاً يطير خلال الضباب المخيم على الغابة ، وأخذ صدى صوت الأيل الهارب يبتعد ويبتعد في الفضاء .

وكان الغسق قد حل عندما رجع أولنين جائعاً متعباً هو والشيخ ولكنه كان نشيطاً كل النشاط ، كان العشاء معداً ، فأكل هو والشيخ وشرب حتى شعر بالدفع والمرح ، ثم خرج إلى مدخل الكوخ ، وقد لاحت له الجبال مرة أخرى في غروب الشمس ، وعاد الشيخ يقص عليه قصصه التي لا تنتهى عن الصيد والأبركة ومحوباته وعن حياة المجازفة والمغامرة والاستهتار ، وأخذت ماريانكا تدخل وتخرج مرة أخرى ، وتجتاز الفناء بقميصها الذى يكشف عن جمال قوامها العذرى المليء بالحياة .

افضل العشرون

وخرج أوليين في اليوم التالي وحده ، وذهب إلى الموضع الذي أثار فيه هو والشيخ الأيل ، ولم يلتفت ليخرج من الباب ، بل تسلق السياج الشائك ، كما كان يفعل غيره من القوم جميعاً ، وقبل أن يتسع له الوقت لجذب الشوك الذي علق بسترته كان كلبه الذي سبقه قد أثار دراجين ، وما إن بلغ العوسج حتى كانت الدراج قد أخذت تستيقظ في كل خطوة يخطوها (ولم يكن الشيخ قد أطلعه على ذلك الموضع بالأمس ، ذلك أنه قد عقد العزم على الصيد منه من خلف دريسته) ، وأطلق أوليين النار اثني عشرة مرة وقتل دراجات خمسة ، على أنه صعد خلال العوسج في طلبها ، فأصابه من ذلك جهد كبير حتى غرق سريعاً في لجة من العرق ، ونادى كلبه ليعتد عن الدراجين ، ورفع زناد بندقيته ووضع بعض الرصاص فوق الخردق الصغير ، وطرده البعوض بكم سترته الجركسية الواسع وشق طريقه ببطء إلى البقعة التي كانا فيها بالأمس ، على أنه كان من المستحيل كبح جماح الكلب ، فقد وجد الآثار في الطريق نفسه ، وقتل أوليين دراجين آخرين ، وكاد

النهار يتصف عندما حصل عليها واقترب من المكان الذى كان يبحث عنه . وكان النهار مشرقاً أبلج والسكون نحيماً والجو قانطاً أشد القيظ ، وقد جفت رطوبة الصباح حتى فى الغابة ، وغطت حشود غفيرة من البعوض وجهه وظهره وذراعيه أوكادت ، وتحول لون كلبه من اللون الأسود إلى اللون الرمادى ، وغطى البعوض ستره أوليين ، وقد أنفذت فيها الحشرات زباناتها ، وكان أوليين مستعداً أن يهرب منه ، وأخذ يشعر بأنه من المستحيل عليه أن يقيم فى هذه القرية فى الصيف ، كان على وشك أن يعود أدراجه ، ولكنه تذكر أن غيره من الناس قد راض نفسه على احتمال هذا الألم ، فعقد العزم على أن يصبر عليه ، واستسلم للبعوض ينهشه نهشاً . والعجيب فى الأمر أنه ما إن حل الظهر حتى أصبح الشعور لذيقاً ممتعاً حقاً ، بل إن أوليين قد أحس بأن هذه الغابة تفقد بعض طبيعتها وفتنتها لولا هذا الجو الزاخر بالبعوض الذى يكتفه ، وهذه العجينة من البعوض المختلطة بالعرق التى لوثت يده بها وجهه ، وهذا الالتهاب المتواصل الذى سرى فى جسمه كله ، لقد كانت هذه الأسراب الغفيرة من البعوض تناسب كل المناسبة هذه الحضرة البرية البالغة النمو ، وتلك الأسراب من الطير والوحش التى كانت تملأ الغابة ، وهذا الورق القاتم من أوراق النبات ، وهذا الجو الرطب العطر ، وهذه القنوات المليئة بالماء العكر تأخذ من نهر ترك وتشق طريقها فى كل مكان ، وهى تترقق تحت أوراق الأشجار الحانية عليها ، حتى لقد بدا له ذلك الشيء الذى خاله نفسه أول الأمر فظيلاً لا يحتمل ، رضى مقبولاً .

وجال أوليين فى المكان الذى صادف فيه الأيل بالأمس فلم يجد شيئاً ، وشعر بالحاجة إلى الراحة ، وكانت الشمس قد اعتلت كبد السماء فوق الغابة وأخذت تصب أشعتها العمودية صباً على ظهره ورأسه كلما خرج إلى ممر من الممرات أو إلى

الطريق العام ، وكانت الدرايخ السبعة من الثقل بحيث أصابه من جرها ألم شديد في وسطه ، ووجد آثار الأيل ، فرحف تحت شجيرة إلى الدغل حيث كان الأيل تماماً ورقد في مريضه ، واختبر أوراق الشجر القائمة حوله والمكان الذى خلف فيه عرق الأيل آثاره ، وروثه الجاف ، وطابع ركبتيه وقطعة الأرض السوداء التى ركلها ، وآثار أقدامه التى خلفها بالأمس ، وشعر بالراحة والهدوء ، فلم تعد تطوف بذهنه أفكار أو تملك نفسه رغبات ، وغمره فجأة شعور غريب بفرح لم يدر له سبباً ، وحب لكل شىء تفيض به نفسه ، حتى إنه جرى على عادة ألفها في طفولته ، وأخذ يرسم إشارة الصليب ويتوجه بالحمد إلى شخص ما ، وقال يحدث نفسه في وضوح وجلاء على حين غرة : ه هانذا ديمترى أولينين ، كائن أتميز كل التمييز عن كل كائن سواى ، وأرقد الآن وحدى ، ولا يعلم إلا الله أين أرقد حيث ألف أيل أن يقيم فتى خبيراً وسيماً . لعله لم يرقط وجه إنسان ، وفي مكان لم يسبق لكائن حي أن جلس فيه أو مرت بمخيلته مثل هذه الأفكار .

هانذا أجلس وحولى أشجار عتيقة وأشجار غضة قد تزينت إحداها بكروم العنب البرية ، والدرايخ تصفق بجناحها ويدفع بعضها البعض ، ومن يدرى ؟ ربما كانت تشم ريح أخواتها التى لقيت حتفها .

وتحسس أولينين درايجه وأنعم النظر فيها ومسح الدم الحار الذى علق بيده في سترته ، ولعل أبناء آوى قد شمت الرائحة هى أيضاً ، فانجھت وجهة أخرى ، وقد علت وجهها علامات السخط والغضب ، وحام البعوض في الجو وأخذ يطن فوق رأسه ، ويظهر بين أوراق الشجر وهى تبدو له كأنها الجزائر الضخمة ، بعوضة ، اثنان ، ثلاث ، أربع ، مائة ، ألف ، مليون ، وكلها يطن مفصحة عن شىء ما ، وكل بعوضة منها ديمترى أولينين تتميز عن سواها كما أتميز أنا عن غيرى ، وتحيل

بوضوح ما كان يظنّ به البعوض مفصّحاً عما في نفسه : « من هنا ! من هنا
يارفاق ! هاكم شخصاً نستطيع أن نأكله ! »

كان البعوض يظن ويلتصق به . وقد تبين لأوليين أنه لم يكن نبيلاً روسياً
أو واحداً من عليّة القوم في موسكو أو صديق فلان أو قريب علان ، وإنما كان
بعوضة أو دراجاً أو أبلأً كمثلك التي تعيش حوله الآن ، « لسوف أعيش زمناً ثم
أقضى ، كمثل البعوض تماماً ومثل النعم يروشكا ، ولسوف ينمو العشب فوق قبري
ثم ينقضى الأمر كما قال بحق !

واسترسل في التفكير : « ولكن ماذا لو نما العشب فوق قبري ؟ يجب أن أعيش
بالرغم من ذلك ، وأن أكون سعيداً ، فالسعادة هي كل ما أتمنى . ودعك مما أنا
عليه الآن - حيوان كسائر الحيوان سوف ينمو العشب فوق قبري ، ثم ينقضى
الأمر ، أو صورة نفخ فيها الله الواحد الأحد منه ، ومع ذلك يجب أن أعيش
خير عيشة ولكن ، كيف يجب إذن أن أعيش لأنعم بالسعادة ؟ ولم لم أك سعيداً من
قبل ؟ وراح أوليين يستعيد حياته الماضية ، وشعر بالاشمئزاز من نفسه ، وبدا لعينه
أنه كان نهماً أقطع النهم يؤثر نفسه على غيره ، ولو أنه يرى الآن أنه لم يك يطلب
حقاً شيئاً لنفسه ، وظل يقرب بصره في أوراق الشجر والضوء يسطع من خلالها ،
وفي الشمس الغاربة والسماء الصافية ، وشعر بالسعادة تغمره كما كانت تغمره من
قبل سواء بسواء .

وراح يتحدث بينه وبين نفسه : « لم أنا سعيد الآن ؟ وما الذي كنت أعيش من
أجله ؟ ألا ما أكثر ما كنت أطلبه لنفسى ! وما أكثر ما دبرت ! ولكنى لم أحقق لها
إلا الحزى والأسى ! وهأنذا الآن لا أحتاج لشيء حتى أكون سعيداً » ، وبدا على
حين غرة أن ضوءاً جديداً قد تكشف له فقال يحدث نفسه : « هذه هي السعادة :

والسعادة هي أن يعيش المرء لغيره ، وهذا أمر واضح جلي ، إن الرغبة في السعادة متأصلة في قلب كل إنسان ، ومن هنا كانت أمراً مشروعاً ، فإن حاول المرء أن يحققها بالأثرة أى بالسعى في طلب الثروة أو المجد أو النعيم أو الحب - فقد يحدث من الظروف ما يجعل تحقيق هذه الرغبات مستحيلاً ، والنتيجة إذن هي أن هذه الرغبات ليست مشروعة ، ولكن الحاجة إلى السعادة ليست كذلك ، ولكن ما الرغبات التي يمكن تحقيقها في جميع الأحوال بالرغم من الظروف الخارجية ؟ ألحق هي أم الإيثارة ؟

وبلغ به السرور والحماسة مبلغها عندما اكتشف الحقيقة الجديدة كما بدت له حتى إنه انتصب واقفاً وأخذ يسعى نافذ الصبر في طلب شخص يضحي بنفسه من أجله ، ويقدم له شيئاً من الخير ويضحي عليه حبه ، واسترسل يحدث نفسه : « ما دام المرء لا يريد شيئاً لنفسه فلم لا يعيش لغيره ؟ » وحمل بندقيته معتزماً العودة إلى الدار سريعاً ليفكر في الأمر ملياً وليجد فرصة يصنع فيها الخير ، وشق طريقه خارجاً من الدغل .

وما إن خرج إلى الممر حتى تلفت حوله . وكانت الشمس قد توارت خلف قمم الأشجار ، وازدادت برودة الجو ، وبدا المكان في عينيه غريباً كل الغربة يختلف هو والريف المحيط بالقرية ، وأن يد التغيير قد امتدت إلى كل شيء ! يستوى في ذلك الجو وطبيعة الغابة ! وكانت السماء قد تسربت بالغيوم وأخذت الرياح تهمهم في قمم الأشجار ، فلم يعد يتبين من حوله إلا أعواد القصب والأشجار الداوية المتكسرة ، ونادى كله الذي كان قد ابتعد عنه يطارد بعض الحيوان ، وارتد صوته إليه كأنه في صحراء ، وغمره فجأة شعور مروع بالخوف ، فتملكه الفزع : ذلك أنه تذكر الأبركة وحوادث القتل التي رويت له ، وكان يتوقع في كل لحظة

أن ينقض عليه واحد منهم من خلف شجرة ، وأن واجبه يقتضيه في هذه الحالة أن يدافع عن نفسه وأن يموت وإلا كان جباناً ، وتوجه بفكره إلى الله وإلى الحياة الآخرة ، وكان قد ترك التفكير فيها منذ زمن بعيد ، وكانت الطبيعة تحيط به من كل جانب كثيفة صارمة ، موحشة ، فحدث نفسه قائلاً : « وهل من الخير أن يعيش المرء لنفسه والنية ترصد له في كل لحظة ، وأن يموت دون أن تقدم يده شيئاً من الخير ، ولا يدري أحد من أروافاته شيئاً ؟ » وسار في الاتجاه الذي خيل إليه أنه يؤدي إلى القرية ، ولم يعد يفكر في الصيد ، فقد شعر بأن قواه قد خارت ، وأخذ يحدق النظر فاحصاً مدققاً في كل لحظة أن يقع في مأزق يعرض حياته للخطر ، وهام على وجهه طويلاً ثم وقع على قناة ممتلئة بالماء الرملى البارد يجرى من نهر ترك ويصب فيها ، وقرر أن يسير بمحاذاتها حتى لا يضل طريقه مرة أخرى ، وسار دون أن يدري إلى أين تقوده القناة ؟ وإذا بأعواد القصب تفرقع من خلفه فجأة ، فارتعد وأمسك ببندقته ، ولم يلبث أن غمره شعور بالخزي ، فقد كان الكلب يلهث بشدة ، وقد ثارت مشاعره جميعاً ثم ألقي بنفسه في الماء البارد وأخذ يلعبه . وشرب أولينين أيضاً ثم سار في أعقاب الكلب في الاتجاه الذي اختاره لنفسه ظناً منه أنه يقوده إلى القرية ، ولكنه أحس بالرغم من صحبة الكلب أن كل شيء حوله ينذر بالشر ، فقد كانت القرية تزداد ظلمة ، والريح تزداد عتواً في قم الأشجار العتيقة المتكسرة ، وكانت الطيور الكبيرة تحوم حول أعشاشها في تلك الأشجار صاخطة صارخة ، وقل الزرع ، وتكاثر من أمامه أعواد القصب المخففة وسائط الأرض الرملية المحملة بغطيتها آثار الحيوانات البرية ، واقترب عويل الرياح وزجاجة رتيبة مملولة تبعث الكآبة في النفس ، وبدأ يطفى عليه شعور بالغم شديد ، ووضع يده خلف ظهره يتحسس دراريحه ، فوجدها تنقص واحداً .

انفلت من حزامه وضاع ولم يبق إلا عنقه ورأسه الداميان عالقين بحزامه ، وغمره شعور قوى بالفرح لم يكاده قط في حياته ، فراح يصلى لله ، وكان أخشى ما يخشاه أن يقضى دون أن تقدم يده شيئاً من الخير أو البر ، واستبدت به الرغبة في الحياة ، الحياة في سبيل مائة عظيمة يبذل فيها نفسه .

افضل الكادى والعشرون

وأحسن فجأة كأن الشمس قد أضاءت ظلمات نفسه ، وطرق أذنه حديث باللغة الروسية ، وسمع صوت جريان نهر ترك فى سرعة ويسر ، ورأى على بعد خطوات منه صفحة النهر الداكنة المتحركة ورمال ضفتيه وبطاحه الندية العسجدية ، والفيافي البعيدة ، وبرج المراقبة فى النطاق وقد برزت معالمه فوق صفحة الماء ، وجوذاً مسرجاً مقيداً بشكال بين العوسج ، ثم الجبال ممتدة أمامه ، وبدا قرص الشمس الأحمر لحظة من خلال سحابة ، وقد تألقت أشعتها الأخيرة على طول النهر ، وفوق أعواد القصب وعلى برج المراقبة وعلى زمرة من القوزاق ، واسترعى انتباهه قوام لوكاشكا القوى الفقى .

وشعر أولينين مرة أخرى بفيض من السعادة الكاملة يغمره دون أن يجد لذلك سبباً ظاهراً ، وكان قد بلغ نقطة حراسة « نزنه - بروتوسكى » على نهر ترك أمام قرية هادئة على الضفة الأخرى من النهر ، وأقرب أولينين من القوزاق ، ولكنه لم يجد بعد مبرراً يدعو به إلى تقديم شيء من الخير لأى إنسان ، فدخل الكوخ ، على أن

هذه الفرصة لم تنبأ له أيضاً فيه ، واستقبله القوزاق في برود ، وما إن دخل الكوخ المشيد باللبن حتى أشعل لفافة تبغ ، ولم يعره القوزاق من الالتفات إلا قليلاً ، لأنه كان يدخن لفافة تبغ ، فضلاً عن أنهم كانوا مشغولين بشيء آخر في تلك الليلة : فقد جاء بعض الأعداء الجبن من أقارب الرجل الأبركي الذي قتل ، إذ هبطوا من الجبال ومعهم كشاف يفتدون قريبهم الذي لقي مصرعه ، وكان القوزاق ينتظرون قدوم قائدهم من القرية ، وكان أخو القاتل رجلاً طويل القامة بديع التكوين له لحية صغيرة صبغها باللون الأحمر ، وكان بالرغم من سترته وقبعته المهلهلتين رابطط الجأش مهيباً كأنه ملك ، وكان وجهه شديد الشبه بوجه الأبركي القاتل ، ولم يتنزل بالنظر إلى أحد ، بل لم يلق نظرة واحدة على الجثة ، ولكنه جلس القرفصاء في الظل ، وأخذ يبصق وهو يدخن غلبونه الصغير

وكان من حين إلى حين يلقى ببعض الأوامر في صوت أجش فيطيعها زميله في احترام ، وكان من الجلي أنه رجل زغبي لقي الروس من قبل أكثر من مرة في ظروف متباينة أشد التباين ، فلم يعد فيهم ما يثير دهشته أو اهتمامه ، وتوجه أوليتين إلى الجثة وكان يرمقها بعينه عندما قال أخو القاتل شيئاً في حدة وغضب ناظراً إلى ما وراء أوليتين في هدوء واحتقار ، وأسرع الكشاف فغطى وجه القاتل بسترته ، وأخذ أوليتين بملامح وجه الزغبي المهية الصارمة ، وراح يتحدث إليه ويسأله من أي قرية هو ؟ ولكن الجبني أهمل النظر إليه أو كاد ، بل بصق في احتقار وأولاه ظهره !

وتملك أوليتين العجب الشديد من أن الجبني لا يهتم لأمره ، ولم يجد عذراً يبرر به مسلك الرجل إلا غباءه أو جهله بالروسية ، فالتفت إلى الكشاف الذي كان يؤدي أيضاً مهمة المترجم ، وكان الكشاف مهلهل الثياب كصاحبه إلا أنه لم يك

أحمر الشعر بل أسوده ، متمملاً متبرماً ، ذا أسنان لامعة ناصعة البياض ، وعينين سوداوين مثألفتين ، واشترك الكشاف في الحديث عن طيب خاطر وطلب منه لفاقة تبغ ، وأنشأ يقول في روسيته الركبكة :

« كانوا خمسة إخوة ، وهذا هو ثالث من قتله الروس ، ولم يبق منهم إلا اثنان » ، ثم قال مشيراً إلى الحجني : « إنه زغبى ، زغبى عظيم ! لقد كان هذا القتل ، هذا الرجل المسحى جالساً على الضفة المقابلة بين أعواد القصب عندما لقي أحمد خان مصرعه على أيديهم ، ورأى كل ما حدث ، رآهم يلقون به في القارب ويأتون به إلى شاطئ النهر ، وقد لزم الرجل مكانه من ضفة النهر حتى جن الليل ، وكان يريد قتل الشيخ إلا أن الآخرين حالوا بينه وبين ما يريد » .

وشخص لوكاشكا إلى المتحدث ثم جلس

وسأله : « من أى قرية أنت ؟ »

وأجاب الكشاف وهو يشير إلى ممر جبلين فيما وراء نهر ترك خيم عليه الضباب الضارب إلى الزرقة : « إننى من قرية تقوم هناك بين الجبال ، أتعرف سويوق صو؟ إنها على مسيرة ثمانية أميال أو نحوها وراء ذلك الممر »

وسأله لوكاشكا فى لهجة نمت عن زهوه بمعرفة الرجل : « أتعرف كراى خان من

سويوق صو؟ إنه صديق الحميم »

وأجابه الكشاف : « إنه جارى »

« إنه لرجل عظيم ! » ويبدو أن الاهتمام قد بلغ بلوكاشكا مبلغه فأخذ يحادث

الكشاف بالتتريّة .

وسرعان ما أقبل ضابط قوزاق برتبة الملازم الأول على صهوة جواده تصحبه

حاشية من رجلين من القوزاق وكان هذا الضابط كبير القرية ، وحيا الضابط ،

الحديث العهد بخدمة الجيش القوزاق ، قائلاً : « نعمتم بالعافية » ولكن أحداً لم يرد التحية على ما هو مألوف في الجيش الروسى بعبارة « وأنتم يا صاحب السعادة » وإن كان بعضهم قد أجاب على تحيته بخى رءوسهم ونهض بعضهم ومنهم لوكاشكا ووقفوا وقفة انتباه ، وأجاب الأومباشى : إن كل شىء على مايرام فى نقطة الحراسة ، وقد بدا كل هذا مضحكاً فى نظر أوليين حتى لكأن هؤلاء القوزاق إنما يلعبون لعبة الجنود !

على أنه سرعان ما حلت أساليب السلوك المألوفة محل هذه الإجراءات الرسمية ، وشرع الضابط ، وكان قوزاقياً مندفعاً شأنه فى ذلك شأن إخوانه ، يحدث المترجم بالثرية فى طلاقة ، وكتبوا وثيقة سلموها إلى الكشاف وتلقوا منه شيئاً من المال ، ثم اقتربوا من الجنة .

وسأل الضابط « من منكم لوكا جافريلوف ؟ »

وخلع لوكاشكا قبعته وتقدم منه

لقد أبلغت القائد صنيعة ، ولا أعلم ما قد يسفر عنه هذا ، وأوصيت لك بوسام ، إنك لأصغر من أن ترقى إلى رتبة الأومباشى ، أوتعرف القراءة ؟ - كلا ، لا أعرفها .

وقال الضابط وقد عاد يلبس لبوس القائد : « إنك لتبدو للعين فتى وأى فتى ، ضع قبعتك على رأسك ، من أى فرع من آل جافريلوف تنتسب ؟ أمن فرع « العريض ؟ »

وأجاب الأومباشى : « بل هو ابن أخيه »

وقال وهو يلتفت إلى القوزاق : « أعرف هذا ، أعرف هذا ، هلموا مدوا إلى إخوانكم يداً ! »

وطفع البشر على وجه لوكاشكا وبدأ أكثر وسامة مما كان ، وابتعد عن الأومباشي ثم وضع قبعته على رأسه ، وجلس بجوار أولينين .
 وأنزلت الجنة إلى القارب ، وهبط أخو الجبني القليل إلى الشاطئ . وأفسح له القوزاق الطريق على غير وعى منهم . وقفز الجبني إلى القارب ، وابتعد عن الشاطئ بركلة قوية من ساقه ، ثم ألقى للمرة الأولى على مابدا لأولينين نظرة سريعة على القوزاق ، ثم سأل زميله فجأة سؤالاً ، فأجابه صاحبه إجابة ما ، ثم أشار إلى لوكاشكا ، فنظر الجبني ، ثم أشاح عنه في بطله وحدق في الضفة المقابلة ولم تك النظرة تم عن الحقد ، بل عن احتقار الرجل الذي لا يبالي ، ثم فاه بملاحظة أخرى .

وسأل أولينين الكشاف القزم « ماذا يقول ؟ »

فأجاب الكشاف : « أنتم تقتلون منا ، ونحن نقتل منكم ، وهكذا دواليك ! » ، وكان من الحلي أنه أجاب هذه الإجابة بعد تدبر وروية ، وافتترعه عن ابتسامة كشفت عن أسنانه البيض اللامعة وهو يقفز إلى القارب .
 وجلس أخو القليل بلا حراك محققاً النظر في الضفة المقابلة ، وبلغ من حقه وازدراؤه أنه لم يجد شيئاً على هذه الضفة من النهر يثير فضوله ، وكان الكشاف يقف في طرف من القارب يضرب الماء بمجدافه في هذه الناحية تارة وفي تلك تارة أخرى ، ويدبر القارب بمهارة ولا يكف عن الحديث لحظة ، وأخذ القارب يصغر ثم يصغر منحرفاً عبر النهر ، وغاب صوت الرجلين عن الأسماع أو كاد ، ونزلاً آخر الأمر على الضفة الأخرى وهما لا يزالان ياديين للأنظار حيث كان جوادهما في انتظارهما ، وهناك حملاً الجنة من القارب ووضعها بعرض أحد السرجين . (وإن كان الجواد قد جفل لذلك) وركبا جواديهما وسارا خبياً يشقان طريقاً مرّاً فيه بقربة

خرج منها جماعة من الناس يتطلعون إليها .

أما القوزاق على الضفة الأخرى للنهر فقد كانوا في غاية السرور والمرح ترن ضحكاتهم في كل جانب ، ودخل الضابط هو وشيخ القرية الكوخ المشيد باللبن لبروحا عن نفسيهما ، وحاول لوكاشكا عبثاً أن يضفي سيماء الرصانة والوقار على وجهه الضاحك وهو جالس ومرفقاه على جانبيه إلى جوار أولينين يقشط عصاً كانت بين يديه .

وقال في فضول مصطنع : « لماذا تدخن ؟ أوترى في التدخين متعة ؟ »
وكان من الجلي أن السبب الوحيد الذي دعاه إلى الحديث هو مالا حظه من أن أولينين كان يشعر بالحرج والعزلة بين القوزاق .

فأجاب أولينين : « ليس التدخين إلا عادة فلم تسأل ؟ »

لوأن واحداً منا دخن لوقع في المتاعب ، ثم مضى لوكاشكا يقول :
« انظر هناك ، إن الجبال ليست بعيدة عنا ، ولكنك لا تستطيع الوصول إليها ، فكيف تعود وحدك ؟ لقد بدأ الليل يسدل أستاره ، وسأصحبك إن شئت ، ولكن عليك أن تستأذن الأومباشي »

ونظر أولينين إلى وجه القوزاق المرح وحدث نفسه قائلاً : « ياله من فني ! » .
وتذكر ماريانكا والقبلة التي كان قد سمعها بجوار الباب ، ورثى لحال لوكاشكا وافتقاره إلى الثقافة ، وهتف في قرارة نفسه « يالها من فوضى ! رجل يقتل آخر ، ويشعر بالسعادة والرضا كأنه أقي عملاً عظيماً ! ألا يوجد من ينبهه إلى أنه ما من سبب يدعو إلى الفرح ، والابتهاج ، وأن السعادة ليست في القتل ، بل في التضحية بالنفس ؟ »

وقال رجل من القوزاق كان قد شيع القارب الذاهب موجهاً الحديث إلى

لوكاشكا : « خير لك ألا تلتقي أنت وهو مرة أخرى يا صديق ! ألم تسمعه يسأل عنك ؟ »

ورفع لوكاشكا رأسه وقال « ابني في العباد ؟ » ، وهو يقصد بهذه العبارة الجبني القتل .

إن ابنك في العباد لن يعود إلى الحياة مرة أخرى ، ولكن الأحمر هو أخو ابنك في العباد !

فأجاب لوكاشكا « فليحمد الله على أنه قد نجا بنفسه دون أن يمسه ضر ! »
وسأله أوليين : « فم سرورك ؟ هب أن القتل أخوك ، أكان ذلك يسرك ؟ »
ونظر القوزاق إلى أوليين بعينين ضاحكتين . ويبدو أنه أدرك كل ما كان يريد أن يقوله له ، ولكنه كان يعتقد أنه فوق هذه الاعتبارات .

حسن ، إن هذا يحدث أيضاً ، ألا ترى أن بعض رجالنا يقتلون أحيانا ؟

افضل الثاني والعشرون

ورحل الضابط وشيخ القرية على متن جواديها ، وطلب أوليين من الأومباشي أن يأذن للوكاشكا بإجازة ، وهو قد فعل ذلك رغبة منه في إرضاء لوكاشكا وتفادياً من أن يحتاج وحده الغابة المظلمة ، فأذن له الأومباشي ، وظن أوليين أن لوكاشكا إنما كان يريد أن يلقى ماريانكا ، وسره أيضاً أن يصحب هذا القوزاق الأنيس البشوش ، وقد جمع في مخيلته بين لوكاشكا وماريانكا على غير وعى منه ، ووجد في التفكير فيها متعة ، ثم حدث نفسه قائلاً : « إنه يجب ماريانكا ، ولو كنت منه لأحببتها أيضاً » ، وطمع عليه شعور جديد قوى بالحنان وهما يسيران صوب ديارهما محترقين الغابة المظلمة ، وأحس لوكاشكا أيضاً بفيض من السعادة يغمره ، ووصل بين قلبي هذين الشابين اللذين يختلف كل منهما وصاحبه تمام الاختلاف - شيء أقرب ما يكون إلى الحب ، وكانا في كل مرة يتبادلان فيها النظرات يشعران برغبة في الضحك .

وسأل أوليين : « من أى الأبواب تدخل ؟ »

من الأبواب الوسطى ، ولكنى سأصحبك حتى المستنقع ، وليس أمامك
ما تحشاء بعد ذلك »

ضحك أوليين

أتظن أنني خائف ؟ عد أدراجك ، وشكراً جزيلاً لك ، فإنى أستطيع أن
أمضى في الطريق وحدي

وقال لوكاشكا إرضاء لكبرياء أوليين : « لا عليك وما الذى أستطيع أنا أن
أفعله ؟ وما حيلتك في الخوف ؟ حتى نحن يملكنا الخوف ! » ثم ضحك هو أيضاً .
إذن تعال معي إلى منزلي ، ستجاذب أطراف الحديث ونشرب كأساً ،
ويمكنك أن تعود في الغد

ضحك لوكاشكا قائلاً : أتظن أنني لا أستطيع أن أجد مكاناً أفضى فيه
ليلتي ؟ ولكن الأومباشي طلب مني أن أعود «
« سمعتك تعني الليلة الماضية ، ورأيتك أيضاً »
حسن . . . وهز لوكاشكا رأسه

وسأله أوليين : « أصبح أنك على وشك الزواج ؟ »
أمي تود أن أتزوج ، ولكنى لم أحصل بعد على جواد .
ألست في الخدمة العاملة ؟

كلا ، وما تزال الشقة بيني وبينها بعيدة ، فقد التحقت بالجيش لتوى ، ولم
أحصل بعد على جواد ، ولا أستطيع الحصول عليه ، ولذلك فإن الزواج لا يتم .
وكم يكلف الجواد ؟

كنا نساوم على جواد في الناحية الأخرى من النهر ذلك اليوم ، ورفض القوم أن
يبيعوه بستين روبلاً من الفضة مع أنه لم يك إلا جواداً نوغائياً ، وقال أوليين فجأة :

هل لك أن تكون « مراسلتي » ؟ (والمراسلة جندى يلتحق بخدمة ضابط في أثناء الحملات) « سأدير لك الأمر وأعطيك جواداً ، فإن عندى فى الحق جوادين ، ولست فى حاجة إليهما جميعاً »

وضحك لوكاشكا وهو يردد قول أوليين : « لست فى حاجة إليهما جميعاً ، ولم تمنحنا هدية ؟ سندبر أمرنا بأنفسنا بمعونة الله »

وقال أوليين : « لا تقل هذا ! أترك لا تريد أن تكون مراسلتي ؟ » . قال أوليين ذلك وقد سره أن طرأت له فكرة إعطاء لوكاشكا جواداً ، وإن كان قد شعر بالضيق والحرج ، دون أن يدري لذلك سبباً ، ولم يدرك ماذا يقول عندما حاول أن يتكلم ؟ .

وكان لوكاشكا أول من قطع حبل السكوت الذى ساد بينهما فسأل : « أتملك منزلاً فى روسيا ؟ »

ولم يستطع أوليين أن ينكر فى جوابه أنه يملك عدة منازل لا منزلاً واحداً .

وسأله لوكاشكا فى براءة : « هل هو منزل كبير ، أكبر من منزلنا ؟ »

فأجاب أوليين : « أكبر بكثير ، إنه عشرة أضعاف منزلكم ، ثم هو من ثلاث طبقات »

وهل عندك جواد كجوادنا ؟

عندى مائة جواد ، يساوى كل منها ثلثائة روبل أو أربعائة ، ولكنها ليست كجوادكم . ثلثائة روبل فضى ! إنها جواد سريعة العدو ، ومع ذلك فإننى أفضل عليها الجواد التى رأيتها هنا

وقال لوكاشكا ، وقد بدا أنه لا يزال يضحك : « حسن وهل جئت إلى هنا بمحض اختيارك أو حملت على الهجى ؟ » . وأردف يشير إلى طريق كانا يمران به

« انظر ، لقد ضللت الطريق في هذا الموضع ، وكان يجب عليك أن تعطف إلى اليمين »

فأجاب أوليين : « لقد جئت بمحض اختياري ، كنت أود مشاهدة نواحيكم وأن اشترك في حملة »

فقال لوكاشكا : « إني لأود أن أشارك في حملة يوماً ما » . وأردف وهو يرهف السمع « أسمع أبناء آوى تعوى ؟ » .

وسأل أوليين : « قل لي ، ألا تشعر بشيء من الفزع إذا قتلت إنساناً ؟ وما الذي يدعو إلى الفزع في ذلك ؟ . وكرر لوكاشكا قوله : ولكن بودى أن أشارك في حملة ، بودى ذلك !

ربما ذهبنا معاً ، فإن سريتنا سترحل قبل حلول العيد ، وكذلك سريتك ذات مائة الرجل .

وما الذي حملك على الهجاء إلى هنا ؟ إنك تملك منزلاً وحياداً وعبيداً ولو كنت في مكانك ما فعلت شيئاً إلا أن ألهو وأطرب ! مارتبتك ؟

إنني من طلبة الكلية الحربية ، ولكنهم أوصوا بترقيتي إلى رتبة ضابط هذا جميل إلا إذا كنت تفاخر بمنزلك ، ولو كنت مكانك ما تركته ، أجل فأني ما كنت لأرحل أبداً إلى أي مكان ، أو تروق لك الإقامة بيننا ؟ »

فأجاب أوليين : « أجل ، تروق لي »

وكان الليل قد ادلم قبل أن يقترب الرجلان من القرية وهما يتحدثان على هذا النحو ، وكانت حنكة الغابة الشديدة لا تزال تلفها في رداها الكتيب ، والرياح تن في هم الأشجار ، وقد لاح فجأة أن أبناء آوى كانت تصرخ من خلفها تماماً مولولة تقهقه متعجة . ولكنها كانا قد بدأ يسمعان أصوات النساء ونباح الكلاب

تنساب من القرية أمامها ، وبرزت لعينها معالم الأكواخ ، وكانت الأضواء تتألق ، وامتلاً الجو بثلث الرائحة الخاصة المعهودة في دخان الكازياك ، وانتاب أولنين وبخاصة في تلك الليلة - شعوراً بأن في هذه القرية موطنه وأسرته ، بل سعادته جميعاً ، وأنه لم يذق من قبل طعم السعادة ولن يذوقه أبداً في أى مكان كما ذاقه في هذه القرية القوزاقية ، وبلغ شغفه بكل إنسان - وخاصة لوكاشكا - مداه في تلك الليلة ، ووصل الرجلان إلى الدار ، وما كان أشد دهشة لوكاشكا عندما أخرج أولنين من الحظيرة جواداً كان قد اشتراه من جروزنايا وقاده بيديه . ولم يك هذا الجواد هو الجواد الذى ألف أن يركبه ، بل كان جواداً آخر لا بأس به وإن كانت السن قد تقدمت به وأعطي لوكاشكا إياه .

وقال لوكاشكا : « لماذا تهدي إلى هدية ؟ إننى لم أؤد لك شيئاً بعد ! » . فأجاب أولنين : « إنها هدية لا تذكر ، خذها فلسوف ترد لي الهدية يوماً . وسنخرج في حملة على العدو معاً » . وتملكت الحيرة لوكاشكا .

وقال دون أن ينظر إلى الجواد : « ولكن ماذا تعنى بهذه الهدية ، وإنك لتعلم أن الجواد باهظ الثمن ؟ » .

خذ ، خذه ، فإن لم تفعل أسأت إلى ، فانيوشا ! خذ الجواد الأشهب إلى منزله .

فأمسك لوكاشكا برسن الجواد .

-شكراً لك إذن ! ولا أنكر أن هذا أمر لم أكن أتوقعه .

وكان أولنين سعيداً سعادة غلام في الثانية عشرة من عمره .

-- اربطه هنا ، إنه جواد أصيل وقد اشتريته من جروزنايا ، وهو يجيد العدو !

إلينا بشيء من الحكير يا فانيوشا . تعال بنا ندخل الكوخ .
وجاء فانيوشا بالخمر ، وجلس لوكاشكا وأخذ طاس الخمر بين يديه ،
وقال وهو يأتي على الطاس : « سأجد بعون الله وسيلة أرد بها دينك ما اسمك »
- ديمتري أندرييفتش

- بارك الله فيك يا ديمتري أندرييفتش ، سنكون صديقين حميمين ، والآن
حققت عليك زيارتنا . صحيح أننا ربما لا نكون من الأثرياء ، ولكننا نعرف كيف
نقوم بالواجب علينا لصديق حميم ، وسأخبر أُمِّي بالأمر ؛ لعلك تحتاج إلى شيء من
القشدة المخمرة أو العنب ، وإذا جئت إلى النطاق سرفي أن أصحبك إلى القنص
أو أجتاز معك النهر أو أرافقك إلى أي مكان شئت ! إني أذكر الآن ذلك الحزير
البري الكبير الذي أصبته منذ أيام فحسب وتقاسمته أنا والقوزاق ، ولو قد عرفت
ما انطوت عليه جوارحك لأعطيتك إياه .

- لا عليك ! وشكراً لك ، إن ثمة أمراً آخر أريد أن أفصح لك عنه إن
شئت ، ثم أردف لوكاشكا خافضاً صوته : « لي صديق حميم اسمه كراي خان وقد
طلب مني أن أكنم أنا وهو بجانب الطريق حيث يهبط القوم من الجبل ، أفلا
نذهب معاً ؟ لن أخونك ، بل سأكون مريداً لك » .

- أجل ، سنذهب معاً ، سنذهب في يوم من الأيام .
ويظهر أن لوكاشكا استعداد هدوءه تماماً ، وأدرك موقف أوليين منه ، وعجب
أولين لما بدا من هدوئه وانطلاقه على سجيته . بل أحس بأن في ذلك شيئاً
لا يرضيه كل الرضا . وتحدث الرفيقان طويلاً . وكان الوقت متأخراً عندما صافح
لوكاشكا أوليين وتركه ، ولم يكن الفتي ثملاً (ذلك أن الخمر لم تتل منه قط) ،
وإنما كان قد عبّ من الخمر عباً حتى امتلأ بها جوفه ، وأطل أوليين من النافذة ؛

ليرى ما عساه أن يصنع ، وخرج لوكاشكا متمهلاً وقد خفض رأسه ، ثم قاد الجواد إلى خارج الباب ، وهز رأسه فجأة ، وقفز على ظهره كأنه القط ، وجمع أذنة الرسن بين يديه وصرخ صرخة ثم ركض ومضى في الطريق .

وكان أوليين قد توقع أن لوكاشكا سيمضى إلى ماريانكا يقاسمها أفراحه ، على أن لوكاشكا لم يمض إليها ، ومع ذلك فقد طابت نفس أوليين كما لم تطب من قبل قط ، واستخفه الفرح كأنه غلام حدث ، ولم يستطع أن يكتم عن فانيوشا أنه أعطى لوكاشكا الجواد ، بل صارحه بالسبب الذى دعاه إلى ذلك ، كما صارحه بمذهبه الجديد فى السعادة .

ولم يوافق فانيوشا على هذا المذهب ، بل هتف بالفرنسية : « إن الوفاض قد خلا من النقود ! » ، ولذلك كان ذلك كله هراء فى هراء ! » .

وعاد لوكاشكا إلى داره وقفز مترجلاً عن جواده ، وسلمه إلى أمه وطلب منها أن تطلقه يرعى مع القطيع القوزاق العام . ذلك أن الواجب كان يقتضيه أن يعود إلى النطاق فى تلك الليلة نفسها ، وتعهدت أخته البكاء بأن تعنى بالجواد ، وأشارت بيديها إشارات تدل على أنها لورأت الرجل الذى وهب له الجواد لجثت تحت قدميه ! واكتفت العجوز بهز رأسها عندما سمعت قصة ابنها ، وقالت فيما بينها وبين نفسها : إن ابنها قد سرق الجواد . ولذلك قالت لابنتها الصماء : أن تأخذه إلى حيث يرعى القطيع قبل ابتلاج الصبح .

وعاد لوكاشكا وحده إلى النطاق ، وهو يتأمل فى صنع أوليين ، ولم يكن الجواد فى رأيه أصيلاً ، إلا أنه كان يساوى أربعين روبلاً على الأقل ، وقد سرتة هذه الهدية ، على أنه لم يدرك السبب الذى حدا بأولين إلى أن يهب له الجواد ، ولذلك لم يخالجه أى شعور بالشكر أو العرفان بالجميل ، بل أحسن على العكس من

ذلك ، بوساوس امتلأت بها نفسه : فقد خشى أن يكون لطالب الحرية مآرب أخرى خبيثة ، وعجز لوكاشكا عن أن يتبين كنه هذه المآرب ، أو يعلل السبب الذى حمل رجلاً غريباً عنه أن يهب له جواداً يساوى أربعين روبلاً من غير مقابل إلا العطف والبر !

كان الأمر يبدو فى نظره مستحيلاً ، ولو أنه كان ثملاً لحاز ذلك ! من بدرى ؟ ربما أراد أن يتظاهر بالكرم ، إلا أن طالب الحرية لم يك ثملاً . فلاشك إذن أنه أراد أن يرشوه لىأتى أمراً إذا . وحدث لوكاشكا نفسه : « ياله من خداع ! أجل لقد حصلت على الجواد وسرى بعد ذلك ما يكون . » ثم استرسل فى تفكيره : « لست بالغر الساذج ، وسرى لمن تكون الغلبة ؟ » ، وأحسن لوكاشكا وهو يقلب الأمر على هذا النحو أن الحيلة واجبة ، وتغير لذلك قلبه نحو أوليين ، ولم يقل لأحد من الناس كيف حصل على الجواد ؟ وقال لبعضهم : إنه اشتراه وراوغ آخرين فلم يحبهم إجابته صريحة .

على أن الحقيقة سرعان ما انكشفت وذاع الأمر فى القرية . وتملكت الحيرة أم لوكاشكا وما ريانكا ، كما تملك إيليا فاسيليفتش وغيره من القوزاق عندما علموا بأمر الهدية التى أهداها أوليين للوكاشكا من غير سبب ، وبدعوا يلزمون جانب الحذر حيال طالب الحرية ، إلا أن أفعاله أثارت فيهم بالرغم من هذه المخاوف الاحترام الكبير لما بدا من طبيته وثرائه .

وقال أحدهم : « هل سمعت أن طالب الحرية الذى يقيم عند إيليا فاسيليفتش قد نفع لوكاشكا جواداً يساوى خمسين روبلاً ؟ لا شك أنه غنى ! » وأجاب ثان فى عبارة وجيزة مفيدة : « أجل ، لقد سمعت بهذا ، ولا شك أنه

أدى له خدمة عظيمة ، وسرى ما يكون من أمره ، إيه ! إن حظ ذلك «المنتشل»
لعظيم» !

وقال ثالث : « إن طلبة الحرية هؤلاء قوم يتسمون بالمكر والدهاء ، وسترون أنه
سيشعل النار يوماً في منزل أويرتكب شيئاً من هذا القبيل ! »

الفصل الثالث والعشرون

وسارت حياة أوليين في نظام رتيب يبعث في النفس الملالة والسأم ، وكان اتصاله بالرؤساء من الضباط أوبرفاقه قليلاً ، وكان مركز طالب الحرية الغنى في القوقاز ممتازاً بوجه خاص من هذه الناحية ، فلم يك يخرج لعمل أو لتدريب ، ولقد أوصوا بترقيته إلى رتبة ضابط مكافأة له على اشتراكه في الحملة ، وتركوه وشأنه إلى أن تم ترقيته ، وكان الضباط ينظرون إليه نظرهم إلى رجل من علية القوم ، ويعاملونه باحترام ، أما هو فلم يك يستهويه لعب الورق أو ولانم اللهو والقصف التي كان يقيمها الضباط ويتخللها غناء الجنود ، كان قد خبر هذه الولاثم عندما كان في الفصيلة ، ولذلك كان أوليين أيضاً يتحاشى الاجتماع بالضباط ومشاركتهم في حياتهم بالقرية .

وكانت حياة الضباط الذين يعسكرون في قرية قوزاقية قد انطبعت منذ زمن بعيد بطابعها الخاص ، وكما أن طالباً حربياً أو ضابطاً قد جرى على أن يشرب الجعة بانتظام عندما يكون في حصن ، ويلعب الورق ويتحدث في المكافآت التي تمنح

نظير الاشتراك في الحملات ، كذلك كان غيره في القرى القوزاقية يشرب الجكير بانتظام مع ضيوفه ، ويقدم الحلوى والشهد إلى الفتيات ، أو يتسكع خلف القوزاقيات ، ويقع في شرك حبهن ، وكثيراً ما يتزوج منهن ، أما أوليين فقد كان يلتزم دائماً نهجه الخاص ، ويأنف بطبيعته من انتهاج المسلك الشائع المعروف ، وهكذا كان شأنه أيضاً في هذه القرية فإنه لم يهبط إلى صخب الحياة التي كان يحياها ضباط الجيش القوزاق

وأصبح من أيسر الأمور لديه أن يستيقظ في الفجر ، ويشرب الشاي وينظر من مدخل كوخه نظرة إعجاب بالجبال والصحح وماريانكا . ثم يرتدى ستره مهلهلة من جلد الثور ونعلأ من الجلد الغفل الندي ، ويتمنطق بمدة وشعمل بندقيته وبعض لفافات من التبغ وشيئاً من الطعام في كيس صغير . وينادى كلبه ، وما إن تجاوز الساعة الخامسة بقليل حتى يكون قد شرع في الخروج إلى الغابة فيما وراء القرية ، ويعود في الساعة السابعة مساءً أو نحوها جائعاً منهوك القوى تتدلى من حزامه خمسة دراريح أو ستة (أو يعود بجيوان آخر أحياناً) ، من غير أن يمس كيسه الذي احتوى الطعام ولفافات التبغ ، ويستطيع المرء أن يدرك أن الأفكار التي في رأسه قد بقيت ساكنة سكون لفافات التبغ في الكيس متى علم أنه ما من فكرة واحدة قد تحركت في رأسه طوال تلك الساعات الأربع عشرة .

وكان يعود وقد تجددت روحه المعنوية وقويت وغمره شعور بالسعادة الكاملة ، ولم يكن يستطيع أن يقول فيم كان يفكر طوال هذا الوقت ؟ ترى أكان ذلك الذي يترأى له أفكاراً أم ذكريات أم أحلاماً ؟ الحق أن ذلك كله كان يراوده في غالب الأحيان ، وكان يوقظ نفسه ويتساءل عما كان يفكر فيه ، فبرى نفسه رجلاً قوزاقياً يعمل في كرمه مع زوجته القوزاقية أو أحد الأبركة في الجبال أو خنزيراً برياً يهرب من

نفسه ، وكان طوال هذا الوقت يحدق النظر ويتربص بظهور دراج أو خنزير برى أو أيل .

ولم تك تمر أمسية من الأمسيات إلا يحالسه العم يروشكا وكان فانيوشا يأق لها بإبريق من الجكير ، فيتجاذبان أطراف الحديث في هدوء ، ويشربان ، ثم يفترقان ويمضى كل منهما إلى فراشه ناعم البال راضى النفس ، وفي اليوم التالى يذهب أوليين إلى القنص مرة أخرى ، ويعود منه وهو متعب ، ولكن في صحة وعافية ، ويجلسان جلستهما من جديد يتحدثان ويشربان كفايتهما ، وينعمان بالسعادة كما نعا بها من قبل ، وكان أوليين يقضى أحياناً سحابة يومه في منزله إذا كان اليوم يوم راحة أو عطلة منصرفاً إلى مراقبة ماريانكا ، وكان يتابع على غير وعى منه كل حركة من حركاتها من نافذته أو مدخل كوخه متابعاً النهم الظمآن ! وكان يضمر لها الاحترام ويحبها (أو هكذا خيل إليه) حبه لروعة الجبال والسماء سواء بسواء . ولم يفكر قط في أن يرتبط معها بعلاقة ما . وبدأ له أنه لا يمكن أن تقوم بينها وبينه علاقة كالتى قامت بينها وبين لوكاشكا القوزاقى ، وناهيك بالعلاقة التى كثيراً ما كانت تقوم بين الضباط الأثرياء والفتيات القوزاقيات الأخريات .

ودار بخلده أنه لو حاول أن يفعل ما يفعله زملاؤه الضباط لترك استمتاعه الكامل بالتأمل ووقع في لجة من العذاب وخيبة الرجاء والندم . زد على ذلك أنه كان قد أحرز نجاحاً بإنكاره لذاته حيالها إنكاراً فاضت له نفسه بالسرور ، على أنه كان فوق هذا كله يخشى ماريانكا بوجه من الوجوه ، ولا يغيره شىء أبداً بأن يلقى على مسامعها في خفة وطيش كلمة من كلمات الحب . ودخل على أوليين على غير انتظار في يوم من أيام الصيف ، وكان قد لزم داره ولم يخرج للقنص في ذلك اليوم - شابٌ في مقتبل العمر من معارفه في موسكو ،

كان قد قابله في مجتمع من المجتمعات الراقية .

وأخذ يقول له في لغته المسكوفية التي خالطتها الفرنسية : « آه يا عزيزي ، يا صديقي العزيز ! لشد ما سرفى إذ علمت بوجودك هنا ! » واسترسل وهو يمزج ملاحظاته بالكلمات الفرنسية : « قالوا أوليين ! أى أوليين هذا ؟ ثم غمرنى فيض من السرور . . فانظر كيف يجمع القدر بيننا هنا ! والآن كيف حالك ؟ كيف ؟ ولماذا ؟ » . وروى له الأمير بيليسكى قصته كلها ، روى كيف التحق بالكتيبة مؤقتاً ، وكيف عرض عليه القائد العام أن يجعله أركاناً لحربه ؟ وكيف أنه سيتسلم أعباء وظيفته بعد الحملة ، وإن كان شخصياً لا يكثر بها البتة .

وقال بيليسكى : « إن الإقامة هنا في هذه الحفرة تقتضى من المرء على الأقل أن يحقق لنفسه مستقبلاً ، كأن يحصل على وسام أو رتبة ، أو ينقل إلى الحرس ، وهذا أمر لا غنى عنه لا لشخص بطبيعة الحال ، بل من أجل أقاربى وأصدقائى . لقد استقبلنى الأمير استقبالا حسناً جداً ، وإنه لرجل بلغ النهاية في دماثة الخلق » ، واسترسل يقول وهو لا يكف عن الحديث : « لقد أوصوا بمنحى وسام سانت أنا مكافأة لى على الحملة . ولذلك سأتبى هنا قليلاً حتى نشرع فيها ، إن الإقامة هنا لمتعة ، وى من النساء هنا ! ولكن كيف تسير أمورك ؟ لقد أخبرنى رئيسنا اليوزباشى ستارتسيف ، وهو كما تعلم مخلوق غنى طيب القلب . . قال لى : إنك تعيش كالمجمعى المتوحش لا تلقى أحداً ! وإنى لأدرك كل الإدراك السبب الذى يدعوك إلى عدم الاختلاط بذلك الطراز من الضباط الذين يقيمون هنا ، ويسرفى غاية السرور الآن أننا سوف نلتقى من حين إلى حين ، وقد نزلت فى منزل الأومباشى ، وهناك فتاة رائعة اسمها أوستنكا ! ولا أنكر عليك أنها جذابة تهفو لها القلوب »

وأخذت تندفق من فم بيليتسكى الكلمات الفرنسية والروسية وهو يتحدث عن ذلك العالم الذى ظن أوليين أنه قد تركه إلى الأبد .

وكان الاعتقاد السائد عن بيليتسكى أنه شاب دمث الخلق ، ولعل ذلك كان شأنه حقاً ، إلا أن أوليين كان يراه سمجاً كل السماجة بالرغم من وجهه السمج الوسم ، وبدا له أنه قد ملأ رثيئة بتلك الأقدار التى نبذها أوليين ، وكان أشد ما يضايقه أنه لا يستطيع - بل لم تكن له القدرة - على صد هذا الرجل الذى جاء من ذلك العالم ، وخيل إليه أن ذلك العالم القديم الذى كان يتحنى إليه له حق عليه ملح لا يستطيع له رداً ، وشعر أوليين بالسخط على بيليتسكى والسخط من نفسه هو ، على أنه أخذ يدخل فى حديثه بالرغم منه عبارات فرنسية ، ويبدى اهتمامه بالمقائد العام وبأصدقائها فى موسكو ، وكان هو وبيليتسكى هما الوحيدان اللذان يستطيعان الحديث بالفرنسية فى هذه القرية القوزاقية ، ولذلك كان أوليين يتحدث عن زملائها الضباط وعن القوزاق بلهجة تم عن الاحتقار ، وكان يتودد إلى بيليتسكى ، ووعدته بأن يزوره ودعاه إلى زيارته ، على أن أوليين لم يذهب لزيارة بيليتسكى .

أما فانيوشا فقد كان من ناحيته راضياً عن بيليتسكى ويقول عنه : إنه سيد مهذب بمعنى الكلمة .

ولم يلبث بيليتسكى أن سلك فى حياته المسلك المعهود فى ضابط غنى يقيم فى قرية قوزاقية .

وما انقضى على ذلك شهر حتى رأى أوليين أن صاحبه قد أصبح كواحد من التزلاء القدامى فى القرية : ذلك أنه كان يحمل الشيوخ على السكر ، ويقمى الحفلات الليلية ، ويحضر بشخصه الحفلات التى كانت تقيمها الفتيات ، ويتفاخر

بمغامراته ، بل تهادى فى ذلك إلى حد حمل النساء والفتيات أن ينادينه بيا جدى
لغير ما سبب معروف ! وألفه القوزاق الذين كانوا يأنسون بالرجل الذى يحب الخمر
والنساء ويفهمونه حق الفهم ، بل هم قد آثروه على أوليين الذى كان يبدو فى
نظرهم غامضاً كاللغز !

الفصل الرابع والعشرون

كانت الساعة الخامسة صباحاً وقد وقف فانيوشا في مدخل الكوخ يشعل وعاء غلى الشاي ويستخدم في التهوية على النار ساق حذاء طويلة ، وكان أوليتين قد ركب جواده ، وذهب يستحم في نهر ترك (وقد ابتدع حديثاً ضرباً جديداً من ضروب اللهو هو أن يأخذ جواده للاستحمام في النهر) ، وكانت ربة داره في الكوخ الصغير ، وأخذ الدخان الكثيف للنار المتقدة يتصاعد من المدخنة ، وكانت الفتاة تحلب الجاموسة في الحظيرة ، وصاحت في صوت ينم عن نقاد صبرها : « ألا يمكن أن تقف هذه الشقية ساكنة ؟ » . وتلا ذلك صوت الحلب المنتظم الرتيب . وانطلق من الطريق أمام المسكن صوت حوافر جواد تققع في خفة ونشاط ، وبلغ أوليتين الباب ممتطياً الصهوة العارية لجواد ملبح أشهب في دكنة ، وكان الجواد لا يزال مبللاً يتألق ، وبدا رأس ماريانكا الجميل من الحظيرة ، وقد عصته بمنديل أحمر ، ثم عاد واختفى ، وكان أوليتين يرتدى قبضاً من الحرير الأحمر ، وسترة جركسية بيضاء ، وقد تمتلق بسير من الجلد حمل فيه خنجراً ، ووضع على

رأسه قبة عالية ، وجلس على ظهر جواده المبتل المربل في شيء من الرشاقة يعيها بعض الوعى . وحمل بندقيته على ظهره ، وانحنى ليفتح الباب ، وكان شعره لا يزال مبتلاً وقد أضاء وجهه بنضرة الشباب والعافية ، وكان يظن في نفسه أنه وسيم خفيف الحركة كالزغبى أو هو أشبه ، إلا أنه كان في ذلك واهماً ، فإن نظرة واحدة من قوزاقى خبير كانت كفيلة بالحكم عليه بأنه ما زال بعدُ جندياً ، جندياً فحسب .

وما إن أدرك أن الفتاة قد أخرجت رأسها حتى مال على جواده في رشاقة تسترعى النظر ، وفتح الباب على مصراعيه ، وشد اللجام ولوح بسوطه ودخل الفناء ، ثم صاح في مرج دون أن ينظر إلى باب الحظيرة : « أوقد أعد الشاى يا فانيوشا ؟ » . ورأى والسرور بشيع في نفسه كيف أن جواده الأصيل ، وهو يضم قائمته الخلفيتين ويضرب بهما في الهواء يجذب اللجام وتتفرض كل عضلة من عضلاته قد أخذ يتوثب على طين الفناء الصلب متحفزاً لطى السور في قفزة خاطفة ، وأجاب فانيوشا بالفرنسية : « إنه معد » ، وشعر أوليين بأن رأس ماريانكا الجميل لا يزال يطل من الحظيرة ، إلا أنه لم يلتفت ليمتلئ منه بنظرة ، وعلقت بندقيته بالباب وهو يقفز مترجلاً عن جواده فترنح ترنح الأخرق الغليظ الحركة ونظر في وجل صوب الحظيرة فلم ير أحداً ولكنه كان لا يزال يسمع صوت الحلب .

ودخل الكوخ ثم خرج منه بعد قليل ، وجلس يحسب قدحاً من الشاى في ذلك الجانب من المدخل الذى لم تكن أشعة الشمس قد أدركته بعد وجاء معه بغليونه وحمل كتاباً . وكان ينوى ألا يبرح داره قبل أن يحين موعد الغداء ، وأن يكتب بعض الخطابات التى طال به إرجاؤها ، إلا أنه شعر لأمر ما بالعزوف عن ترك مكانه

من المدخل ، وأحجم عن العودة إلى الكوخ كما لو كان سجنًا ، وكانت ربة الدار قد حملت موقدها ، وعادت الفتاة بعد أن ساءت المشية إلى الخارج ، وأخذت تجمع الكرياك ، وتكومه على طول السياج ، وواصل أوليين القراءة دون أن يفهم حرفاً مما كان يقرأ في الكتاب المفتوح أمامه ، وظل يرفع بصره عنه وينظر إلى الغادة الفنية التي كانت تروح وتغدو في الفناء ، وكان يخشى دائماً أن تفوته حركة من حركاتها سواء أخطرت في ظلال الصباح الندية التي يلقيها المنزل أم خرجت في الضوء المبكر الهيج ينساب وسط الفناء فيتألق قوامها المشوق في ضوء الشمس مشرقاً في ثوبها الزاهي ويلقى ظلاً أسود . وكان يسره أن يرى كيف تنحني بقوامها إلى الأرض في يسر ورشاقة وكيف يلتف ثوبها الوحيد ، وهو قميص وردي اللون ، بصدرها في ثنيات ، ثم يهبط مسترسلاً على ساقها الجميلتين ؟ وكيف كانت ترفع قامتها فيفصح قميصها المشدود معالم نديتها الفتيتين الحفاقيين ؟ وكيف كان باطن قدميها النحيلتين في خفها الأحمر البالي يلمس الأرض فلا يتغير شكله ؟ وكيف أن ذراعيها القويتين وقد شمرب عن ساعديها أخذتا تجهدان عضلاتهما وهما تستعملان الجاروف كما لو كانتا في سورة من غضب ؟ وكيف أن عينيها السوداوين العميقتين كانتا ترمقانه أحياناً وتعبران عن سرورها وإحساسها بجألها وإن كانت تقطب ما بين حاجبيها البديعين ؟

وقال بيليتسكى وهو يدخل الفناء مرتدياً ستره ضابط قوقازى : « ألا قل لى يا أوليين : هل استيقظت منذ وقت طويل ؟ »
وأجابه أوليين وهو يمد يده لمصافحته : « بيليتسكى ! ما بالك قد استيقظت مبكراً كل هذا التبكير ؟ »

- لم يكن لى بد من ذلك ، فقد حملت حملاً على الخروج من الدار ! ذلك

أنا ستقيم الليلة حفلة راقصة ، ثم أردف وهولتفت إلى الفتاة : « ستأتين طبعاً إلى منزل أوستنكا يا ماريانكا » . وعجب أوليين من أن بيليتسكى قد استطاع أن يتحدث مع هذه الفتاة بمثل هذه السهولة ، ولكن ماريانكا حنت رأسها ، كأنها لم تسمعه ، وألقت الجاروف على كتفها ، وسارت صوب الكوخ الصغير في خطواتها الثابتة التي تشبه خطوة الرجل ، وصاح بيليتسكى من وراء ظهرها : « إن الفتاة العزيزة للحجول ، أجل إنها خجول وأردف يقول مبتسماً في طرب وسرور وهو يرتقى درج المدخل بسرعة ، خجول منك »

- كيف تعمل : إنكم ستقيمون حفلة راقصة ثم تحمل حملاً على الخروج من

الدار ؟

- ستكون الحفلة عند أوستنكا ، في بيت ربة الدار التي أقيم فيها ، وأنت مدعو لحضورها ، وأنت تعلم أن حفلة الرقص قوامها فطيرة وجمع من الفتيات .
-- ولكن ما الذي نفعله هناك ؟

وابتسم بيليتسكى ابتسامة العارف ، وغمز بعينه ، وهو يطوح رأسه في اتجاه الكوخ الصغير الذي غابت فيه ماريانكا عن الأنظار .

وهز أوليين رأسه وصبغت حمرة الحجل وجهه ثم قال : « يالك من فتى

عجيب ! »

- كن على سجيتك ولا تتظاهري !

وقطب أوليين حاجبيه ، ولاحظ بيليتسكى ذلك ، فابتسم متحجباً إليه وقال :
« لا ينطلي هذا على ، ماذا تعنى ؟ أتقيم معها في منزل واحد ! هذه الفتاة الرائعة ، هذه الفتاة ، المكتملة الحسن ؟ »

وأجاب أوليين : « عجيبة الحسن ! إننى لم أربعد قط امرأة بلغت من الحسن هذا المبلغ ! »

وقال بيليتسكى وهو لا يدرك الموقف تمام الإدراك : « حسن إذن ! »
وأجاب أوليين : « قد يكون الأمر غريباً . ولكن لماذا لا أقول الحق . إن النساء فيما يظهر لا وجود لهن فى حياتى منذ أقمت هنا ، ولا أكتمك أن فى ذلك الخير كل الخير ! إذ ما الذى يجمع بيننا وبين نساء من هذا القبيل ؟ أما يروشكا . . فإن أمره ليختلف هو وذلك فإن ما يجمعنى به ضرب من ضروب الشغف بشىء هو الصيد » .

- على رسلك ! يجمعك بهن ! وأى شىء يجمع بينى وبين أماليا إيفانوفنا ؟ إنه هو هذا الشىء نفسه ! قد تقول : إن حظهن من العفة ليس عظيماً ، ولكن هذا شىء آخر . . ثم أردف بالفرنسية : « فى الحرب : أفعل كما يفعل الناس فى الحرب » .

وأجاب أوليين : « ولكنى لم أعرف قط امرأة على شاكلة أماليا إيفانوفنا . وليس لى أى علم بالسلوك الذى ينتهج فى معاملة نساء من هذا الطراز ، إن المرء لا يستطيع أن يحترمهن . أما هؤلاء فإبنى أحترمهن » .

- حسن . استمر فى احترامهن ! فمن ذا الذى يريد أن يمنعك من ذلك ؟ ولم يجب أوليين ، والظاهر أنه كان يريد أن يتم ما بدأه من حديث ، فقد كان قريباً كل القرب من قلبه .

- « إنى لأعلم أننى شاذ . . ! » - وكان من الواضح أن الحيرة تملكه -
« ولكن حياتى قد تبلورت تبلوراً لا أرى معه داعياً لنبد مبادئى ، ثم إننى فوق هذا لا أستطيع أن أعيش على نحو ما تعيش ، ناهيك بما أنعم به من سعادة بفضل

الطريقة التي انتهجتها في حياتي هذه ، ولذلك فإني ألتبس ، بل أرى فيهن شيئاً يختلف بالمرّة وما تسعى إليه أنت .

ورفع بيليتسكى حاجبيه وهو لا يصدق ما يسمع : « على كل حال تعال عندي الليلة ، فستكون ماريانكا موجودة ، وسأعرف كلاً منكها بالآخر ، أرجوك أن تأتي ، وإذا شعرت بالسأم أمكنك الانصراف ، أفلا تأتي ؟ »
 - أحب أن أحضر ، ولكني لا أخفي عليك أنني أخشى أن ينال مني الإغراء مناله !

وصاح بيليتسكى : « واهاً لك ! حسبك أن تأتي ، وسأسهر عليك ، أفلا تأتي ؟ وهل تعدني بشرفك ؟ »
 - أود أن آتي ، ولكنني لا أفهم حقاً ما الذي نفعه ؟ وأى شأن يكون لنا ؟
 - أرجوك ، بل أتوسل إليك ، أفلا تأتي ؟
 وقال أولينين : « أجل ، ربما أتيت » .

- واعجبي لك ! نساء فانتات لا يراهن المرء في مكان آخر ثم تعيش كالزاهب ! يا لها من فكرة ! لماذا تفسد حياتك ، ولا تتنفع بما في يدك . هل سمعت بأن سريشا قد أنفذت إلى فوزدفينسكايا ؟
 وقال أولينين : « ليس هذا أمراً قريب الاحتمال ، فقد علمت بأن السرية الثامنة هي التي ستوفد إلى تلك البلدة » .

- كلا ، فقد تلقيت خطاباً من أركان الحرب ، وهو يقول : إن الأمير نفسه سيشارك في الحملة ، ولشد ما يبهج قلبي أنني سألقاه ! فقد سئمت هذا المكان . سمعت أننا ستقوم بغزوة عما قريب ، فقال بيليتسكى وهو يضحك :
 - لم أسمع شيئاً من هذا ، ولكنني سمعت أنه قد أنعم على كرينوفيتسين بوسام

سانت أنا مكافأة له على غزوة قام بها ، وكان ينتظر أن ينعم عليه برتبة ضابط ، إنها لصدمة أو هي أقرب ، أليس كذلك ؟ وقد ذهب الرجل إلى مقر القيادة لبحث الأمر . .

وكان الغسق قد بدأ يقترب ، وأخذ أوليين يفكر في الحفلة ، فقد كانت الدعوة التي تلقاها تقلق باله ، وأحس برغبته في الذهاب ، ولكن ما كان ينتظر أن يحدث في الحفلة بدا لعينه غريباً سخيفاً ، بل مثيراً للفرع بعض الشيء ، فقد أدرك أن الحفلة لن يكون فيها رجال من القوزاق ولا نساء من العجائز ، بل سيقصر حضورها على الفتيات ، فما الذي عساه أن يحدث ؟ وكيف يكون سلوكه ؟ وأي الموضوعات يطرق ؟ وأي علاقة تربطه بأولئك الفتيات القوزاقيات الآبدات ؟ .

وكان بيليتسكى قد حدثه بأمر علاقات كثيرة غريبة ماجنة إلا أنها تسم بالتحفظ ، وبدا له أن من الغريب أن يفكر في أنه سيكون هناك وبضمه كوخ واحد مع ماريانكا . وربما اضطرته الحال إلى التحدث إليها ، وظهر له استحالة ذلك عندما تذكر جلالها ومباهها ، ولكن بيليتسكى كان يتحدث في الأمر كأنه سهل كل السهولة ميسور غاية اليسر ، فقال يحدث نفسه : « أمن الممكن أن يعامل بيليتسكى ماريانكا بهذه الطريقة نفسها ؟ إن هذا الأمر يثير الاهتمام ، كلا ، كلا ! . . خير لي ألا أذهب ، فإن الأمر غاية في البشاعة ، مبتذل أشد الابتذال ، ثم هو فوق ذلك كله - لا يؤدي إلى شيء ! » ، على أن القلق عاد يساوره فيما عساه يحدث ، أضف إلى ذلك أنه أحس كمن ارتبط بوعده ، وخرج أوليين دون أن يستقر على رأى في السبيل الذي يسلكه ، إلا أنه سار حتى بلغ منزل بيليتسكى ودخله .

وكان الكوخ الذي بقي فيه بيليتسكى شبيهاً بكوخ أوليين ، فقد كان مرتفعاً عن

الأرض نحواً من خمس أقدام ، يقوم على أعمدة خشبية ، ويتألف من غرفتين ، وكان في الغرفة الأولى - وقد دخلها أوليين مرتقياً « قبة » السلم الشديد التحدّر - فرش من الريش وطنافس وبطاطين ووسائد ، نسقت في ذوق تنسيقاً جميلاً على الطريقة القوزاقية . وامتدت بطول الجدار الرئيسي ، وعلقت فوق الجدران الجانبية الكئوس الصغيرة والأسلحة من النحاس ، في حين كان البطيخ والقرع ملقى على الأرض تحت أريكة ، أما الغرفة الأخرى فقد كان فيها موقد كبير بنى بالآجر ومنضدة وأرائك وأيقونات طائفية ، وها هنا كان يقيم بيليتسكى بفراش معسكره وحقيته وصناديقه ، وكانت أسلحته معلقة على الجدار وخلفها طنفسة صغيرة ؛ ووضعت على المنضدة أدوات زيتته وبعض الصور ، وقد ألقيَ قفطان من الحرير على أريكة ، وكان بيليتسكى نفسه مستلقياً على فراشه بملابسه الداخلية ، متعشاً صبيح الوجه . يقرأ رواية الفرسان الثلاثة .

وقفز من سريره :

- رأيت كيف دبرت الأمور ؟ تدبير جميل ، أليس كذلك ؟ إنني لسعيد كل السعادة بقدمك ، إن القوم يعملون بكل جد ونشاط ، أتعرف ممّ صنعت الفطيرة ؟ من الدقيق وحشيت بلحم الخنزير والعنب ، ولكن ليس هذا كل ما في الأمر ! انظر إلى الحركة القائمة في الخارج !

والحق أنها ما إن أطلا من النافذة حتى شاهد هرجاً ومرجاً غير عاديين في الكوخ ، وكانت الفتيات يدخلن ويخرجن بسرعات ، ساعيات إلى شيء حيناً ، وإلى شيء آخر حيناً ، وصاح بيليتسكى : « أوتفرغن منها قريباً ؟ »

- قريباً جداً ! ولم ؟ هل أصاب الجوع جدنا ؟ . . . وعلت قهقهتهن من

الكوخ .

ودخلت أوستنكا إلى كوخ بيليتسكى طلباً لبعض الصحف ، وكانت فتاة ممتلئة الجسم صغيرة ، وردية اللون مليحة وقد شمرت عن ساعديها .
وصرخت الفتاة منفتحة من بيليتسكى : « إليك عني وإلا حطمت الصحف ! » وصاحت وهي تضحك في وجه أوليين : « يحسن بك أن تقبل وتساعدنا ، ولا تنس أن تأتى ببعض المنعشات للفتيات » (ومعنى « المنعشات » الخبز المطيب والحلوى)

- أو حضرت ماريانكا ؟

- طبعاً ! وقد جاءت بالدقيق .

وقال بيليتسكى : « هلا علمت أنه لو تعهد أحد أوستنكا فالبسها الملابس الأنيقة وعمل على نظافتها وصقلها ليزت كل ما عندنا من حسان ! أو لم ترقط المرأة القوزاقية التى تزوجت أميرالاً ؟ لقد كانت جذابة ! بورشتشيفا هذه ، ألا ما أروع حياها وأجل سناها ! ترى من أين أتوا بها ؟ . . . »
- لم أر بورشتشيفا ، على أنى لأحسب أنه ما من لباس أفضل من اللباس الذى ترتديه هنا .

وقال بيليتسكى وهو يتهد تنهد الرضا : « إلى الخير من يندمج في أى نوع من أنواع الحياة ، ولأذهبن لأرى ما يفعلن » ، وألقى قفطانه على كتفيه ، وخرج مسرعاً وهو يقول : « وعليك أن تدبر أمر المنعشات » .

وأوفد أوليين رسالة بيليتسكى لشراء الخبز المطيب والشهد ، ثم خطر له فجأة أن إعطاء النقود أمر كرهه (يشبه الرشوة) حتى إنه لم يجب جواباً شافياً على سؤال المراسلة : « كم من الخبز المطيب بالنعناع ؟ وكم من المطيب بالشهد ؟ »
- كما تشاء .

وسأله الجندي العجوز سؤالاً له مغزى : « هل أنفق النقود كلها ، إن النعناع أغلى ، لأن ثمنه ستة عشر كوبيكاً » .

فقال له أولئين : « أجل ، أجل ، أنفقها كلها » ، ثم جلس بجوار النافذة وقد عجب لوجيب قلبه يضرب بشدة كأنه ينهأ لارتكاب جريمة خطيرة ، وطرقت أذنيه أصوات صراخ وصياح في كوخ الفتيات عندما دخله بيليتسكى ، ثم لم يلبث أن رآه بعد بضع دقائق يقفز إلى الخارج ويهبط الدرج مسرعاً مشيعاً بالصرخات والضجيج والضحك ، وقال : « لقد طردت » .

ودخلت أوستنكا بعد قليل ودعت ضيفها في جلال ورصانة أن يتفضلاً بدخول الكوخ معلنة أن كل شيء قد تم إعداده .

ودخلا الغرفة فرأيا أن كل شيء كان معداً حقاً ، وقد أخذت أوستنكا تعيد ترتيب الوسائد بجذاء الجدار ، وغطيت المائدة بغطاء صغير لا يناسبها ، وكان عليها قنينة من الجكير وبعض السمك المجفف ، وشاعت في الغرفة رائحة الدقيق والخبز ، واحتشدت ست فتيات أو نحو ذلك في ركن خلف الموقد . وكن يرتدين صدارتهن الأنيقة ، ولا يغطين رءوسهن بالمناديل ، ورحن يتهايمن ويتهافن ويضوضين ضاحكات .

وقالت أوستنكا وهي تدعو ضيفها إلى المائدة : « أتوسل إليكما أن تكرما شفيعتي القديسة ! » .

ورأى أولئين ماريانكا بين تلك الجماعة من الفتيات يزبنهن الحسن بلا استثناء ، وأحس بالضيق والألم للقاءها في هذه الظروف المبتذلة المستهجنة ، وانتابه شعور بالحرق والاستهجان ، فصاح عزمه على أن يفعل ما يفعله بيليتسكى . وتقدم ببيليتسكى إلى المائدة مصطنعاً شيئاً من الوقار . ولكن في ثقة ويسر ، وشرب قدحاً

من الخمر في صحة أوستنكا ، ودعا الآخرين إلى أن يجذوا حذوه ، وقالت أوستنكا : إن الفتيات لا يشرن .

وانطلق صوت بين الجميع قائلاً : « بل قد نشرها ممزوجة بقليل من الشهد » . ودعا أولينين المراسلة الذي كان قد وصل لتوه يحمل الشهد والكعك المطيب بالأفاويه إلى الدخول ، ونظر (بدافع الحسد أو الاحتقار) إلى السيدين اللذين كانا ، في رأيه ، بعريدان ، وسلم لهما في عناية وأمانة قطعة من قرص الشهد والكعك ملفوفين في قطعة من الورق الخشن ، وراح يتحدث بالتفصيل عن الثمن وعما تبقى من النقود ، إلا أن بيليتسكى صرفه ، ومزج الشهد بالخمر في الأقداح ونثر في كرم الأبطال الثلاثة من الكعك المطيب على المائدة ، ثم جر الفتيات من ركنهن بالقوة ، وحملهن على الجلوس إلى المائدة وأخذ يوزع الكعك بينهن ، ولاحظ أولينين على غير وعى منه ، كيف أن يد ماريانكا الصغيرة التي لوحها الشمس قد أطبقت على كعكتين مستديرتين ، مطبعتين بالنعناع ، وكعكة سمراء اللون لم تعرف ماذا تفعل بها ؟ وكان الحديث متنافراً لا تجانس فيه يدور حيناً وينقطع حيناً آخر على الرغم مما كان في مسلك أوستنكا وبيليتسكى من انطلاق ويسر ورغبتها في إنعاش الجماعة ، واضطرب أولينين وحاول أن يفكر في شيء يقوله شاعراً بأنه كان يثير فضول الجماعة . بل لعله كان يبعث فيهم السخريه ، وينقل عدوى خجله إلى الآخرين ، وصبغت الحمرة وجتبه ولاح له أن ماريانكا بوجه خاص كانت تشعر بالضيق ، وقال يحدث نفسه : لا شك أنهم ينتظرون منا أن نعطيهم شيئاً من النقود ، فكيف نفعل هذا ؟ وما أسرع وسيلة لفعله والخروج من المأزق ؟ .

افضل النحاس المشرون

وقال ييليسكى موجهاً الحديث إلى ماريانكا : « كيف لا تعرفين من يسكن عندك ؟ »

وأجابت ماريانكا وهي تلقى نظرة إلى أوليين : « وكيف أعرفه وهو لا يزورنا أبداً ؟ »

ودب الخوف في قلب أوليين ولم يدر لذلك سبباً ، واحمر وجهه خجلاً ، وقال وهو لا يكاد يعي ما يقول : « إننى أخاف أمك ، فقد نهرتنى بشدة في المرة الأولى التى دخلت فيها داركم » .

وانفجرت ماريانكا ضاحكة ، ثم قالت وهي ترمقه بنظرة ثم تتحول عنه : « وكان هذا كافياً لإلقاء الرعب في قلبك ! »

وكانت هذه هي المرة الأولى التى يرى فيها أوليين وجهها المليح كله ، ذلك أنه كان إلى ذلك الحين يرى وجهها وقد غطاه منديلها حتى عينيها ، وما من عجب في أنها كانت تعد فتنة القرية .

وكانت أوستنكا فتاة مليحة صغيرة ممتلئة الجسم وردية اللون ، لها عينا
عسلتان ضاحكتان ، وشفتان تفران دائماً عن ابتسامة ، ولا تكف عن الرثرة
لحظة ، أما ماريانكا فكانت على العكس من ذلك : لم تك على التحقيق حبة
لطيفة بل جميلة ، وربما كانت ملامحها تبدو للأنظار شديدة الشبه بعلامح الرجال ،
تكاد تغلب عليها الخشونة . لولا قوامها السمهرى وجسمها البديع التكوين
وصدرها الممتلئ وكتفها المكترتان ، ناهيك بالنظرات القاسية بل الحنون تشع من
عينها الداكنتين المستطيلتين فى ظل ظليل من حاجبيها الأسودين ! ولولا التعبير
الرقيق الذى ينطق به فيها وابتسامها ، وكان يندر أن تبسم ، فإذا ابتسمت كانت
ابتسامها فاتنة أخاذة دائماً . وكانت تبدو للعين وقد شاعت أمارات القوة والصحة
الفتية فى أوصالها ، كانت كل الفتيات مليحات ، ولكن الفتيات أنفسهن
وبيليتسكى والمراسلة ، إذ أقبل بالكعك المنطبخ - كانوا جميعاً على غير وعى منهم
يرمقون ماريانكا بنظراتهم ، وكان كل من يوجه الحديث إلى الفتيات إنما يتوجه إليها
وهو مدرك ، فقد كانت تبدو بينهن كالمملكة السعيدة المعترزة بنفسها .

وحاول بيليتسكى أن يخفظ لنحفلة مهبجتها ، فأخذ يثرثر بلا انقطاع ، ويحمل
الفتيات على أن يدرن الحكير على الموجودين ، ويعبث معهن ، وظل يلقى
الملاحظات المتبدلة باللغة الفرنسية متحدثاً بنحاح ماريانكا إلى أوليين ويشير إليها
بقوله : « صاحبك » ، ويهيب به أن يخذو حذوه ، وكان أوليين يزداد ضيقاً على
ضيق ، وراح يفكر فى عذر يبيح له الانصراف والإفلات وإذا ببيليتسكى يعلن أنه
ينبغى على أوستنكا - فى يومها هذا الموعود - أن تقدم الحكير إليه وإلى صاحبه وأن
تشفع ذلك بقبلة . فوافقت بشرط أن يضعا شيئاً من النقود فى طبقها كما هى العادة
فى الأفراح .

وقال أوليين بينه وبين نفسه . وهو ينهض متهباً للانصراف : « أى شيطان
دفعنى إلى حضور هذه الحفلة التى تنقرز منها النفس ؟ »
- إلى أين أنت ذاهب ؟

فقال وهو بنوى الحرب : « سأتمسك بعض التبغ ، ولكن بيليسكى أمسك يده
وقال بالفرنسية : « معى بعض النقود » وأخذ أوليين يتحدث بينه وبين نفسه فى
مرارة وقد ضايقه ما وقع فيه من ارتباك : « وهكذا ينبغي للمرء هنا أن يدفع بعض
المال وليس فى وسعه أن ينصرف . أحقاً أننى لا أستطيع أن أخذ وحذو بيليسكى ؟
لقد كان من الواجب على أن أمتنع عن الحضور ، أما وقد حضرت فإنه يجب على
ألا أفسد عليهم مرحهم ، يجب أن أشرب كما يشرب القوزاق » . ثم تناول الطاس
الحشيشية (وكانت تسع نحو ثمانية أكواب) وملأها أوكاد بالأكير ثم شرها حتى
الغفلة ، ونظرت إليه الفتيات وهو يشرب وقد نالت منهن الدهشة وتملكهن الفزع
أوكاد فقد بدا هن الأمر عجباً يجاوز الحد ، وجاءت أوستكا لكل منها بكأس
أخرى وقبلتها جميعاً .

وقالت وهى تشخخش بالروبلات الفضية الأربعة التى وضعها الرجلان فى
طبقها : « تعالين آيتها الفتيات ، ولننعم الآن بشيء من اللهو والمرح » ، ولم يعد
أولين يشعر بالخرج والارتباك وانطلق لسانه وراح يثرثر .
وقال بيليسكى لماريانكا وهو يمسك بيدها : « والآن يا ماريانكا لقد حان
دورك فاسقيننا وامنحنينا قبله » .

فقالت وكأنها تهباً لضربه : « أجل ، سأمنحكما قبله ويالها من قبله ! »
وقالت فتاة من الفتيات : « تستطيعين أن تقبلى جدنا من غير عطاء » .
وقال بيليسكى مقبلاً الفتاة وهى تناضل : « هاكم فتاة عاقلة » ، وألح موجهاً

الخطاب إلى ماريانكا : « كلا يجب أن تقدمي له الخمر ، وقدمي كأساً إلى الساكن عندك » .

وأخذها من يدها وقادها إلى الأريكة وأجلسها بجوار أولينين .
وقال وهو يدير رأسها ليراه من جانب : « ما أجملها ! »
ولم تقاوم ماريانكا . ولكنها أدارت عينها المستطيلتين إلى أولينين وهي تبسم ابتسامة الفخر والزهو .

وردد بيليتسكى قوله : « ما أجملها من فتاة ! » ، وبدا في نظرة ماريانكا ما يؤيد ذلك وكأنها تقول : « أجل ، انظر مقدار ما أنا فيه من حسن وجمال » .
وأخذ أولينين ماريانكا بين ذراعيه ، وهو لا يعي ما يفعل ، وهم بتقبيلها ، فتحنصت من بين ذراعيه وكادت تطرح بيليتسكى أرضاً ، ثم دفعت الغطاء عن المائدة وقفزت إلى الموقد بعيداً عنه ، وكثر الصياح والضحك ، ثم همس بيليتسكى بشيء إلى الفتيات ، فهرعن فجأة إلى الممر وهو في صحبتهن وأغلق من ورائهن الباب .

وسألها أولينين : « لم قبلت بيليتسكى وأبيت أن تقبليني ؟ »
ف قالت وهي تعض على شفتيها وتقطب حاجبيها : « هكذا ، لا أريد ، وحسب ! » ، ثم أردفت وهي تبسم : « إنه جدى » وانجهت إلى الباب وبدأت تقرعه : « لم أغلقتم الباب أيها الملاعين ؟ »
فقال أولينين وهو يدنو منها : « حسن ، دعيم حيث هم ولنبق نحن هنا »
وقطبت الفتاة حاجبيها ودفعت يده في صرامة ، وبدا لأولينين مرة أخرى حسنها الذى تحف به المهابة والجلال فثاب إلى رشده ، وشعر بالحنجل مما كان يفعل ، ومضى إلى الباب وبدأ يجذبه بنفسه .

- ييليتسكى ! افتح الباب ! وكف عن حملك !
وأطلقت ماريانكا مرة أخرى ضحكة مشرقة سعيدة ، وقالت : « آه ! إنك
خائف منى ؟ »

- خائف حقاً ، وكيف لا أخاف وأنت صارمة شكسة كامك ؟
- أولى بك أن تنفق المزيد من وقتك مع يروشكا ، فإن ذلك كفيل بأن يجعل
الفتيات يقعن فى شرك هواك ! ، وابتسمت وهى تنظر إليه نظرة مستقيمة نافذة ،
فلم يدر بماذا يجب ؟

وزل لسانه فقال : « وإذا جئت لزيارتك ؟ »
فأجابت وهى تطوح رأسها : « هنا يختلف الأمر ! »
ودفع ييليتسكى الباب فى تلك اللحظة فانفتح ، وقفزت ماريانكا مبتعدة
عنه ، واصطك فمخذاها وهى تتعد برجل أوليين ، فخطرت له أفكار راح يديرها
بينه وبين نفسه : « إنه لمن العبث أن أفكر فى جميع ما كنت أفكر فيه من الحب
وإنكار الذات ولوكاشكا ، وإنما السعادة هى كل شئ . والحق هو أن تدرك
السعادة » ، ثم أمسك بماريانكا بقوة لم يعهدها فى نفسه وقبل وجنتها وخدها ،
ولم تغضب ماريانكا ، بل انفجرت مقهقهة ، وهرعت إلى الفتيات الأخريات .
وكان فى ذلك ختام الحلقة ، فقد عادت أم أوستنكا من عملها ونهرت الفتيات
ثم صرفن جميعاً .

الفضل السادس والعشرون

وقال أولنين بينه وبين نفسه وهو يسير في الطريق إلى منزله : « أجل ، وحسبي أن أرخي العنان قليلاً فأقع صريعاً في حب هذه الفتاة القوزاقية » ، وأوى إلى فراشه وهذه الأفكار تلازمه ، وكان يظن أنها لا تلبث أن تتبدد جميعاً ، فيعود إلى حياته التي كان يحياها من قبل ، إلا أن هذه الحياة لم تعد ، وتغيرت علاقته بماريانكا وانهار الحاجز الذي كان يفصل بينهما ، وأصبح أولنين يحياها كلها الثقيا .

وعاد رب الدار ليحصل الإيجار ، وسمع براء أولنين وكرمه ، فدعاه إلى كوخه ، ورحبت الزوجة به ، وأصبح أولنين منذ يوم الحفلة يختلف إلى كوخهم في معظم الليالي . ويجلس معهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكان في ظاهر الأمر يعيش في القرية حياته المعهودة ، إلا أن كل شيء في دخيلة نفسه كان قد تغير ، وراح يقضي أيامه في العابة ، فإذا بنغت الساعة الثامنة أو نحوها وبدأ الغسق ينشر ظلاله مضى وحده أو صاحبة العم يروشكا لزيارة مضيفيه ، وألفه القوم حتى إن الدهشة كانت تملكهم إذا هو غاب عنهم ، وكان يدفع ثمن ما يحتسيه من خمر

بسقاء ، وعرف بالهدوء والاتزان . وكان فانيوشا يأتي له بالشاي ، فيجلس في ركن من أركان الغرفة قرب الموقد ، ولم تكن الزوجة العجوز تلقى بالأى إليه ، بل كانت تمضى في عملها ، وكان القوم يتحدثون وهم يحتسون الشاي أو الجكير عن الشئون القوزاقية أو عن الجيران أو عن روسيا ، وكان أوليين هو الذى يتحدث ، والآخرون يسألون ، وكان يأتي أحياناً بكتاب ويقرأ لنفسه ، وكانت ماريانكا تجلس القرفصاء كالعز البرية طاوية قدميها تحتها ، على الرف الذى يعلو الموقد حيناً ، وفي ركن مظلم من أركان الغرفة حيناً آخر ، ولا تشترك في الحديث إلا أن أوليين كان يرى عينيها ووجهها ويسمعها تتحرك أو تكسر بذور عباد الشمس ، ويحس بأنها تنصت بكيانها كله إذا تحدث ، ويشعر بوجودها وهو يقرأ لنفسه ، وكان يحبل إليه أحياناً أنها تتحدق النظر فيه ، فإذا التقت نظراته ونظراتها المشرقة لزم الصمت على غير وعى منه ، وأخذ يرمقها بعينه ، فلا تلبث أن تحنى وجهها ، فيتظاهر بأنه مستغرق في الحديث مع الزوجة ، مع أنه كان ينصت طول الوقت إلى أنفاسها المترددة وإلى كل حركة من حركاتها مؤملاً أن تنظر إليه مرة .

وكانت الفتاة بصفة عامة تتألق وتتودد إليه في حضرة الغير ، فإذا جمعتها الظروف منفردين غلبها الحياء والخشونة ، وكان يزورهم أحياناً قبل أن تعود ماريانكا إلى المنزل ، فيسمع فجأة وقع أقدامها الثابتة ، ويلمح شعاعاً من قبصها القطنى الأزرق إذ تمر بالباب المفتوح ، وكانت تدلف إلى وسط الكوخ وتبتسم له عيناها ابتسامة رقيقة لا تكاد تلاحظها العين ، فيشعر بالسعادة والخوف جميعاً .

ولم يك أوليين يلتبس فيها شيئاً أو يرغب في شيء ، إلا أنه كان يزداد إحساساً بضرورة وجودها بالنسبة إليه .

وأغل أوليين في الحياة القوزاقية يغالا حتى لكان ماضيه قد أصبح شيئاً غريباً

عنه كل الغربة ، أما المستقبل وخاصة ما يخرج منه عن المحيط الذى يعيش فيه فلم يك يثير فيه أى اهتمام ، وكان إذا تلقى خطابات من أقاربه وأصدقائه فى وطنه ساءه منهم ما تجلى من ضيقهم وبأسهم وهم يعدونه رجلاً ضالاً ، فى حين أنه كان فى قريته يرمى بالضلالة من لا يعيش على سسته ، وكان مؤمناً بأنه لن يندم أبداً على الخروج عن بيته الماضية واستقراره فى هذه القرية مخلداً إلى مثل هذه الحياة التى تتميز بالعزوف والطرافة ، وكان يشعر بالسعادة أيضاً عندما يخرج فى الحملات . ويتزل فى حصن من الحصون ، إلا أنه كان يرى زيف حياته الماضية فى مثل هذا الموضع ، وفى كنف العم بروشكا . وفى الغابة وفى كوخه الذى فى طرف القرية ، وخاصة عندما كان يفكر فى ماريانكا ولوكاشكا .

ولقد أثار هذا الزيف من قبل سخطه وحنقه ، إلا أن هذا الزيف قد بدا له الآن خسيساً تعجز اللغة عن وصف خسته ودنائه وما يثيره فى النفس من سخرية : ذلك أنه أصبح يحسّ بقدر من الحرية والرجولة يزداد يوماً عن يوم ، وبدا القوقاز لعينه مختلفاً أشد الاختلاف عما رسمه خياله ، ولم يأنس فيه شيئاً قط مما صورته له أحلامه ولا وجد شيئاً من الأوصاف التى سمعها وقرأها ، وقال يحدث نفسه : « وليست العلة فى ذلك هى العباءات القوقازية أو الوهاد ، أو بكوات أمالات ، أو الأبطال والأوغاد ، وإنما العلة فى الناس يخيون كما تحيا الطبيعة ، فهم يموتون ، ويوندون ، ويتزوجون ، ثم تزداد المواليد بينهم ، وهم يقاتلون ، ويأكلون ويشربون ، ويفرحون ويموتون ، من غير أن نجد من حريتهم قيد اللهم إلا تلك القيود التى تفرضها الطبيعة على الشمس والعشب ، وعلى الحيوان والشجر . تلك هى شريعتهم ولا شريعة أخرى تتحكم فى أمرهم » .

ومن ثمة فإنه إذا قارن نفسه بهؤلاء القوم تجلى له ما ينعمون به من جمال وقوة

وحرية ، وأثار مآهم في نفسه الشعور بالحجل والرتاء لحاله ، وكثيراً ما فكر جدياً في أن يند كل شيء وينخرط رسمياً في زمرة القوزاق ويتزوج امرأة قوزاقية (إلا ماريانكا فقد نزل عنها للوكاشكا) ، ويقم مع العم يروشكا ، يخرج للنقص وصيد السمك معه ، ويذهب مع القوزاق في حملاتهم ، ثم راح يسأل نفسه وهو يستحبها وينحى باللائمة عليها :

« ترى أى سبب ذلك الذى يحول بينى وبين ما أريد ؟ وفيما الانتظار ؟ أو أخشى الإقدام على عمل هو فى رأى عين العقل والصواب . أو تكون رغبتي فى أن أغدو قوازقياً بسيطاً ، أعيش قريباً من الطبيعة ، لا أضرب أحداً ، بل أفعل الخير للآخرين - أشد حمقاً من أحلامي الماضية تلك الأحلام التى كانت تمدنى بالأمل أن أصبح وزيراً أو أميرالاً ! » وكأنما أحس فى أعماقه بصوت يهيب به أن انتظر ولا تتخذ قراراً ، وكان الذى يشبه عن عزمه شعوراً غامضاً بأنه لا يستطيع أن يعيش كما يعيش يروشكا ولوكاشكا ، ذلك أن رأيه فى السعادة كان يخالف رأيها ، كان يردده عن اتخاذ القرار ما تخيله من أن السعادة فى إنكار الذات ، ثم إن المعروف الذى صنعه مع لوكاشكا ظل يبعث فى نفسه الغبطة والسرور ، وما فتئ يتقرب الفرص التى تتيح له أن يبدل نفسه فى سبيل الآخرين ، ولكنها لم تواته ، وكان ينسى أحياناً هذا السبيل الذى اكتشف أنه يوصل إلى السعادة ، ويحس فى نفسه القدرة على أن يهيج نهج يروشكا ، ولكنه كان لا يلبث أن يراجع نفسه ويبادر بالتعلق بفكرة إنكار الذات عن وعى وتدبر ، وعلى هذا الأساس كان ينظر إلى جميع الناس وإلى سعادة الآخرين نظرة هادئة حافلة بالعزة والفخر .

الفصل السابع والعشرون

وأقبل لوكاشكا ممتطياً صهوة جواد للقاء أوليين قبيل موسم جنى العنب تماماً ، وكان الرجل يبدو أكثر اندفاعاً من أى وقت آخر .

وسأله أوليين وهو يحببه مازحاً : « أوقد عزمت على الزواج ؟ » ولم يحب لوكاشكا جواباً مباشراً ، وقال : « لقد بادلت بجوادك فى الناحية الأخرى من النهر ، وهذا هو الجواد وأى جواد ! إنه من فصيلة كاياردا من حظيرة لوف^(١) وأنا خير بالحياد » .

واختبر الرجلان الجواد الجديد وسارا به فى نصف دائرة حول الفناء ، وكان الجواد أصيلاً عريقاً فى الأصالة حقاً ، خصياً بين الأسود والأحمر ، له جسم عريض طويل ، وفراء ناعم ، وذيل حريرى غليظ ، أما معرفته وجُمته الجميلتان الناعمتان فسمتا الجواد الأصيل ، وقد بلغ من حسن تغذيته أن المرء يستطيع « أن يتام فوق ظهره » على حد تعبير لوكاشكا ، وكانت حوافره وعيناه وأسنانه بديعة

(١) كانت حظيرة لوف بمرحلة لوف من حسن حظائر الحياد فى الشمال .

التكوين بارزة المعالم بروزاً لا تجده إلا في الجياد العريقة ، ولم يسع أوليين إلا أن يعجب بالجواد ، ذلك أنه لم يكن قد رأى مثل هذا الجمال في القوقاز .
وقال لوكاشكا وهو يربت على عنقه : « يا لمشيته ويا لخطوته ! لقد بلغ من ذكائه أنه إنما يعدو وراء سيده . »

وسأله أوليين : « أوقد اضطررت إلى دفع مال كثير لإتمام هذه المبادلة ؟ »
وأجاب لوكاشكا مبتسماً : « لم أعد ما دفعته ، فقد أخذت الجواد من صديق عزيز » .

وقال أوليين : « ياله من جواد فائق الحسن ! كم تأخذ ثمناً له ؟ »
وأجاب لوكاشكا مرحاً : « لقد عرضوا على مائة وخمسين روبلاً ثمناً له . ولكنني سأعطيه من غير مقابل ، وما عليك ، وحسبي كلمة منك فيكون لك ، سأخلع عنه سرجه ثم هو بعد ذلك لك ، وكل ما أطلبه منك أن تعطيني جواداً من أى نوع أستعين به في أداء خدمتي » .

- كلا ، فإن هذا مستحيل

فقال لوكاشكا وهو يفك حزامه ويخرج منه خنجرًا من خنجرين كانا معلقين فيه : « إذن فهالك هدية جنتك بها ، لقد حصلت عليها من الضفة الأخرى للنهر » .
- آه ! شكراً لك .

- وقد وعدت أُمى بأن توافيك هي نفسها ببعض العنب .
- لا موجب لهذا قط ، ولسوف نسوى ما بيننا من حساب في يوم من الأيام ، وأنت ترى أنني لم أعرض عليك نقوداً في مقابل الخنجر .
- وكيف تعرض على نقوداً ونحن صديقان حميان ؟ إن صلتى بك كصلتى بكرأى خان الذى يقيم في الناحية الأخرى للنهر سواء بسواء ، لقد أخذنى الرجل إلى

بيته وقال : « اختر ما تشاء ! » ، فأخذت هذا السيف ، وهي عادة ألفناها .
ثم دخلا الكوخ وشربا كأساً .

وسأله أولينين : « أوتقضى في القرية بعض الوقت ؟ »

- كلا ، وإنما جئت أودعك ، ذلك أنهم قد بعثوا بي من النطاق لألحق
بسرية فيما وراء نهر ترك ، وأنا راحل الليلة مع زميلي نازاركا .
- ومتى يكون الرفاف ؟

وأجاب لوكاشكا في تردد : « سأعود لعقد الخطبة ، ثم أرجع إلى السرية مرة
أخرى » .

- وى ! ولا ترى خطيبتك ؟

- إن القول ما قلت ، وما جدوى النظر إليها ؟ وإذا اتفق أن خرجت في حملة
فاسأل في سريتنا عن لوكاشكا الفحل ، فما أكثر الحنازير البرية هناك ! لقد قتلت
منا اثنين ، وسأخذك معي .

- وداعا ، وكان الله معك !

وامتطى لوكاشكا جواده ، ولم يزر ماريانكا بل أخذ يضرب في الطريق حيث
كان نازاركا في انتظاره ، وسأله نازاركا وهو يغمز بعينه في اتجاه منزل يامكا « هلا
زرنها ! »

فقال لوكاشكا : « لا بأس ، وهاك جوادى فخذها إليها ، وأعطه شيئا من
الدريس ، إن لم أوافك بعد قليل . ومهما يكن من شيء فإنى سأبلغ السرية قبل أن
ينبلج الصبح » .

- ألم يعطك طالب الحرية شيئا آخر ؟

فقال لوكاشكا وهو يترجل عن الجواد ويسلم زمامه إلى نازاركا :

— أحمد الله على أنني أوفيت له الدين بخنجر ؛ فقد كان على وشك أن يطلب مني الجواد .

ومرق في الفناء كالسهم ماراً بنافذة أوليين نفسها ثم بلغ النافذة من كوخ « الصول » ، وكان الظلام حالكاً ، وقد راحت ماريانكا التي كانت لا ترتدى إلا قبيصها — تمشط شعرها استعداداً للنوم .

وهمس القوازي : « هذا أنا »

وكانت ماريانكا تنظر نظرات من لا يبالي بشيء أبداً ، على أنه ما إن سمعت اسمها حتى أشرق وجهها فجأة وفتحت النافذة وأطلت منها يتنازعها الخوف والفرح جميعاً .

ثم قالت : « ماذا ؟ ماذا تريد ؟ »

وهمس لوكاشكا : « افتحي ! دعيني أدخل لحظة ؛ فقد برح بي الانتظار » . وأخذ رأسها بين يديه من خلال النافذة وقبلها ، ثم قال : « افتحي بالله عليك »

« ما هذا الهراء ؟ لقد قلت لك : إني لن أفتح ، هل أثبت لتقضى بيننا وقتاً طويلاً ؟ »

ولم يجب بل مضى يقبلها ولم تعاود هي سؤاله .

وقال لوكاشكا : « إني لأستطيع أن أطوقك بذراعي على خير وجه من خلال النافذة » .

وطرق سمعها صوت أمها وهي تنادى قائلة : « عزيزتي ماريانكا ، من هذا الذي معك ؟ » .

وخلع لوكاشكا قبعته حتى لا ينكشف أمره وريض بجوار النافذة .

وهمست ماريانكا : « اذهب وأسرع ! » ، ثم أجابت أمها : « لقد حضر
لوكاشكا وهو يسأل عن أبي » .
- ابعثي به إلينا .

- لقد مضى وهو يقول : إنه في عجلة من أمره .
والحق أن لوكاشكا مال بقامته ومر بالنافذة في خطأ واسعة ، ثم اجتاز الفناء
عدواً ، وبعث شطر منزل يامكا دون أن يراه أحد إلا أوليين ، وشرب الفتي هو
ونازاركا طاسين من الحكيير ثم ركبا جواديهما إلى نقطة الحراسة ، وكانت الليلة دفيئة
ظلماء هادئة ، ولزم الرفيقان الصمت فلم تلك تسمع إلا وقع حوافر جواديهما ، ثم
راح لوكاشكا يغني أنشودة عن « المنجال القوزاقى » ، ولكنه كف عن الغناء قبل أن
يتم البيت الأول منها ، ثم سكث لحظة والتفت إلى نازاركا قائلاً :

- إنها رفضت السماح لي بالدخول !
وأجاب نازاركا : « حقاً ؟ لقد كنت أعلم أنها لن تسمح لك بذلك . أو علمت
ما قالت لي يامكا ؟ لقد بدأ طالب الحرية يختلف إلى دارهم . ويتمشددق العم
بروشكا بأنه حصل على بندقية من طالب الحرية ، ليصل بينه وبين ماريانكا » .
وقال لوكاشكا غاضباً : « إن الشيطان العجوز يكذب ! فليست الفتاة من هذا
الطراز ، وإذا لم يعقل هذا الشيطان العجوز لسانه ألهمت جنبيه » ، ثم راح ينشد
أغنيته الأثيرة عنده :

من حديقة سيده المحبوبة

في قرية إسماعيلوفو

طار صقر ذكي الفؤاد من قفصه مرة

وانطلق في إثره صياد شاب يمتطي جواداً

وأوماً بيده إلى الصقر الذكى الفؤاد
« تعال أيها الصقر ، تعال إلى يدي اليمنى
والأشمنى القيصر المسيحى
شئنى على نصب عال
فأجاب الصقر الذكى الفؤاد :
« لم تعرف كيف تحتفظ بى فى قنصلك الذهبى
ولم تعرف كيف تبقينى على يدك اليمنى ؟
وسأطير الآن إلى البحر الأزرق ، بعيداً ، بعيداً جداً
وأصيب هنالك إوزة بيضاء تنعم بها نفسى
وآكل من لحم الإوزة اللذيذ ملء بطنى » !

الفصل الثامن والعشرون

كانت حفلة الخطبة تجري في منزل « الصول » ، وقد عاد لوكاشكا إلى القرية ولكنه لم يأت لزيارة أوليين ، ولم يذهب أوليين لحضور حفلة الخطبة مع أنه دعى لها ، كان حزينا حزناً لم يعرف له مثيلاً قط منذ حل بهذه القرية القوزاقية ، فقد رأى لوكاشكا في أحسن ملابسه يمر في وقت مبكر من المساء صحبة أمه ، وشغل باله لما أظهره لوكاشكا حياله من برود ، ولزم أوليين كوخه وبدأ يسجل في يومياته .

وكتب يقول : « لقد أعملت الفكر أخيراً في أمور كثيرة ، وحل لي من التغير شيء كثير ، وعدت إلى المثل المأثور الذي يقول : إن السبيل الوحيد إلى السعادة هو أن تحب ، تحب حباً خالصاً يقوم على إنكار الذات ، تحب كل إنسان وكل شيء ، فتبسط جناح الحب لله في كل اتجاه ، فمن استظل به رعيته ، وقد رعت هذه الطريقة فانيوشا والعم يروشكا وماريانكا »

ودخل العم يروشكا العرفة وأوليين يتم هذه العبارة

لقد كان يروشكا في أسعد حالاته ، وكان أوليين قد ذهب لزيارته قبل ذلك

ببضع ليال ، فوجده يسلمخ في مهارة جثة خنزير برى بسكين صغير في فناء كوخه ، وقد أشرق بحياه بالسعادة والعزة ، وكانت الكلاب (ومنها ليام كلبه المدلل) قابعة بجواره ترقب مايفعل وتهز ذيلها هزاً رقيقاً ، وصغار الصبية يرمقونه في احترام من خلال السياج ، حتى لقد كفوا عن معاكسته كما هو شأنهم ، أما جاراته اللاتي لم يعاملنه بوجه عام في سخاء مذكور - فقد أخذن يحسبه ، ووافته إحداهن بإبريق من الجكير وثانية بشيء من القشدة المتخثرة ، وثالثة ببعض الدقيق ، وجلس يروشكا في اليوم التالي في مخزنه مسريلاً بالدم ، يوزع أرطالا من لحم الخنزير ؛ ليقبض الثمن نقداً تارة وخمراً تارة أخرى ، وقد أشرق وجهه وكأنه يقول : « لقد وهب الله لي حظاً فأصبحت خنزيراً برياً ، وهأنذا يسعى الناس إلى ! » وكانت النتيجة الطيبة لذلك أنه راح يشرب ويشرب أربعة أيام سويا لم يغادر القرية فيها قط ، ثم إنه وجد ما يشربه في حفلة الخطبة أيضاً »

وأقبل على أوليين مفرطاً في الشراب متورد الوجه مهوش اللحية غير أنه كان يرتدى صدره حمراء جديدة موشاة بشریط ذهبي ، وحمل معه قيثارة روسية^(١) حصل عليها من الضفة الأخرى للنهر ، وكان قد وعد أوليين بهذه الجلسة منذ زمن بعيد ، وشعر بأن نفسه قد تهاوت لها ، وقد ساءه أن يجد أوليين مقبلاً على الكتابة . وهمس : « اكتب ، اكتب يا صديق » كأنما خيل إليه أن روحاً قد حلت بينه وبين الورق فلا ينبغي أن يفرعها فتهرب ، وجلس الرجل في رفق وسكون على الأرض ، وكانت مكانه المفضل إذا سكر ، والتفت أوليين خلفه وأمر بإحضار شيء من الخمر واستمر في الكتابة ، ووجد يروشكا أن إقباله على الشراب وحيداً أمر ثقيل على النفس ، وكانت به رغبة في الحديث .

- لقد حضرت حفلة الخطبة في بيت الصول ، وبألمهم من قوم خنازير عافتهم
نفسى ولذلك جثت إليك !

وسأله أولنين وهو يواصل الكتابة : « ومن أين لك بهذه البلايكا ؟ »
فأجابه وهو لا يزال ملتزماً غاية الهدوء : « لقد اجتزت النهر يا صديقي ، ومن
هناك حصلت عليها ، وإني لمن أرياب هذه الآلة الموسيقية ، أعزف عليها الأغاني
من كل نوع ، ويستوى عندي أن تكون من أغاني الترو أو القوزاق أو السادة
أو الفلاحين » ، ونظر إليه أولنين مرة ، وابتسم له ، ثم واصل الكتابة .

وشجعت ابتسامته الشيخ

فقال في حزم مفاجئ : « هيا ، وكف عن الكتابة يا بني ، كف عنها ،
واكشف لي عن خبيثة نفسك ، إن بعض الناس أساء إليك ، ولكن دعهم
وشأنهم ، ابصق عليهم ، فما جدوى الكتابة والاستمرار فيها ؟ وما الخير الذي يرجى
منها ؟ »

وحاول الرجل أن يقلد أولنين ، فأخذ ينقر على الأرض بأصابعه الغليظة ،
ويقلب سحنة وجهه الكبير سخرية وازدراء « وما الخير الذي يرجى من كتابة
المغالطات ؟ أولى بك أن تمرح وتلهو لتظهر أنك رجل »

ولم يكن للكتابة في رأسه إلا تعليل واحد هو التحايل القانوني وانفجر أولنين
ضاحكاً وحذا يروشكا حذوه ، ثم انتصب واقفاً وراح يظهر براعته في العزف على
البلايكا . وينشد أناشيد قترية .

- لم تكتب أيها الصديق الكريم ؟ أولى بك أن تنصت إلى ما أغنيه لك ،
فإنك لن تسمع إذا ثويت في القبر أغنية واحدة أخرى ، فدع الهم وامرح !
وأنشد أول ما أنشد أغنية من تأليفه تصحبها رقصة :

آه ! دى دى دى ، دى دى دى

أين كان عندما رأوه

رأوه فى خباء بالسوق

يبيع الدبابيس ؟

ثم أنشد أنشودة تعلمها من صديقه الباشجاويش السابق :

ولم أجد يوم الثلاثاء إلا التهد والأنين

وبحت لها بحبي كله يوم الأربعاء

وانتظرت ردها يوم الخميس

ثم جاء الرد متأخراً فى يوم الجمعة

فتبددت آمالى جميعاً

واعترمت عزم الرجال

أن أنتحر يوم السبت

إلا أننى فى سبيل خلاص نفسى

عدلت عن رأى فى صباح الأحد

ثم أنشد مرة أخرى :

آه ! دى دى دى ، دى دى دى

أين كان عندما رأوه ؟

وأنشد بعد ذلك وهو يغمز بعينه وراح يهز كتفيه على وقع النغم :

لأقبلك وأضمك إلى صدرى

وأحيطك بالشرائط الحمر ،

وأناديك بالرشيقة الصغيرة ،

بالله عليك أيتها الرشيقة الصغيرة ،

هلا أصدقتني القول ! أوتجيبيني جداً ؟

وهزته نشوة هزاً جعله يقفز على حين غرة ، وراح يرقص وحده في أرجاء
الرفقة .

وأنشد الرجل الأغاني من قبيل : « دى ، دى ، دى » وهي « أغاني
السادة » - ليضطرب بها أوليين ، ولكنه ما إن شرب ثلاثة أقذاح أخرى من الجكير
حتى تذكر أيامه الماضية ، وبدأ ينشد أغاني قوزاقية وتريّة خالصة ، وارتجف صوته
فجأة في غمرة أغنية من أغنياته المحببة إلى قلبه ، وكف عن الغناء ، إلا أنه واصل
النقر على أوتار البلايكا .

ثم قال : « أواه يا صديقي العزيز ! »

وقد بلغ من غرابة صوته أن أوليين التفت إلى الحلف ، فرأى الشيخ يبكي ،
وكانت الدموع تفرق في عينيه وقد جرت دموعاً على خده ، وقال وقد فاضت
شجونه وكف عن العزف : « إيه يا أيام شباني ، لقد وليت ولن تعودى ! » وصرخ
بغثة في صوت مدودون أن يكفكف دموعه : « اشرب ، ما بالك لا تشرب ؟ »
وكانت ثمة أغنية تريّة واحدة تثير أشجانه بوجه خاص ، كانت كلماتها قليلة ،
ولكن موضع الفتنة فيها يكمن في مرجعها الحزين : « أى داي ، دالالاي ! » وقد
ترجم يروشكا كلمات الأغنية فقال : « ساق شاب أغنامه من القرية إلى الجبال ،
وجاء الروس فأحرقوا القرية وقتلوا رجالها عن بكرة أبيهم ، وسبوا النساء جميعاً
وعاد الشاب من الجبال ، فوجد مكان القرية خراباً يباباً وقد خلا من أمه وإخوته
وبيته ولم تبق إلا شجرة واحدة ، وجلس الشاب تحت الشجرة يبكي « أنت هنا
(وحيدة) وأنا وحيد مثلك ! » ، وبدأ ينشد : « أى داي ، دالالاي ! » وراح

الشيخ يردد هذا المرجع الحزين الذى تنفطر له القلوب .

وما إن انتهى بروشكا من ترديد هذا المرجع حتى تناول بغتة بندقيته التى كانت معلقة على الجدار ، وهرع إلى الفناء وأطلق ماسورقى البندقية جميعاً فى الهواء ، ثم راح ينشد مرة أخرى فى صوت زاد حزناً على حزن ، أنشودته : «أى داي ، دالالاي ، آه ! آه ! ثم كف عن الغناء .

وتبعه أوليين إلى المدخل ، وتطلع إلى السماء المرصعة بالنجوم فى الاتجاه الذى ومضت فيه الطلقات ، وكانت تنبعث من دار الصول أضواء وأصوات ، وأخذت الفتيات يتزاحمن حول المدخل والنوافذ ويهرعن رائحات غاديات بين الدار والكوخ الصغير . واندفع بعض القوزاق من المنزل وانطلقوا يسعلون بشدة مرددين صدى المرجع من أغنية العم بروشكا وطلقاته .

وسأله أوليين : « لم لم تبق فى حفلة الخطبة ؟ »

فغمغم الشيخ ، وكان من الواضح أن أمراً ما قد ساءه هناك : « دعك منهم دعك منهم ! ، فإنى لا أحبهم ، لا أحبهم ! تباً هؤلاء القوم ! عد . إلى الكوخ ! دعهم يمرحون وحدهم ، ولنخرج نحن وحدنا » .

ودخل أوليين الكوخ

ثم سأل الصياد : « وكيف حال لوكاشكا أهو سعيد ؟ ألا يأتى لزيارتي ؟ » وهمس الشيخ : « من ؟ لوكاشكا ؟ لقد كذبوا عليه وقالوا : إننى أصل بين حبيته وبينك ، ولكن ما قيمة الفتاة ؟ ستكون لنا إذا رغبت فيها ! ولنغدق عليها المال فتكون لنا ، وسأدبر لك الأمر ، وإنى لفاعل » .

- كلا أيها العم ، إن المال لا يفعل شيئاً إذا كانت لا تحبني ، ويحمل بك ألا تتكلم هكذا

وقال العم يروشكا فجأة - وقد أخلد للبكاء مرة أخرى : « إنهم لا يحبوننا أنا وأنت ، فنحن يتيمان » .

وشرب أولينين أكثر مما ألف وهو ينصت إلى كلام الشيخ ، ثم حدث نفسه قائلاً : « إذن فصديقي لوكاشكا سعيد الآن » ، ولكنه كان بالرغم من ذلك يشعر بالحزن ، وأفراط الشيخ في الشراب في تلك الليلة حتى وقع على الأرض ، واضطر فانيوشا إلى استدعاء الجنود لمساعدته ، ثم بصق وهم يحرون الشيخ إلى الخارج ، وقد استبد به الغضب من الصياد لسوء مسلكه حتى نسي أن يقول شيئاً بالفرنسية .

النفيل التاسع والعشرون

كان ذلك، في شهر أغسطس ، وقد ظلت السماء أياماً خالية من الغيوم ، والشمس ترسل أشعتها المحرقة فترهق الأنفاس ، والرياح الحارة تثير منذ الصباح الباكر عاصفة من الرمال الساخنة تنبعث من الكثبان ومن الطريق ، وتحملها في الهواء فوق الخلفاء والأشجار والقرى .

وكان العشب وأوراق الشجر قد غطاها الغبار ، وتعرت الطرق والسيارات الجافة ، وأخذت ترن تحت وقع الأقدام ، وكان الماء قد انحسر عن نهر ترك منذ وقت بعيد ، وسرعان ما أخذ يفيض من البرك ، وتعرت ضفاف البركة القريبة من القرية مما كان يعلوها من غرين بفعل أقدام الماشية في رواحها وغدوها ، وكنت تسمع على مدار اليوم رشاش الماء وصراخ البنين والبنات وهم يستحمون ، وكانت الكثبان الرملية والخلفاء قد أخذت تجف في السهوب ، وكانت الماشية تهرب إلى الحقول في النهار وهي تحور ، وفرت الوحوش إلى مهاد القصب البعيدة وإلى التلال القائمة فيما وراء نهر ترك ، وقد احتشدت الموام ويعوض الجرجس في سحب كثيفة

فوق الأرض المنخفضة والقرى ، والتفت قنن الجبال المكلفة بالجليد بغلالة من الضباب الرمادي اللون ، وكان الهواء قد تخلخل وغدا خانقاً ، وسرت إشاعة بأن الأبركة عبروا النهر الذي كان قد اضمحل ماؤه في ذلك الوقت ، وأخذوا يعيشون في هذا الجانب منه ، وكانت الشمس تغرب في كل ليلة شعلة حمراء متوهجة ، كما كان هذا الوقت هو أكثر أوقات السنة ازدحاماً بالعمل ، فقد كان القرويون جميعاً يحشدون في حقول البطيخ وفي الكروم ، وكانت الكروم قد غطاها عشب كثيف أخضر ملتف فباتت منه في ظل رطيب ظليل ، وكنت ترى في كل مكان عناقيد العنب الناضجة المثقلة بحملها تطل عليك من بين الأوراق العريضة الشفافة ، وسارت العربات تقطع في بطء وتمهل على طول الطريق المغبر من أثر الكروم وقد علتها أكداس من العنب الأسود ، وكنت ترى في التراب عناقيد العنب التي هصرتها العجلات ، وكان الأولاد والبنات في قصائهم التي لطخها عصير العنب يركضون وراء أمهاتهم وقد حملوا العنب في أيديهم وحشوا به أفواههم ، وكنت تلتقي في الطريق باستمرار عمالاً في ثياب مهلهلة وقد لقعوا سلال العنب على أكتافهم القوية ، وكانت الفتيات القوزاقيات وقد عصبن رؤوسهن بمناديلهن حتى العيون - يسقن الثيران الخضبة المشدودة إلى العربات المملوءة بالثمار ، وكان الجنود الذين يمرّون بهن مصادفة يسألونهن شيئاً من العنب فيتسلقن العربات دون أن يوقفنها ويأخذن ملء أذرعتهن من العنب ، ويلقين به في أهذاب سترات الجنود .

وكان بعض الأسر قد بدأت فعلاً في عصر الثمار ، وملأت الهواء رائحة قشور حبات العنب الفارغ ، وكنت ترى الأحواض الحمراء القانية في ملاحق المباني القائمة في الأفنية ، وقد شمر العمال من النوغاي سراويلهم ولطخ العصير أرجلهم ، وحشرت الحنازير القابعة نفسها بين القشور الفارغة وأخذت تتمرغ فيها .

وكانت السقوف المسطحة للأكواخ الصغيرة مغطاة بعناقيد العنب السوداء التي كانت تجف في الشمس ، وازدحمت الغريان والعقاق حول الأسطج تلتقط الحب وتحوم من مكان إلى مكان .

وكان القوم يجمعون ثمار جهادهم طول السنة وقد بدا عليهم المرح ، وكان المحصول هذا العام جيداً وافرأ فوق المعتاد ، وكان ينبعث من الكروم الخضر الظليلة ، ومن ذلك البحر الطامي من العنب ، بل من كل مكان - ضحكات وغناء ومرح وأصوات نساء ، وتلوح للعين بوارق من ثيابهن الزاهية اللون . وكانت ماريانكا جالسة في عز الظهيرة بكreme الأسرة متظلة بشجرة خوخ ، تخرج غداء الأسرة من تحت عربة حل جوادها وقد جلس الصول (وكان قد عاد من المدرسة) أمامها مفترشاً غطاء جواد ، وراح يغسل يديه صاباً الماء عليها من إبريق صغير ، وكان أخوها الصغير قد خرج لتوه من البركة مباشرة ووقف يلهث ويمسح وجهه بكفيه العريضين ، وينظر قلقاً إلى أخته وأمه منتظراً غداءه

وكانت الأم العجوز - وقد شمعت كمياً عن ساعديها القويين اللذين لوجتهما الشمس - تعد العنب والسلك الجاف والقشدة المحترقة والخبز على منصدة تربة مستديرة صغيرة منخفضة ، ومسح يديه وخلع قبعة ورسم علامة الصليب واقترب من المنصدة وتربعت الأم وابنتها وجلسنا بقرب المنصدة . وكان الجو حتى في الظل حاراً شديد القيظ وغشيت الكرمة رائحة كريهة ، وانطلقت الريح المدفئة القوية التي تهب رؤوس أشجار الكمثرى والخوخ والتوت المتناثرة في أنحاء الكرمة هزات مطردة رتيبة ، إلا أنها عجزت عن أن تلطف من حرارة الجو

ورسم الصول إشارة الصليب مرة أخرى ثم تناول من خلفه إبريقاً صغيراً من الجكير كان قد غطى بورقة من أوراق العنب وشرب من مبسمه وناول المرأة

العجوز ، ولم يك يرتدى من الملابس إلا قيصاً حله عند عنقه فكشف عن صدره الأشعث القوى العضلات ، وكان البشر يعلو وجهه التحيل الماكر ، ولم يبد في حركة من حركاته أو كلمة من كلماته أى أثر لما ألفناه من لؤمه وخسته ، فقد كان ظاهر البشاشة يجرى على طبعه وسجيته . وقال وهو يمسخ لحيته المبللة : « ترى . أنتهى من القططة التى وراء الحظيرة الليلة ؟ » فأجابت زوجته : « سندبر الأمر إن لم يعقنا الجو » ، ثم أردفت : « إن آل دمكين لم ينتهوا بعد من جنى نصف محصولهم ، أما أوستنكا فتعمل بمفردها هناك وتهلك قواها » .

وقال الشيخ مزهواً : وماذا تنتظرين منهم ؟

وقالت العجوز وهى تناول الفتاة الإبريق : « هاك ، وخذى جرعة يا عزيزتى ماريانكا » ثم أردفت : « سيتوفر لنا بإذن الله ما نسد به نفقات حفلة الزفاف » . وقال الصول وهو يقطب ما بين حاجبيه تقطياً رقيقاً : « لن يكون الزفاف إلا بعد فترة من الوقت » .

ونكست الفتاة رأسها

وقالت الزوجة : « ولم لا نتحدث بالزفاف ؟ لقد تم الاتفاق ثم إن الوقت قد أزف »

فقال الصول : « لا تسبق الحوادث وترسمى الخطط قبل الأوان ، فإن الذى أمامنا الآن هو جنى المحصول »

وسأله العجوز : « هل رأيت جواد لوكاشكا الجديد ؟ لقد بادل بالجواد الذى أعطاه إياه ديمتري أندرييفتش » .

فقال الصول : « كلا ، لم أره » . ولكنى تحدثت مع الخادم اليوم فقال إن سيده قد تلقى ألف روبل أخرى »

وقالت العجوز : « إنه ليرفل في النعيم ، وما من وصف آخر أستطيع أن أصفه به » .

وكانت الأسرة كلها تشعر بالغبطة والرضا ، فقد كان العمل يسير سيراً حسناً والعنب أوفر وأجود مما توقعوا ، وألقت ماريانكا ببعض العشب إلى الثيران ، وطوت صدارتها واتخذت منها وسادة ، واستلقت تحت العربة على العشب الرطيب الذي وطئه الأقدام ، ولم تك ترتدى إلا منديلاً عصبت به رأسها وقيصاً أزرق من النسيج المطبوع باهت اللون ، إلا أنها كانت تشعر بحارة لا تحتمل ، فقد كان وجهها متقدماً ولا تدرى أين تضع قدميها ؟ وقد غامت عيناها من النوم والتعب ، وانفرجت شفتاها على غير إرادة منها وأخذ صدرها يعلو ويهبط وهي تتنفس تنفساً عميقاً .

وكان الموسم الذي يزدحم فيه العمل كل سنة - قد حل منذ أسبوعين ، وامتلات حياة الفتاة الآن بالكد الثقيل المتواصل ، وكانت تنهض في الفجر وتغسل وجهها بالماء البارد وتلف نفسها بشال وترع عارية القدمين لتعني بالماشية ، ثم تبادر فتستعمل خفها وترتدى صدارها وتحمل حزمة من الحبز ، وتسرج الثيران الخصية وتسوقها إلى الكروم حيث تقضى فيها اليوم بطوله تقطف العنب من الكروم وتضعه في السلال ثم تحمله ، ولا يتخلل هذا إلا ساعة واحدة تستريح فيها ، وكانت تعود إلى القرية في المساء مشرقة لا تحس تعباً وهي تجر الثيران الخصية وراءها من رسنها أو تسوقها أمامها بعضاً طويلة ، وكانت إذا ما فرغت من العناية بأمر الماشية أخذت بعض بذور عباد الشمس في كم قيصها الواسع وذهبت إلى ناصية الطريق ، لتكسرهما وتلهو بعض اللهو مع غيرها من الفتيات ، فإذ إن يحل الغسق حتى تعود إلى الدار وتتناول العشاء مع والديها ومع أخيها في ملحق الكوخ الصغير المظلم ، ثم

تذهب إلى الكوخ مكتملة الصحة خالية من الهم ، وتتسلق فتجلس على رف الموقد حيث تأخذ في الإنصات إلى حديث الساكن عندهم والنوم يثقل عينيها ، فإذا أوى استلقت على سريرها ونامت نوماً عميقاً هادئاً حتى صباح اليوم التالي ، وهكذا كانت تمر بها الأيام يوماً في إثر يوم ، ولم تكن الفتاة قد رأت لوكاشكا منذ اليوم الذي عقدت فيه خطبتها ، ولكنها كانت تنتظر يوم الزفاف في هدوء وسكون . وألفت ماريانكا ساكن دارهم ، وكانت تشعر بنظراته المتطلعة فتفيض نفسها بالبشر .

الغزل الشاذل

غطت ماريانكا رأسها بمنديلها ، وهمت بأن تخلد للنوم ، بالرغم من إلحاح الحر إلحاحاً لا مهرب منه واحتشاد الهوام في ظل العربة الرطيب وتقلب أخيها الصغير بجوارها ودفعه إياها دفعاً لا ينقطع . إلا أن جارتهم أوستنكا أقبلت فجأة تعدو نحوهم واندست بسرعة تحت العربة ، ثم استلقت بجوار ماريانكا .

وقالت أوستنكا وهي تتخذ مكاناً مريحاً تحت العربة : « أخلدن إلى النوم أيها الفتيات . أخلدن إلى النوم » ، ثم هتفت : « انتظرن لحظة ، فإن ما تعلمن لا يكنى » ، وانتصبت واقفة وقطعت بعض الأغصان الخضراء ورشقتها في العجلات على جانبي العربة ، وعلقت صدارها عليها ، وصاحت بالغلام الصغير وهي ترحف تحت العربة مرة أخرى « دعني أدخل ، أهذا مكان يليق بقوزاق أن يكون فيه مع الفتيات ؟ اغرب عنا ! » وما إن انفردت أوستنكا بصديقها تحت العربة حتى طوقها بذراعيها فجأة ، ثم راحت تقبل خديها وعنقها .

وظلت تردد بين الصرخات العالية والضحكات الصافية « حبيتي حبيتي »

وقالت ماريانكا وهي محاولة تخليص نفسها منها : « وى ! لقد تعلمت هذا من جدى ، حسن » .

وانفجرتا ضاحكتين ضحكاً مجلجلاً حتى صاحتا بهما أم ماريانكا أن اسكتا وسألها أوستنكا هامة : « أتراك غيوراً ؟ »

- هراء دعينا ننام ، ما الذى حملك على المجيء ؟

ولكن أوستنكا استرسلت فى حديثها قائلة : « سأنبئك بالسبب فتدعنى بالصبر » ورفعت ماريانكا نفسها على مرفقها ، وأصلحت من شأن منديلها

- حسن ، ما الخبر ؟

- إبنى لأعلم شيئاً من أمر الساكن عندكم .

فقالت ماريانكا : « ليس ثمة ما يستحق المعرفة ! »

وأجابت أوستنكا وهي تكثرها بمرفقها وتضحك : « آه ! يالك من فتاة مأكرة تأبى أن تقول شيئاً ! أويأتى لزيارتكم ؟ »

فقالت ماريانكا وقد احمر وجهها فجأة : « أجل ، إنه يزورنا ، وماذا فى

ذلك ؟ »

وقالت أوستنكا : « يالى من فتاة ساذجة ، لا أخفى عن أحد شيئاً ! وما الذى

يعمىنى على التصنع ؟ » ، وعلا التفكير والاهتمام وجهها المورد المشرق فجأة ثم أردفت : « إبنى لا ألحق الأذى بأحد ، أليس كذلك ؟ فأنا أحبه وهذا كل ما فى الأمر » .

- اتعنين جدى ؟

- أجل .

- ولكن هذا إثم .

- آه ياماريانكا ، متى تنعم الفتاة بشيء من المتعة إذن ؟ إذا هي لم تنتهز الفرصة وهي بعد خالية ؟ ألا ترين أنني سوف أنجب الأطفال حين أتزوج رجلاً قوزاقياً ، وتستغرق همومي كل وقتي ، وى ! إن وقتك أيضاً حين يتم زواجك من لوكاشكا - لن يتسع حتى للتفكير في متعة من المتع ، ولن تفرغى إلا للأطفال والعمل . وأجابت ماريانكا في هدوء : « حسن ! إن بعض من يتزوجن تعرف عليهن السعادة . والأمير يستوى » .

- صارحيني هذه المرة فحسب بما وقع بينك وبين لوكاشكا .
- ما وقع بيننا ؟ تقدم لوكاشكا لطلب يدي فأرجأ أبي ذلك سنة إلا أن الأمر قد سوى الآن وسيزوجونا في الخريف .
- ولكن ما الذى قاله لك ؟

وابتسمت ماريانكا
- وما عسى أن يقوله لى ؟ قال : إنه يحبني ، وظل يلح على في الذهاب إلى الكروم معه .

- ياله من صفيق ملحاح ! لم تطاوعيه بطبيعة الحال ، أليس كذلك ؟ لقد أصبح الفتى جريئاً لا يهاب شيئاً ، وإنه لفخر القرية وهو ينشر المرح حوله هناك أيضاً بين صفوف الجيش ، وقد عاد عزيزنا كبيركا أول أمس ، وهو معجب أشد الإعجاب بالجواد الذى حصل عليه لوكاشكا ، وإني لأحسب أن عقله مشغول بك لا يهدأ أو يقر له قرار ، وماذا قال أيضاً ؟

وقالت ماريانكا وهي تضحك : « أمن الضروري أن تعرفي كل شيء ؟ لقد جاء إلى نافذتي ذات ليلة ثملاً يمتطي صهوة جواده وسألني السماح له بالدخول .
- ولم تسمحين له بالدخول ؟

فأجابت ماريانكا في جد : « أسمح له بالدخول حقاً ، إننى لا أقول قولاً مرة إلا بدا عليه ثبات الصخرة » .

- ولكنه شاب ظريف ، وما من فتاة تتأذى عليه إذا رغب فيها .
فأجابت ماريانكا في فخر : « حسن ، فليذهب إلى الفتيات الأخريات »
- ألا ترأفين لحاله ؟

- أجل ، ولكننى لا أسمح بالعبث ، فإنه إنم
ومالت أوستنكا برأسها فجأة على صدر صديقها وأمسكت بها ، وانطلقت من
فها ضحكة مكبوتة هزت جسمها هزاً ، ثم هتفت لاهثة : « أيتها الحمقاء الغبية ،
ألا تحبين أن تكونى سعيدة » ، وراحت تدغدغ ماريانكا

وقالت ماريانكا ، وهى تصرخ وتضحك « ويحك ! دعينى »
وانطلق صوت المرأة العجوز من العربة يغالب النوم قائلاً : انظروا إلى هاتين
الملعونتين الصغيرتين ، ما أشد مرحهما ! أو لم يحل لهما التعب بعد ؟ »
وكررت أوستنكا قولها هامسة وهى تهتمهم قليلاً : « إنك لا تريدين السعادة ،
ولكنك موفقة ولا شك ، فما أكثر حبهن لك ! وإنك لمنبعة كثيرة الأشواك ، ومع
ذلك فهم يحبونك ، آه لو أننى كنت فى مكانك لأدريت رأس نزيلكم سريعاً ! فقد
لاحظت عندما كنتم فى دارنا أنه يكاد يلتهمك بعينه التهاماً ، يا للهدايا التى أغدقها
على جدى ، أما نزيلكم فهو على ما يقولون أغنى الروس طراً ، ويقول مراسلته :
إن لديهم عبيداً ملك أيديهم »

ورفعت ماريانكا نفسها وفكرت لحظة ثم ابتسمت
وقالت وهى تجز بأسنانها على نصل من العشب : « أتدريين ما قاله لى مرة ،
أقصد ذلك الذى يسكن عندنا ، قال : « تمنيت أن أكون قوزاقياً مثل لوكاشكا

أو مثل أخيك لازوتكا ، فما الذى عناه بذلك فى رأيك ؟ »
 فأجابت أوستنكا : « أوه ! أنباك بأول خاطر طراً على ذهنه ، وأى شىء
 لا يتحدث به نزيلنا ! لكأنما أصابته لوثة ! »
 وألقت ماريانكا رأسها على صدرها المطوى ، ولقت ذراعها حول كتف
 أوستنكا ثم أغمضت عينيها ، ولزمت الصمت برهة قصيرة ، ثم قالت : « كان
 يريد الحضور والعمل فى الكرمة اليوم ، فقد طلب منه أبى ذلك » ، وما لبثت أن
 أسلمت عينيها للنعاس .

الفضل الحادي والثلاثون

كانت الشمس قد بزغت من خلف شجرة الكمثرى التي كانت تظلل العربة ، وأخذت أشعتها تلمح وجهي الفتاتين النائميتين غير عابئة بجذوع الأشجار التي رشقتها أوسنتكا في العربة ، واستيقظت ماريانكا ، وبدأت تصلح من شأن المنديل على رأسها ، والتفتت خلفها فيما وراء شجرة الكمثرى ، فرأت نزيلهم واقفاً يتحدث مع أبيها وقد حمل بندقيته على كتفه ، عندئذ لكزت أوسنتكا ودلتها عليه وهي تبسم . وكان أوليين يقول وهو يتلفت حوله قلقاً ولا يرى ماريانكا من خلال الغصون : « ذهبت البارحة ولم أجد شيئاً »

وقال الضابط حامل العلم مغيراً لهجة حديثه في الحال : « آه ! يجب أن تذهب في ذلك الاتجاه ، وتسير في نصف دائرة ، فتجد كومة مهجورة تشبه الأرض الفضاء تمرح فيها دائماً الأرانب البرية »

وقالت العجوز في مرجح : « جميل أن تمضي في طلب الأرانب البرية في هذا الوقت الذي يزدحم بالعمل ! وكان أولى بك أن تأتي لتساعدنا ، وتشارك الفتيات

في بعض ما يعملن ، ، ثم صاحت : « ايه ! أينها الفتاتان هلماً وانهدا ! »
وكانت ماريانكا وأوستنكا تنهامسان تحت العربة لا تكادان تستطيعان
لضحكهما رداً .

وكان مضيفا أوليين قد ازدادا تقريباً إليه من يوم أن شاع الخبر بأنه منح لوكاشكا
جواداً يساوى خمسين روبلاً ، وبدا أن حامل العلم كان يسر بصفة خاصة إذ يرى
روابط الألفة تنمو بين ابنته وبين أوليين .

ورد أوليين قائلاً : « ولكني لا أعرف كيف أشارك في هذا العمل ؟ » ، وراح
يتحاشى النظر من خلال الغصون الخضراء إلى ما تحت العربة حيث رأى لتوه قييص
ماريانكا الأزرق ومنديلها الأحمر .

وقالت الزوجة العجوز : « تعال ، سأعطيك بعض الخوخ »
وقال حامل العلم يشرح كلمات زوجته كأنه يصححها : « إنه الكرم القوزاق
القديم على ما صورته لها غباؤها في هذه السن العالية ، وإني لأحسب أنك ألقت في
روسيا أن تأكل ما يحلو لك من مربي الأناناس أكثر من أكل الخوخ » .
وسأل أوليين : « وهكذا تقول : إن الأرانب البرية في الكرمة المهجورة ، إذن
فإني ماض إليها » . وألقى نظرة سريعة من خلال الغصون الخضراء ، ورفع قبعته ثم
اختفى بين صفوف الكروم الخضر المتظمة .

وكانت الشمس قد غابت خلف سياج الكروم ، وأخذت أشعتها المتكسرة
تتألق من خلال أوراق الأشجار الشفيفة عندما عاد أوليين إلى كرمة مضيفه .
ونخفت حدة الرياح وسرت في الجونسات عذبة رطبية ، وتبين أوليين بشيء أشبه
بالغريزة قييص ماريانكا الأزرق عن بعد من خلال صفوف الكروم ، وأخذ يقترّب
منها ملتقطاً في طريقة حبات العنب ، وسبقه كلبه المجهد ملتقطاً هو الآخر العنب

الداني القطوف بضمه المبلل .

وكانت ماريانكا تقطع العناقيد المثقلة بالثمار مسرعة وقد توردد وجهها بحمرة الحجل ، وشمرت عن ساعديها ، وتدلّ مندليها إلى ما تحت ذقنها ، ثم تضعها في سلة ، وتوقفت تبسم له في بشاشة ولطف دون أن تترك الكرمة التي كانت ممسكة بها ، ثم استأنفت عملها ، واقترب أوليين منها ولفع بندقيته على ظهره حتى تخلو يدها ، وهم بأن يقول : « أين الفتيات الأخريات ؟ كان الله في عونك ! أو أنت وحده ؟ » ولكنه أحجم ، واكتفى برفع قبعة ملترماً الصمت ، كان يحس بالضيق إذا انفرد بماريانكا ، ولكنه اقترب منها كأنما تعمد أن يعذب نفسه .

وقالت ماريانكا : « لتصيب النساء بطلقاتك وأنت تضع بندقيتك في هذا الوضع » .

- كلا ، لن أصيب . وأخذ كل منهما إلى السكون ، ثم قالت ماريانكا بعد لحظة : « ينبغي أن تساعدني » ، وأخرج مديته وشرع يقطع عناقيد العنب في صمت وما إن دنا من الشجر ووقف تحت أوراقه حتى قطع عقوداً غزير الحب ، يزن نحو ثلاثة أرطال ، وقد بلغ من تراحم ثماره أن الحبات لم تجد فسحة تنمو فيها فاستطالت جميعاً ، ثم أطلع ماريانكا على العقود .

- أوينبغي قطع العناقيد كلها ؟ ألا ترين أن هذا العقود لا يزال بعد غصاً لم

ينضج ؟

- أعطنيه

وتلامست منها اليدان ، وأمسك أوليين بيدها فنظرت إليه وهي تبسم وسألها : « أوقد أعترمت الزواج قريباً ؟ »

ولم تجب ، بل أشاحت عنه وتلاشى أثر الابتسام في عينيها ،

- أوتحين لو كاشكا ؟

- وما الذى يعنك من هذا الأمر ؟

- إني لأحسده

- هذا محتمل جداً

- أؤكد لك ما أقول ، ألا ما أروع حسنك !

وشعر فجأة بالخجل الشديد مما قال ، وبدت هذه الكلمات فى عينه تافهة مبتذلة ، واحمر وجهه وفقد السيطرة على نفسه ثم أمسك بيديها جميعاً .

وأجابته ماريانكا : « مهما يكن من أمرى فلست لك ! إذن ما بالك تسخر منى ؟ » ، ولكن نظراتها كان يتجلى فيها بأجلى بيان أنها تعلم علم اليقين أنه لا يسخر منها .

- أسخر منك ؟ آه ! لو تعلمين كم . . . !

ورنت الكلمات فى أذنيه فإذا بها لا تزال تافهة مبتذلة لا تتفق فى شىء كثير مع حقيقة مشاعره ، إلا أنه استرسل يقول : « لست أدري : أثمة شىء لا أقدم عليه من أجلك » .

- دعنى وشأنى أيها اللعوج !

ولكن وجهها وعينيها المشرقتين وصدرها الناهد وساقها الجميلتين كانت تقول شيئاً يخالف ذلك كل الاختلاف ، وخيل إليه أنها تدرك تفاعله كل ما قاله لها ، إلا أنها كانت أرفع من هذه الاعتبارات ، وخيل إليه أيضاً أنها كانت تعرف منذ زمن بعيد كل ما كان يصبو إليه ، وإن عجز عن أن يوح بما يكنه قلبه ، ولكنها أرادت أن تسمع منه كيف يعبر عنه ؟

ثم قال بينه وبين نفسه : « وكيف لا تعلم وأنا إنما أريد أن أحدثها بكل ما فيها

من صفات ؟ ولكنها لا تود أن تفهم ولا تريد أن تجيب ! »
وانطلق صوت أوستنكا الحاد فجأة من خلف الكروم هاتفاً : « هالو ! » ، ثم
ضحكت ضحكتها الخادة وهي تدس وجهها الصغير الساذج المستدير بين الكروم
« تعال وساعدني يا ديمتري أندرييفتش ، فليس هنا من أحد سوى »
ولم يجب أولنين أويتحرك من مكانه .

وواصلت ماويانكا قطع عناقيد العنب ، ولكنها لم تكف عن النظر إلى
أولنين ، وكان انفتى على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه أمسك ، ثم هز كتفيه ،
وزحزح سير البندقية على كتفه ، وخرج من الكرمة في خطوات سريعة .

الفضل الثاني والثلاثون

توقف أوليين مرة أو مرتين منصتاً إلى ضحكات ماريانكا وأوستنكا الرنانة ، وكأننا قد اجتمعنا وأخذنا نقولان شيئاً بصوت مرتفع ، وقضى المساء كله بصيد في الغابة ، وعاد في الغسق صفر اليدين ، و ملح - وهو يجتاز الفناء - باب ملحق الدار مفتوحاً ، وقد ظهر منه قبص أزرق ، ونادى فانيوشا بصوت بالغ الارتفاع حتى يعرف القوم أنه عاد ، ثم جلس في مدخل مسكنه في مكانه المعتاد ، وكان مضيفوه قد عادوا من الكرمة ، وخرجوا من ملحق الدار ودخلوا كوخهم ، ولكنهم لم يدعوه إليه ، وخرجت ماريانكا من الباب مرتين ، وقد لاح له ذات مرة في الغسق أنها كانت تنظر إليه ، فتتبع كل حركة من حركاتها بعينين نهمتين ، ولكنه لم يستطع أن يجزم أمره على الدنو منها ، ثم اختفت في الكوخ ، فغادر هو المدخل ، وشرع يذرع الفناء منصتاً إلى كل صوت في كوخ مضيفيه ، وقد سمعهم يتحدثون في المساء ، وسمعهم يتناولون عشاءهم ويخرجون فراشهم ثم يأوون إليه ، وسمع ماريانكا تضحك من شيء ، ثم سمع كل شيء يخيم عليه السكون رويداً رويداً .

وظل حامل العلم وزوجته يتهامسان برهة قصيرة ، وسمعت أنفاس شخص تتردد ، وعاد أوليين إلى كوخه فوجد فانيوشا نائماً بملابسه ، فحسده على ذلك ، ثم خرج يذرع الفناء مرة أخرى مترقباً في كل لحظة أن يرى أحداً ، ولكن لم يأت أحد ولا تحرك أحد ، ولم يصل إلى سمعه إلا أنفاس ثلاثة أشخاص تتردد في انتظام ، وكان يعرف تنفس ماريانكا ، وينصت إليه وإلى نبضات قلبه هو ، وكان كل شيء في القرية هادئاً ساكناً ، وبرز القمر المتضائل متأخراً ، وازداد تنفس الماشية العميق وضوحاً في الفناء وهي ترقد أو تنهض مترتبة مستأنية ، وراح أوليين بسائل نفسه غاضباً : « ترى ما الذي أريده ؟ » إلا أنه لم يستطع أن يتزع نفسه من بحر الليل وفتته . وخيل إليه فجأة أنه سمع بوضوح قرقة تنطلق من أديم كوخ مضيقه ، ووقع أقدام تسير عليه ، فهرع إلى الباب ، ولكن السكون عاد وخيم على كل شيء ، وانقطعت الأصوات إلا صوت التنفس المنتظم ، ثم زفرت الجاموسة التي في الفناء زفرة عميقة ، وتحركت مرة أخرى ، وانصببت على قوائمها ولوحت بذيلها ، وانساب كل شيء على أديم الأرض الصلصالية الجافة بجرحر خرخرة متداركة ، ثم رقدت الجاموسة مرة أخرى في ضوء القمر الباهت ، وتساءل أوليين : « ماذا عساي أن أفعل ؟ » ، وحزم أمره على أن يأوى إلى فراشه ولكنه عاد فسمع أصواتاً ، وتراءى له شبح ماريانكا خارجة في هذه الليلة التي يغشاها الضباب ولا يضيئها إلا نور القمر ، فهرع ثانية قاصداً إلى نافذتها ، وعاد فسمع وقع أقدام ، فلم يذهب إلى النافذة إلا قبيل الفجر ، وأخذ يدفع مصراعها ثم جرى إلى الباب ، فسمع هذه المرة حقاً تنهد ماريانكا ووقع أقدامها ، وأمسك بالمزلاج وقرع الباب ، فلم يكن يسمع لوقع أقدامها العاريتين الحذرتين صريراً على أديم الكوخ وهما تقتربان من الباب ، وأحدث رفع المزلاج صوتاً وصر الباب ، وشم رائحة واهنة

تنبعث من نبات المردقوش والقرع عندما ظهر شبح ماريانكا فى مدخل الباب ، ولم يرها إلا لحظة فى ضوء القمر ، ثم صفقت الباب وغمغمت بشيء ، ثم ارتدت بسرعة فى خفة وهرع أوليين يقرع الباب قرعاً رقيقاً إلا أنه لم يتلق جواباً ، فركض إلى النافذة وراح ينصت ، فأفرعه صوت رجل ينبعث عالياً حاد النبرات . وهتف قوزاق شاب أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، وكان يلبس قبعة بيضاء ، ويحتاز الفناء بالقرب من أوليين : « شيء جميل ! لقد رأيت كل شيء . . . شيء جميل ! »

وعرف أوليين نازاركا ، فأخذ إلى الصمت ولم يدر ماذا يفعل أو يقول ؟ - شيء جميل ! سأمضى وأنبهم فى الإدارة بالأمر ، وسأخبر أباه ! يا لها من ابنة عطرة السيرة جديرة بحامل علم ! ألم يكفها رجل واحد ؟

وقال أوليين : « ما الذى تريده منى ؟ وما الذى تسعى إليه ؟ »

- لا شيء ! وكل ما فى الأمر أننى سأقص عليهم الخبر فى الإدارة

وكان نازاركا يتحدث بصوت مرتفع جداً حتى لقد بدا جليلاً أنه يعتمد ذلك تعمداً ، ثم أردف : « ألا ما أبرعك يا طالب الحرية ! »

وارتعدت أوصال أوليين واصفر لونه ، وقال : « تعال هنا تعال ! »

وأمسك بذراع القوزاق فى قوة ، وقاده إلى كوخه وقال له : « لم يقع منى شيء فإنها لم تسمح لى بالدخول وما كنت لأقصد بها شراً وإنها لفتاة شريفة . . . » - ما لنا وهذا الأمر . . . ؟

- ومع كل فإنى سأنفحك بشيء الآن ، فانتظر لحظة !

ولم ينس نازاركا بيتت شقة ، وهرع أوليين إلى كوخه وجاء بعشرة روبلات نفع بها القوزاق .

- لم يقع منى شيء ، ولكننى ما زلت حقيقاً باللوم ، ولذلك أعطيك هذه !
سألتك الله ألا تكشف أمرى لأحد ، فإنه لم يقع منى شيء ! . .

وقال نازاركا وهو يضحك : « أرجو لك الهناء والسرور » ، ثم ولى ،
وكان نازاركا قد أتى إلى القرية في تلك الليلة عملاً بأمر لوكاشكا ، ليبحث عن
مكان يخفى فيه جواداً مسروقاً ، وسمع وقع أقدام في الفناء في طريقه إلى داره ، فلما
عاد في صبيحة اليوم التالى إلى سريره باح بالسر إلى صديقه ، وشرح له كيف
اكتسب بمهارة عشرة روبلات ؟

ولقى أوليين مضيفيه في صباح اليوم التالى ، وكانوا لا يعلمون شيئاً عن حوادث
الليلة الماضية . ولم يتحدث الفتى إلى ماريانكا . وكل ما فى الأمر أنها ضحكت
قليلاً عندما نظرت إليه ، وقضى الليلة التالية أيضاً مسهداً يضرب فى الفناء على غير
هدى ، وتعمد أن يقضى نهار اليوم الذى يليه فى الصيد ، وذهب فى المساء للقاء
بيليتسكى هرباً من أفكاره . وكان يخشى ما يحس به من مشاعر ، فقطع على نفسه
العهد ألا يذهب إلى كوخ مضيفيه مرة أخرى .

وفى الليلة التالية أيقظه الباشجاويش . فقد صدر الأمر إلى سريره بالمضى لتوها
فى غزوة من الغزوات .

وقد سر أوليين بذلك ، وظن أنه لن تكتب له عودة إلى القرية .
واستمرت الغزوة أربعة أيام ، ورغب القائد فى لقاء أوليين ، وكان من
أقربائه ، وعرض عليه أن يستبقه بين أركان حربه ، فأبى أوليين ، إذ تبين له أنه
لا يستطيع الإقامة بعيداً عن القرية ، وطلب من القائد السماح له بالعودة إليها .
وأُنعِمَ عليه نظير اشتراكه فى الغزوة بوسام الصليب الذى كان يتنهف عليه من قبل ،
وقد عاد الآن لا يهتم به ، وكان إلى ذلك أقل احتفالاً بترقيته التى لم يك الأمر

الصادر بها قد وصل إلى السرية بعد .

وركب أولينين جواده ، وعاد إلى النطاق وفي صحبته فانيوشا دون أن يقع له حادث مستبقاً سائر جنود السرية بوضع ساعات ، وقضى المساء كله في مدخل كوخه يرقب ماريانكا ، وراح يحول في الفناء طول الليل لا يسعى إلى شيء ولا يخطر بباله فكرة .

الفصل الثالث والثلاثون

وكان الوقت متأخراً عندما استيقظ في صباح اليوم التالي ، فلم يجد مضيفيه في كوخها ، ولم يخرج للصيد بل راح يتناول كتاباً حيناً ، ويخرج إلى مدخل الكوخ حيناً ، ثم يعود إلى الكوخ ويستلقي على فراشه حيناً ، حتى ظن فانيوشا أنه قد ألم به مرض .

ونهض أوليين قرب المساء وأخذ يكتب في عزم وتصميم ، واستمر على ذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكتب خطاباً ولكنه لم يلقه في البريد ، فقد أحس بأنه لا ينتظر أن يفهم أحد ما كان يريد أن يقول ، زد على ذلك أنه لم تكن ثمة ضرورة تقتضي أن يفهم ذلك أحد سواه .

« أتلقى خطابات من روسيا ترقى لحالي ، ذلك أن القوم يخشون على الضياع وأنا مدفون في هذه الأرض الموحشة ، ويزعمون أنني بلا شك مصبح رجلاً فظاً خشن الطباع متخلفاً عن عصرى في كل شيء وأنتى سوف أدمن الشراب ، ومن يدري ؟ فقد أتزوج فتاة قوزاقية وإن القائد ييرمولوف لم يكن عابثاً حين قال : « إن كل من

يخدم في القوقاز عشر سنوات : إما أن يذمن الشراب حتى يموت ، وإما أن يتزوج فتاة خليعة فاسدة الخلق ! « ألا ما أقطع هذا ! الحق أنه ليس من الخير أن أورد نفسي مورد التهلكة في حين أنني أستطيع أن أنعم بسعادة عظيمة فأتزوج الكونتس ب . . . نفسها أو أغدو أميناً في القصر أو مشيراً من النبلاء في ناحيتي ، واهأ لكم ! لشدة ما تشمئز نفسي منكم جميعاً وما أكثر ما تثيرون في الرثاء لحالككم ! إنكم لا تعرفون معنى السعادة ولا كنه الحياة ! ألا ما أجدر المرء بأن يذوق مرة حياة ماثلة في جبالها الطيبى كله ! أجل يجب عليه أن يرى كل يوم ما أرى ويفهم ما أفهم : يرى تلك القمم المنبئة المكحلة بالجليد التي لا سبيل إلى الوصول إليها إلى ما شاء الله ، ويرى امرأة يحف بها الجلال في جبالها الفطرى الذى برأ الله عليه أول امرأة سواها ! وعندئذ تتجلى الحقيقة وتبين من الذى يورد نفسه مورد التهلكة ؟ ومن الذى يحيا حياة صادقة لا زيف فيها : أنتم أم أنا ؟ آه ! لو علمتم كيف تبدون لى في أوهامكم جذيرين بالاحتقار حقيقين بالرثاء !

وإني لأشعر بالثورة تحتاح نفسي إذا ما تصورت أنني استبدلت كوخى وغاباى وحى بهاتيك الأبهاء المعدة للاستقبال ، وأولئك النسوة بشعرهن المضمخ تطل منه الخصل المستعارة . وتلك الشفاه المتجهمة على نحو عجيب لا يألفه الناس ! وتلك الأطراف المستوردة الواهنة الشائبة ، وتلك الثروة المفروضة تلازم أحاديث الصالونات النافهة ، ثم أرى أمامى تلك الوجوه الكليبة وأولئك الفتيات الثريات الصالحات للزواج اللاتى ينظرن إليك كأنما يقلن : « لا عليك فإنك تستطيع أن تقبل على وإن كنت غنية » ، وتلك المقاعد ترتب ثم يعاد ترتيبها ، وتلك الوساطة المحجلة في أمور الزواج ، وتلك الثروة وذلك الانتظار للذين لا يعرفان حداً ولا نهاية ، وتلك القواعد والمراسيم التي تبين لك من الذى تصافحه ومن الذى

تكنفى فى تحيته بإيماءة من رأسك ، ومن الذى تتحدث اليه (وكل ذلك يقدم المرء عليه عامداً مؤمناً بأن لا مفر له منه) وذلك السأم المتصل الحلقات الذى يجرى بجرى الدم فى العروق وينتقل من جيل إلى جيل ، وإني لأهيب بكم أن تحاولوا أن تفهموا أو تؤمنوا بهذا الشيء لا سواه : وهو أن الأمر لا يقتضيكُم إلا أن تتروا وتفهموا الحق والجمال ، فإن فعلتم انهار كل ما تقولونه الآن أو تفكرون فيه ، وانهارت كل تمنياتكم لى ولأنفسكم وضاعت فى الرغام .

« إن السعادة هى أن تعيش مع الطبيعة تراها وتتحدث إليها وإني لأتحيلهم يقولون عنى فى رثاء صادق لا تصنع فيه ولا تكلف ومن يدرى لعله يتزوج (لا قدر الله) فتاة قوزاقية من السوق ، فتضع مكانته فى المجتمع أيما ضياع ! على أن الشيء الوحيد الذى أريده هو أن « تضع مكانتى » بالمعنى الذى قصدوه من هذه العبارة ، أجل أريد أن أتزوج فتاة قوزاقية من السوق ، ولكنى لا أجرؤ خشية أن يبلغ بى ذلك إلى ذروة من السعادة لا أستحقها .

« لقد انقضت ثلاثة أشهر مذ رأيت لأول مرة الفتاة القوزاقية ماريانكا ، وكانت آراء العالم الذى تركته وأهواؤه لاتزال حية فى نفسى ، ولم أك أعتقد وقتئذ أننى مستطيع أن أحب هذه المرأة ، لقد كنت أفرح بجمالها فرحى بالجمال والسماء ، ولم أك أملك إلا الفرح ، لأنها جميلة جمال الجبال والسماء . وتبين لى أن مشاهدة جمالها أصبحت ضرورة من ضرورات حياتى ، وبدأت أتساءل : أترانى أحبها ؟ ولكنى لم أجد فى قرارة نفسى شيئاً شبيهاً بالحب كما تخيلته : ذلك أن حى لم يكن هو القلق النابع من الوحدة أو الرغبة فى الزواج ولا هو بالحب العذرى ، بله الحب الشهوانى كما خبرته ، وإنما كان إحساساً بالحاجة إلى أن أراها ، وأن أسمعها وأن أعرف أنها قريبة منى ، فإذا غاب عنى الشعور بالسعادة كنت على الأقل مطمئن

النفس هادئ البال .

« وقد حدث أن ضمنا مجلس ذات ليلة ، فلقيتها ولمستها ، فأحسست بأن بيني وبين تلك المرأة رباطاً لا تنفصم عراه ، رباطاً لا يعترف الناس به ولا حيلة لي في مقاومته ! ومع ذلك فقد قاومت ، وساءلت نفسي : « أمن الممكن أن أحب امرأة لا تدري شيئاً أبداً عن أدق شئون حياتي ؟ أيجوز أن أحب امرأة لجمالها وحسب ، فأحب تمثالاً ؟ » ولكني كنت قد وقعت في شرك حبها فعلاً وإن كنت لم أستوثق بعد من حقيقة مشاعري !

لقد تغيرت علاقاتنا بعد تلك الليلة التي حادثتها فيها لأول مرة ، فقد كانت من قبل تبدو لناظرى شيئاً نائياً جليلاً له وجود مستقل بذاته عني . ولكنها أصبحت من بعد وكأنها بشر من لحم ودم ، ورحلت أنقاها وأتحدث إليها ، وكنت أذهب أحياناً فأشتغل لأبيها وأقضي ليالي بطولها مع أسرتها . وظلت صورتها في عيني خلال هذه الاجتماعات العائلية الوثيقة ، كما كانت طاهرة بعيدة المنال تحف بها المهابة والجلال ، وكانت تجيب دائماً في هدوء وإباء وحيدة ممزوجة بالبشاشة والمرح ، تظهر الود حيناً ، وتبدو في كل نظرة من نظرتها وكل كلمة من كلماتها وكل حركة من حركاتها هذه الحيدة في معظم الأحيان ، إلا أن حديثها لم يكن يشوبها الاستخفاف والازدراء بل كانت حيدة تسيطر على النفوس وتفتح القلوب !

وقد كنت في كل يوم أحاول متكلفاً الابتسام ، أن أمثل دوراً معها فأمازحها وأبأسطها ، وقلبي يتمزق من الرغبة والهوى ، وكانت ترى أنني أتكلف ، بيد أنها كانت تنظر إلى نظرات مستقيمة في غبطة وساطة ، وأصبح هذا الموقف فوق ما أطيق ، ذلك أنني كنت لا أحب أن أخادعها بل أقول لها كل ما أشعر به وأفكر فيه ، كنت مضطرباً غاية الاضطراب وكنا في الكرمة عندما أخذت أبوح لها بحبي في

عبارات ينجلى الآن أن أذكرها : أما الخجل فلأن الواجب كان يقتضى
ألا أتجاسر بالتحدث إليها في ذلك ، كانت أرفع كثيراً من كلماتي ، وأسمى من الشعور
الذى أردت أن أعبر عنه بهذه الكلمات فأمسكت من بعد عن الكلام ، إلا أن
موقفي أصبح من يومها عسيراً لا يطاق ! ولم أشأ أن أذل نفسي بالمضى في علاقتنا
السابقة المستهجنة ، وشعرت في الوقت نفسه بأنني لم أبلغ معها مستوى العلاقة
المستقيمة البسيطة ، ورحت أسائل نفسي في قنوط ويأس : « ماذا عساي أن
أفعل ؟ » وتحيلت في أحلامي العابثة أنها قد غدت محطتي تارة وزوجتي تارة
أخرى ، ولكنني أنكرت الصورتين في نفور واشمئزاز : فإن جعلت منها امرأة
مستهرة فاجرة كان ذلك شائئاً شنيعاً ، بل هو القتل بعينه ، وإن جعلت منها سيدة
مهذبة راقية ، وزوجة لديمترى أندرييفتش أولينين كما حدث لامرأة قوزاقية من أهل
هذه القرية تزوجت أحد ضباطنا - كان ذلك أشنع ، ولكن أنقلب الآن قوزاقياً
كلوكاشكا وأسرق الحياض ، وأشرب الخكير حتى أسكر ، وأنشد الأغاني المرحية وأقتل
الناس ، فإذا سكرت تسورت عليها النافذة وقضيت ليلتي دون أن أفكر : من
أكون ؟ وما شأني ؟ فهذا شئ آخر ، وقد نستطيع أن نتفاهم وأن أكون سعيداً .
« لقد حاولت أن ألقى بنفسى في غمار ذلك اللون من الحياة ، إلا أنني كنت
ما أزال أكثر إدراكاً لضعفى وتكلى ، فقد عجزت عن نسيان نفسى أو نسيان ماضى
المعقد الشائه القبيح ! وبدا المستقبل في عيني أشد ابتعائاً لليأس والقنوط ، لقد كنت
كل يوم أرى أمامى الجبال النائية يكللها الجليد وتلك المرأة المهية الجليلة السعيدة ،
ولكن السعادة « الوحيدة » التى أتيتحت لى في هذا العالم لم تك من نصيبى ، فقد
كنت عاجزاً عن أن أحظى بهذه المرأة ! وإن شر ما فى حالتي وأغرب ما فيها هو
إحساسى بأننى أفهمها ، أما هى فلن تفهمنى أبداً لا لأنها دونى مرتبة ، بل لأنها على

العكس يجب ألا تفهمنى فهى سعيدة وهى كالطبيعة نفسها منطلقة تجرى على سجينها هادئة مكفية بذاتها ، أما أنا فمخلوق ضعيف ناقص ، أريد منها أن تفهم نقصى وتذكر عذائى ! ولم أتم ليلتى ، بل رحت أمر تحت نافذتها مشرد الفكر ، لا أحاسب نفسى عما يدر منى فى حق نفسى !

« وفى اليوم الثامن عشر من الشهر خرجت سريقتى فى غزوة ، وقضيت ثلاثة أيام بعيداً عن القرية ، كنت حزينا ، فاقد الشعور جامد العاطفة ، وكانت الأغاني ، وألعاب الورق ، ومجالس الشراب ، والأحاديث تدور عن المكافآت فى الكتيبة ، وما إلى ذلك من أمور مألوفة تثير فى نفسى من الاشتزاز أكثر مما كانت تثيره من قبل ، وبالأمس عدت ورأيتها ورأيت كوخى والعم يروشكا ، ونظرت من مدخل كوخى إلى الجبال التى يكللها الجليد ، وتملكنى شعور من الفرح قوى جديد حتى أدركت كل شئ : أدركت أننى أحب هذه المرأة وأشعر بالحب الصادق للمرة الأولى بل (الوحيدة) فى حياتى وإنى لأعرف ما ألم بى ، ولا أخشى أن يحط هذا الشعور من قدرى .

أجل لست خجلاً من حى ، بل أنا فخور به ، وليس ذنبى أننى أحب فقد دهمنى الحب على غير إرادتى ، وحاولت أن أهرب من حى بإنكار ذاتى ، وحاولت أن أنسى السرور والسعادة فى ذلك الحب القوزاقى الذى ربط بين لوكاشكا وماريانكا فلم أفلح إلا فى إثارة لواعج حى وغيرتى !

إن هذا ليس هو الحب المثالى ، أو الحب السامى الذى عهدته فى نفسى من قبل ، وليس هو بذلك النوع من العلاقة التى تعجب فيها بحبك ، وتشعر أن مصدر عاطفتك يكمن فى أعماق نفسك وأنت حر التصرف فى أمر نفسك ، فإن هذا الشعور ألم بى أيضاً وكابدته ، أما الحب الذى تملكى فهو حب رغبة الاستمتاع فيه أقل ،

إنه شيء يخالف ذلك ، ولعلنى أحب الطبيعة فيها بل أحب كل ما هو جميل في الطبيعة مثلاً فيها ، على أننى لا أتحرك في ذلك بمحض إرادتى بل إن فى أعماق قوة فطرية تتخذ منى وسيلة إلى هذا الحب ، وأن ملك الله جميعاً والطبيعة بأسرها ليلقيان فى نفسى هذا الحب ويهيان فى هاتفين : « أحبا » وأننى لا أحبا بعقلى وبخيالى بل بكيانى كله ، وأنا فى حبي لها أشعر بنفسى جزءاً لا يتجزأ من ملك الله الفسيح السعيد .

« ولقد كتبت من قبل عن العقائد الجديدة التى أثارها فى نفسى حياة الوحدة التى أحباها ولكن مامن أحد يدرى مدى الجهد الذى اقتضاه نمو هذه العقائد فى أعماق نفسى ، ومدى الفرح الذى غمرنى عندما تبينها ورأيت سبيلاً جديداً من سبل الحياة يفتح أمامى . ولم يكن أعز عندى من تلك المعتقدات . . . والآن . . . جاء الحب ، فزالت هذه العقائد ولم يبق لها ولا للحسرة عليها أى وجود ! »
 « وإنه لمن العسير على أنا نفسى أن أصدق أننى كنت فى وقت من الأوقات أقدر ذلك الاتجاه العقلى الضيق الجامد ، فقد جاء الجمال فبدد كل ذلك الجهد الباطنى الشاق ، ولم يبق فى نفسى أثر من الندم على ما تولى وذهب ! والحق أن إنكار الذات بجميع صورته هراء فى هراء بل هو اعتزاز بالنفس وملجأ نزع إليه من شقاء نستحقه ، وسبيل إلى الخلاص من حسد يأكل قلوبنا لما نراه من سعادة الآخرين !

وقد جاء فى الأمثال « عش لغريك وافعل الخير » - ولكن كيف يتأتى لى ذلك ، وأنا لا أشعر فى أعماقى إلا بالحب لنفسى والرغبة فى أن أحبا وأحبا معها حياتها ؟ ولست أريد السعادة الآن للوكاشكا ولا لغيرى من الناس ، فقد أصبحت لا أحب هؤلاء الأغيار ، وقد كنت حقيقاً من قبل بأن أقول لنفسى : إن هذا خطأ ، وكان

ينبغي لى أن أعذب نفسى بهذه الأسئلة : ترى ما الذى ينتهى إليه أمرها ، وأمرى ، وأمر لو كاشكا ؟ أما الآن فلست أعبا بذلك كله . فأنا لا أحيا حر الإرادة أفعل ما أشاء ، وإنما تسيرنى إرادة أقوى من إرادتى ، إنى لأتعب ، ولكننى كنت ميتاً من قبل ، ولم أعرف الحياة إلا الآن ، ولأمضين اليوم إلى دارهم ، وأبوح لها بكل شىء . » .

الفضل الرابع والثلاثون

وذهب أوليين إلى منزل مضيفيه في ساعة متأخرة من ذلك المساء بعد أن فرغ من كتابة خطابه ، وكانت العجوز تجلس على أريكة خلف المدفأة تفك الشرائق في حين جلست ماريانكا حاسرة الرأس تحوك شيئاً على ضوء شمعة ، وما إن رأت أوليين حتى نهضت مسرعة وأخذت منديلها ومضت إلى المدفأة .

وقالت أمها : « أى يا عزيزتى ماريانكا ، هلا جلست معنا برهة ! »

وأجابت الفتاة : « كلا ، فأني حاسرة الرأس » ، وقفزت إلى المدفأة .

ولم يستطع أوليين أن يلمح إلا ركبتيها وساقاً من ساقها الجميلتين تتدلى من رف المدفأة وقدم الرجل الشاى إلى المرأة ، وقدمت هى إلى ضيفها قشدة مخمرة ، وكانت قد بعثت ماريانكا في طلبها ، ووضعت ماريانكا ملء طبق من القشدة على المنضدة ، ثم قفزت مرة أخرى مستوية على رف المدفأة . ولم يشعر أوليين إلا بعينها تحديقاً فيه النظر ، وأخذ القوم يتحدثون في شئون عائلية ، ونشطت السيدة أونتيكا وتملكتها نوبة من الكرم ، فجاءت له بعنب محفوظ وبفطيرة صنعت من العنب ،

وشىء من خمرها المعتقة ، وألحت عليه أن يأكل ويشرب بطريقة أهل الريف الخشنة التي يعتزون بها في ضيافتهم ، ولا تجدها إلا عند أولئك الذين يكسبون عيشهم بعرق جيئهم .

وقد تأثر أوليين هذه المرة بما أظهرته المرأة العجوز كثيراً من حنو فطرى نحو ابنتها ، وكانت قد أدهشته أول الأمر بقسوتها عليها .

- أجل ، يجب علينا ألا نغضب الخالق بالتبرم والسخط ، فإن عندنا والحمد لله ما يكفيننا من كل شىء ، فقد عصرنا ما يكفيننا من الجكير ، وأعدنا ما يكفيننا من المرى ، وإذا بعنا ثلاثة أو أربعة براميل من العنب بقى لنا مع ذلك ما يكفى شربنا ، فلا تتعجل الرحيل ، فإننا سنلهو ونمرح معاً في حفلة الزفاف . وسأل أوليين وقد أحس بالدم يتصاعد فجأة إلى رأسه وأخذ قلبه ينبض نبضاً أليماً غير منتظم : « ومتى الزفاف ؟ » وسمع عندئذ حركة على المدفأة وصوت لب يقطع .

وأجابت العجوز ببساطة وهذوء كأنها لا تشعر بوجود لأوليين : « لعلك تعلم أن ذلك ينبغي أن يتم في الأسبوع القادم ، فنحن مستعدون تمام الاستعداد ، فقد عزمنا أن نتم جهاز ماريانكا على الوجه الأكمل ، إن ثمة شيئاً واحداً لا يسير كما ينبغي ، فقد أخذ عزيزنا لوكاشكا في الآونة الأخيرة يتنكب الطريق السوى ممعناً في ذلك إمعاناً ، لقد عاد إلى ألعبيه ، ذلك أن قوزاقياً من رجال سريته جاء إلينا وقال : إنه مضى إلى منازل النوغاى . »

فقال أوليين : « يجب أن يلزم الحذر وإلا وقع في المكروه » .

- صدقت ، وإليك ما قلته له : « حذار يا لوكاشكا ، لا ترحب بنفسك فيما يعود عليك بالضرر ، أجل فإن الشاب يجب بطبيعته أن يقدم على عمل جرىء ، ولكن

فسحة العمر تبلغ الأمل ، هب أنك استحوذت على شيء ، أو سرفت شيئاً وقتلت رجلاً من الأبركة ، صحيح أنك فتى ولا كل الفتيان ، ولكن لا مناص من أن تستقر الآن وتهدأ وإلا جلبت على نفسك الضرر» .

وقال أولينين : « أجل ، لقد رأيته في الناحية مرة أو مرتين ، وكان ينعم دائماً بوقت سعيد ، وقد باع جواداً آخر » ، ثم نظر في اتجاه المدفأة .

ورنت إليه عينا سوداوان كبيرتان في قسوة بل في عداء وشعر بالحنج مما قال ، وهتفت ماريانكا فجأة : « وماذا عليه ؟ إنه لا يؤدي أحداً وإنما يروح عن نفسه بنقوده » ، ثم أنزلت ساقها ، وقفزت من فوق المدفأة وخرجت وهي تصفق الباب ، وراح أولينين يتابعها بنظراته وهي في الدار ، ثم تعلق بصره بالباب ، ولبت ينتظر غير مدرك شيئاً مما كانت تحدثه به السيدة أولتيكا .

وبعد لحظات أقبل بعض الضيوف : شيخ هو أخو السيدة أولتيكا يصحبه العم يروشكا في أثرهما ماريانكا وأوستنكا .

وقالت أوستنكا في صوت كأنه الصرير : « طاب مساؤكم » وأردنت ملتفتة إلى أولينين : « أما زلت في إجازة ؟ » .

فأجاب : « بلى ، ما أزال في إجازة » وشعر بالحنج والاضطراب دون أن يدري لذلك سبباً .

كان يريد الانصراف ، ولكنه لم يستطع ، وخيل إليه أيضاً أن من المستحيل أن يصمت . وسبقه الشيخ بالسؤال يلتمس كأساً ، وكان للقوم ما شاءوا ، فقد شرب أولينين مع يروشكا ، ثم مع القوزاق الآخر ، ثم مع يروشكا مرة ثالثة . وكلما أمعن في الشراب زاد همه ، إلا أن الشيخين شربا فطربا ، وتسلفت الفتاتان إلى المدفأة حيث جلستا تهماسان وتنظران إلى الرجال وهم مقبلون على كثوسهم حتى

ساعة متأخرة ، وأحجم أوليين عن الكلام ، بل راح يشرب أكثر من الآخرين ، وكان القوزاقيان يتصايحان ؛ فقد أبت العجوز أن تزيدهما من الجكير ، وحاولت أن تتخلص منها . وضحكت الفتاتان من العم يروشكا . ولم يخرج القوم جميعاً إلى مدخل الكوخ إلا بعد أن جاوزت الساعة العاشرة ، ودعا الشيخان نفسيهما لبيتا اللهو والمرح في مسكن أوليين ، وهرعت أوستنكا إلى دارها ، وقاد يروشكا القوزاقى الآخر المسن إلى فانيوشا . خرجت العجوز لتنظيف الحظيرة ، وظلت ماريانكا وحدها في الكوخ ، فأحس أوليين بالنشاط والانتعاش يدهان في أوصاله فجأة كأنه قد نهض من النوم لتوه ، وكان الفتى قد لاحظ كل شيء ، فترك الشيخين يبران به . ثم عاد أدراجه إلى الكوخ حيث وجد ماريانكا تنهياً للمضى إلى فراشها ، فقصد إليها وأراد أن يقول شيئاً فخافه صوته ، وابتعدت هى عنه ، وجلست على فراشها في ركن الغرفة واضعة ساقاً على ساق ، ونظرت إليه في صمت بعينين زائغتين وجلتين ، وكان من الواضح أنها خائفة منه ، وشعر أوليين بهذا فأدركه الأسى : وخجل من نفسه وتملكه في الوقت نفسه الزهو والسرور . لأنه استطاع على أقل تقدير أن يثير هذا الخوف في صدر الفتاة .

ثم قال : « ماريانكا ، ألا ترحمينى أبداً ؟ إننى لا أستطيع أن أعبر لك عن مبلغ ما يمكنه لك صدرى من حب » .

وابتعدت عنه أكثر وأكثر وقالت : « يا لصوت بنت الحان يلهج به لسانك ! لن تنال منى شيئاً » .

- كلا ، ليس ما أقول هو حديث بنت الحان . لا تتزوجي لو كاشكا ؛ فقد عزمت أن أتزوجك . .

وراح يحدث نفسه بعد أن بدرت منه هذه الكلمات : « ماذا أقول ؟ وهل

أستطيع أن أقول هذا القول غداً ؟ » ، وأجابه صوت ينبعث من أعماق نفسه :
« أجل أستطيع ، ولا يساورنى الشك فى أنى أستطيع ، بل إني لمردد هذا القول
الآن » .

أفلا تتزوجينى ؟

ونظرت إليه فى جد واهتمام ، وقد بدا أن خوفها ولى ، وانقضى .
- ماريانكا ، لقد كدت أجن ولم أعد أملك زمام نفسى ، ولأفعلن كل
ما تطلبيته منى . وخرجت الكلمات الرقيقة المجنونة من شفتيه طائفة مختارة .
وقاطعته الفتاة وقد أمسكت فجأة بذراعه التى مدها إليها وقالت :
« ولكن ما هذا الهديان ؟ » ولم تدفع ذراعه بل ضغطت عليها فى شدة بأصابعها
القوية الخشنة .

- أويتزوج السادة الفتيات القوزاقيات ؟ اغرب عنى !

- ولكن أفلا تتزوجينى ؟ إن كل شىء . . .

وقالت وهى تضحك : « وماذا تفعل بلوكاشكا ؟

وجذب الذراع التى كانت ممسكة بها ، واحتضن جسمها الفتي بقوة ، ولكن
ماريانكا أفلتت منه كالظبي الشارد ، وجرت عارية القدمين إلى مدخل الكوخ ،
وثاب أوليين إلى رشده وهاله ما فعل ، وأحس مرة أخرى بأنه بالقياس إليها قد بلغ
الغاية فى الحسة والدناءة ولكنه لم يندم لحظة على ما قال ، بل عاد إلى كوخه ، ولم
يلق نظرة واحدة على الشيخين اللذين كانا يشربان فى غرفته ، بل استلقى فى سريره
ونام نوماً عميقاً لم يعهده منذ أمد طويل .

افضل النماذج الثلاثة

كان اليوم التالى يوم عيد ، وقد خرج أهل القرية إلى الطريق مساء مرتدين ملابس العيد تزهو في ضوء الشمس الغاربة ، وكانوا في هذا الموسم قد استخرجوا من الخمر أكثر مما ألفوا ، وقد خلا القوم الآن من أعمالهم ، وكان على القوزاق أن يقوموا بحملة بعد شهر ، وكانت الاستعدادات تجري في كثير من العائلات لإقامة حفلات الزواج .

واجتمع الناس في الميدان أمام مركز القرية القوزاقية وقرب الحانوتين اللذين كان يبيع أحدهما الحلوى وبذور القرع ، ويبيع الآخر المناديل والمنسوجات القطنية المطبوعة ، وجلس الشيوخ على مصاطب دار المركز أو حولها مرتدين السترات الرمادية أو السوداء الوقور في غير ماوشى من ذهب أو أى نوع آخر من أنواع الزينة ، وكانوا يتحدثون في هدوء واتزان عن المحصول وعن الشباب وعن شئون القرية وعن الأيام الحالية ، وينظرون في رصانة ووقار إلى الشباب ، وكانت تمر بهم النساء والفتيات فيقفن ويحني رءوسهن وكان فتیان القوزاق يتمهلون في سيرهم احتراماً

ويرفعون قبعاتهم ، ويمسكون بها لحظة فوق رؤوسهم ، فيتوقفون عن الحديث ، ويرقب بعضهم المارة في صرامة وعنف ، وبعضهم في عطف وحنان ، وكان هؤلاء المارة أيضاً يرفعون قبعاتهم في بطء ، ثم يعودون فيضعونها على رؤوسهم .

ولم تكن الفتيات الفوزاقيات قد بدأن في رقصتهن المعروفة باسم « خوروفود »^(١) ذلك أنهن كن جالسات في جماعات ، وقد ارتدين صداراتهن الزاهية الألوان : وعصبن رؤوسهن بمناديلهن ، وأزلنهن على عيونهن ، واستوين على الأرض أوعلى المصاطب حول المنازل يحتمين من أشعة الشمس المائلة ، ورحن يضحكن ويتحدثن في أصواتهن الرنانة .

وكان صغار الصبيان والبنات يلعبون في الميدان ، ويرسلون كرتهم عالية في السماء الصافية وقد أخذوا يركضون هنا وهناك وهم يتصايحون ويصرخون . أما البنات الناضجات فكن قد بدأن في الرقص ورحن ينشدن في حياء وخجل بأصواتهن الرفيعة الحادة .

وشرع الكتبة والشبان الذين لم يلتحقوا بالخدمة العاملة أو الذين كانوا قد عادوا لقضاء العيد يسرون وقد تشابكت أذرعهم اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة مشرق الوجوه يرتدون سترات جركسية أنيقة بيضاء أو حمراء وشيت بالذهب ، ويتقلون من جماعة من النساء أو الفتيات إلى جماعة أخرى ، ويقفون عندها يمزحون معهن ويغازلونهن ، وكان صاحب الحانوت الأرمني يقف بباب حانوته المفتوح الذي بدت منه للأنظار أكداس من المتاديل المطوية الزاهية اللون ، وقد ارتدى ستره موشاة بالذهب صنعت من نسيج أزرق جميل يتظر « الزبائن » في اعتزاز التاجر

(١) الخوروفود : حلقة تقيها الفتيات ثم يدرن مغنيات .

الشرق وأقبل رجلان ملتحيان حافيا القدمين من الجحش هابطين من وراء نهر ترك لمشاهدة العيد ، وجلسا القرفصاء خارج منزل صديق لهما ، وراحا يدخنان غليونيهما الصغيرين في غير ما اكثرا ، يبصقان من حين إلى حين وهما يراقبان القرويين ، ثم يتبادلان الحديث في لهجتهما السريعة الخارجة من الحلق .

وكان يحدث بين الفينة والفينة أن يمر بالجماعات التي ترتدى ملابسها الزاهية جندي يلبس معطفاً قديماً يبدو فيه كمال المياومة ، وتنبعث هنا وهناك أغاني القوزاق السكاري تنطق بها حناجرهم لاهين مرحين ، وكانت المنازل كلها مغلقة ، وقد حكمت مداخلها ، وصقلت في اليوم السابق ، فبدت نظيفة ، ولم يبق فيها أحد حتى العجائز من النساء خرجن إلى الشارع الذي كان قد تناثر في جميع أرجائه قشر القرع ولب البطيخ ، وكان الهواء حاراً ساكناً والسما صافية شديدة الزرقة ، وكنت ترى فيما وراء الأسطح سلسلة الجبال البيضاء الكاوية وقد بدت الآن قريبة كل القرب وأخذ وهج الشمس يصبغها باللون الوردى ، وتسمع من حين إلى حين ينطلق من الناحية الأخرى للنهر دوى مدفع بعيد . إلا أن أصوات القوم يرحون ويلهون في العيد كانت تسود القرية . ويختلط بعضها وبعض .

وقضى أوليين ذلك الصباح بطوله يذرع الفناء معللاً النفس بأن يرى ماريانكا ، ولكن الفتاة كانت قد ارتدت أفخر ثيابها ومضت لحضور القداس في الكنيسة . ثم جلست مع ربيباتها على الأرضية تقصصن اللب حياً وتهرع إلى الدار مع رفيقاتها حيناً آخر ، وكانت في كل مرة ترمق الساكن في دارهم بنظرة عطوف مشرقة .

وكان أوليين يخشى أن يوجه إليها الحديث مداعباً ، وخاصة في حضرة صويحاتها ، لقد كان يود أن يتم الحديث الذي بدأه معها ليلة أمس ، وأن يحملها

على أن تحببه جواباً قاطعاً ، وراح يتحين لحظة أخرى كثلث التي واثته في مساء
الأمس إلا أنها لم تواته ، فأحس بأنه لم يعد يستطيع احتمال تلك الحيرة التي عانى
منها ما عانى .

وخرجت الفتاة إلى الشارع مرة أخرى ، فانتظر برهة قصيرة وانطلق هو أيضاً
مقتفياً أثرها لا يدرى أين تقوده خطاه ؟ ومر بناصية من الشارع كانت تجلس الفتاة
فيها مرتدية صدارتها الزرقاء اللامعة المصنوعة من الأطلس ، وحز في نفسه أن يسمع
الفتيات يتصاحكن وراء ظهره .

وكان كوخ بيليتسكى يطل على الميدان ، وسمع أوليين وهو يمر به صوت
بيليتسكى يناديه أن تفضل فدخل .

وتبادل الضيفان بضع كلمات وجلسا بجوار النافذة وسرعان ما لحق بهما يروشكا
وقد جاء مرتدياً صدارة جديدة ، واستوى على الأرض بجانبها .
وقال بيليتسكى مبتسماً وهو يشير بسيجارته إلى جماعة زاهية الألوان في ناصية
الشارع :

- هالك الفتاة الأرستقراطية ، وهناك حبيبتى أيضاً ، أتراها ؟ إنها ترتدى رداءً
أحمر ، بل صدارة جديدة . ثم صاح وهو يطل من النافذة : « ما بالكن لا تشرعن
في رقصة الحوروفود ؟ » ثم أردف : « انتظر لحظة حتى إذا أسدل الظلام ستاره
خرجنا نحن أيضاً ، ثم دعوناهن إلى منزل أوستنكا ، يجب أن نعد لهن حفلة
راقصة » .

وقال أوليين في لهجة حازمة : « ولأذهبن إلى منزل أوستنكا ، ولكن هل تكون
ماريانكا هناك ؟ »

وقال بيليتسكى دون أن يبدو عليه شيء من الدهشة : « أجل ، ستكون

هناك ، فتعال » وأردف وهو يشير إلى الجماهير التي اختلط منها الخابل بالتابل :
« ولكن أليس هذا المنظر جميلاً ؟ »

وأمن أوليين على كلامه محاولاً أن يظهر بمظهر من لا يعنيه الأمر : « أجل ،
غاية في الجمال » ، ثم أردف : إن الأعياد التي من هذا القبيل تحملني دائماً على
النسائل : ما بال هؤلاء القوم يهبط عليهم فجأة كل هذا الرضا والسرور ؟ فالיום
مثلاً يكتسى كل شيء بحلة العيد لا شيء إلا أنه اليوم الخامس عشر من الشهر ،
فترى العيون والوجوه والأصوات والحركات والثياب ، بل الشمس والهواء تزهو
جميعاً احتفالاً بالعيد ، أما نحن في روسيا فلم نعد نحتفل بأى عيد ! »

وأجاب بيليتسكى الذى كانت نفسه تعاف مثل هذه الأفكار : « أجل » ثم
تحول إلى يروشكا قائلاً : « لم لا تشرب يا صديقي ؟ »
وغمز يروشكا أوليين بعينه مشيراً إلى بيليتسكى ، ثم قال : « آه ! إن صديقك
العزيز هذا معتر بنفسه »

ورفع بيليتسكى كأسه ، وقال وهو يأتى عليها : « الله بيردى » و « الله بيردى »
معناها « الله أعطى » (وهو النخب الذى ألفه القوقازيون إذا شربوا جماعة) .
وأجاب يروشكا مبتسماً وهو يفرغ كأسه : ساوبول : (أى « فى صحتك ») .
وقال ملتفتاً إلى أوليين وهو ينفض ويطل من النافذة : « أسمى هذا احتفالاً
بالعيد ؟ ترى أى نوع من الأعياد هذا ؟ وددت أن ترى القوم يحتفلون بالعيد فى
الأيام الحالية ، لقد جرت عادة النساء فى تلك الأيام أن يخرجن فى ثيابهن المثلثة
الموشاة بالذهب يرتدينها فوق صداراتهن ، ويتقلدن فى أعناقهن صفين من النقود
الذهبية ، ويضعن على رءوسهن أغطية من قماش ذهبي ، فإذا سرن حففت
ثيابهن ، وهففت هفيفاً يشرح القلب ويسر النفس .

« وكانت كل امرأة منهم تبدو كالأميرة ، ولكن يخرجن أحياناً زرافات زرافات ، وتطلق أصواتهن صادحات بالأغاني حتى تتجاوب أجواز الفضاء جميعاً ورنين أنغامهن ، ويمضين في اللهو والمرح طول الليل ، ويدحرج القوزاق برميلاً فإذا بلغ القناء واصلوا الشراب حتى مطلع الفجر ، وكانوا أحياناً يسرون متشابكي الأذرع ويجولون في القرية ، ويأخذون معهم كل من صادفهم في الطريق ، ويتنقلون من منزل إلى منزل ، وفي بعض الأحيان يواصلون مرحهم ولهوهم ثلاثة أيام سوياً ، ومازلت أذكر أن أبى كان يعود من العيد وقد علا الإحمرار أوصاله جميعاً وانتفخت أوداجه وذهبت القبعة عن رأسه وفقد كل شيء ، فإذا جاوز الباب ودخل الدار ارتعى على فراشه ، وكانت أمى تدرك ما ينبغى عليها أن تفعله : كانت تأتيه بشيء من البطارخ الفاخرة (الكافيار) الطازجة وتسعفه بقليل من الجكير حتى يفيق . ثم تهرع إلى القرية منقية في أرجائها عن قبعته ، ثم ينام بعد ذلك يومين ! لقد كان هذا شأن القوم في الأيام الحالية فأين هذا من حالهم اليوم ؟ وسأل بيليتسكى : « جميل ، ولكن هل كانت الفتيات الثلاث يتردين الثياب المثلثة يرحن وحدهن ؟ »

- أين هن من ذلك ؟ لقد كان بعض القوزاق يقبلون راجلين أو ممتطين صهوات جيادهم ويقولون : فلنقطع حلبة الرقص ثم يهسوا بأن يفعلوا ولكن الفتيات كن يمسكن لهم المرافعات ، وكان يحدث أن يقبل في أيام المرافع فتى يسرع إليهن ركضاً فوق صهوة جواده ، فيبوين بهراواتهن على الجواد بل على الفتى نفسه ! ولكنه كان ينجح في اختراق الحلبة ويأخذ الفتاة التي يحبها ثم يهرب بها . ولا عليه . . . فقد شغفته حباً ، أجل ، لقد كانت الفتيات في تلك الأيام كالملكات لا ينقصهن شيء !

الفصل السادس والثلاثون

وفى هذه اللحظة عينا برز شابان يمتطيان صهوة جواديهما إلى الميدان من طريق جانبي ، وكان أحدهما نازاركا والآخر لوكاشكا ، وكان لوكاشكا يستوى بجانب ظهر جواده « الكاباردى » المربى بخطو بخفة على أديم الطريق الصند مطوحاً متخطراً برأسه الجميل وعرفه المليح الأملس وقد تبين من البندقية التى أحكم وضعها فى غمدها والغدارة التى علت ظهره والعباءة التى طويت خلف السرج أن لوكاشكا لم يأت من مكان رضى يسوده السلام أو من موضع قريب ، وكان النهج الرشيق الذى استوى به على ظهر الجواد بجانباً والحركة التى يأتينا فى غير ما احتفال ولا مبالاة وهو يلمس الجواد تحت بطنه بسوطه ، وعينا ، أجل عينا السودان نصف المغضتين تتألقان بنظرات الزهو والفخار وهو يتلفت من حوله - كل أولئك كان يتم عن إحساسه بقوة الشباب وعزته ، وكأنما كانت هاتان العينان فى تلفتها تقولان : « رأيتم قط فى مثل ؟ » وكان الجواد الرشيق بريته وحليته الفضية وسلاحه وذلك القوزاقى الوسيم المليح نفسه يسترعيان الانتباه فى جميع أرجاء الميدان ، وكان نازاركا

نحيلاً قصير القامة أبعد ما يكون عن حسن البزة وجمال اللباس ، ومر لوكاشكا بالشيوخ ، فتوقف ورفع قبعته البيضاء المتلبدة المصنوعة من جلد الغنم عن رأسه الأسود الحليق .

وسألها رجل نحيل وقد عبس في وجهيها : « جميل ! أقد سرقنا من جيبك النوغاي كثيراً ؟ »

وأجاب لوكاشكا وهو يوليه ظهره : « أقد أحصيتها يا جدي حتى تسأل ؟ » .

وغمغم الشيخ وقد ازداد وجهه تجهماً وعبوساً : « ما أجمل هذا منك ! على أن الأمر لم يكن يقتضيك أن تأخذ هذا الغلام معك » .

ودمدم لوكاشكا بينه وبين نفسه : « استمعوا إلى هذا الشيطان العجوز ! إنه يعرف كل شيء » ، وعلت وجهه مسحة من القلق ، ولكنه لم يلبث أن رأى ناصية وقفت عندها بعض الفتيات القوزاقيات ، فلوى عنان جواده ميمماً نحوهن .

وصاح بصوته المجلجل وهو يكبح جماح جواده فجأة : « طاب مساؤكن يأتيها الفتيات ، لقد تقدمتن في السن من دوني يأتيها الشمطاوات ! » ، وانفجر ضاحكاً . وأجابته الأصوات المرحّة : « طاب مساؤك يا لوكاشكا . طاب مساؤك أيها الفتى البشوش » .

- هل جئت معك بالمال الكثير؟ إذن فاشتر شيئاً من الحلوى للفتيات . . . أوجئت عازماً أن تطيل بيننا المكوث ؟ لقد انقضى حقاً وقت طويل منذ رأيته . . .

وأجاب لوكاشكا وهو يرفع سوطه ويمضي إلى الفتيات لابلوى على شيء : « لقد جئت أنا ونازاركا لتونا مسرعين لنحتفل بهذه الليلة » .

وقالت أوستنكا وهي تكرر ماريانكا بمرقها ، وتنطلق في ضحكة معللة :
« ويحك ! لقد نسيتك ماريانكا تمام النسيان » .

ونأت ماريانكا عن الجواد ، وألقت برأسها إلى الوراء ، ثم راحت تنظر بهدوء
إلى القوازي بعينيها النجلارين المتألفتين .

ثم قالت في جفاء : « لقد صدقت حقاً ، فإننا لم نرك منذ وقت طويل ،
ما بالك تطرّنا تحت أقدام جوادك ؟ » ، وأشاحت بوجهها عنه .

وبدا لوكاشكا مرحاً عظيم المرح ، وكان وجهه يطفح بالجرأة والسرور ، إلا أنه
مالئث أن قطب حاجبيه فجأة وقد أدهشه ما تجلى في رد ماريانكا من برود .
ثم هتف على حين غرة وكأنما أراد أن يبدد ما انتابه من أفكار سود : « ضعي
قدمك في ركاب سرجي فالوذ بك إلى الجبال يا صبية » وراح يحوس بين الفتيات
ثم انحنى تجاه ماريانكا وهمس : « لأقبلك ! آه ! لأقبلك قبله تروى فؤادى !
وتقابلت نظراتهما ، واحمر وجهها فجأة ونكصت على عقبيها .

وقالت : « ويحك ! لتسحقن قدمي » ونكست رأسها ناظرة إلى قدميها
الجميلتين في جوربها المحكم بلونه الأزرق الباهت المطرز من جانبيه وخفها الأحمر
الجديد الموشى بشريط رفيع في لون الفضة .

والفت لوكاشكا ناحية أوستنكا ، وجلست ماريانكا بجوار امرأة تحمل طفلاً
رضيعاً ، ومد الطفل ذراعيه الصغيرتين الربلتين نحو الفتاة ، وأمسك بعقد القفود
الذى تدلى على صدراتها الزرقاء ، وانحنى ماريانكا على الطفل ونظرت إلى
لوكاشكا بطرف عينيها ، وكان يخرج من جيب من جيوب صدارته السوداء تحت
سترته حزمة من الحلوى واللب .

وقال وهو يتناول أوستنكا الحزمة ويتسم في وجه ماريانكا « هالك فهى لكن جميعاً » .

وظهرت على وجه الفتاة مرة أخرى أمارات الحيرة والارتباك وكأنما قد غشيت عينيها الجميلتين غشاوة ، وأرخت المنديل عن شفثيها ، ثم حنت رأسها على وجه الرضيع الأشقر ، وكان لا يزال متشبهاً بقلايتها المصنوعة من النقود وأخذت تمطره فجأة بوابل من قبلاتها . ودفع الرضيع بيديه الصغيرتين صدرها الناهد ، وفتح فمه الحالى من الأسنان . وانطلق يصرخ صرخات عالية .

وقالت أم الرضيع وهى تبعده عنها : « إنك لتخفقيه ! » وفكت صدرتها لتعطيه ثديها ، ثم أردفت : « أولى بك أن تمضى وترحى بالفتى » .

وقال لوكاشكا وهو يلمس جواده بسوطه ويتعمد به عن الفتيات : « لأذهبن وأضع جوادى فى الحظيرة ، ثم أعود أنا ونازاركا ، فتمرح ونلهو الليل بطوله » وانعطفا فى طريق جانبى ، وقصدا بيتين متجاورين .

وقال لوكاشكا لزميله وهو يترجل أمام بيت منها : « ها نحن أولاء قد وصنا بخير يا صديق العزيز ، فهلم وعجل بالحضور » ، ثم قاد جواده بعناية إلى باب منزله .

وقال لأخته البكاء ، « مرحى يا ستيكا ! » وأقبلت أخته من الشارع لتأخذ جواده ، وكانت متأنقة كالفتيات الأخريات ، وأفهمها بالإشارات أن تأخذ الجواد فتعلفه دون أن تقع عنه سرجه .

وراحت الفتاة البكاء تهضب وترطن رطانتها المعهودة ، وهممت بشفثيها مشيرة إلى الجواد ، ثم طبعت قبة على أنفه ، وكان معنى هذا فى لغتها أنها تحبه وأنه جواد أصيل .

وصاح لوكاشكا وهو يرق درج المدخل ، ويضع يده على بندقيته يشبها في مكانها : « كيف حالك يا أماء ؟ وما بالك لم تخرجي بعد ؟ » .

وفتحت أمه العجوز الباب وقالت : « يا إلهي ! لم أتوقع قط ، بل لم يدر بيألى أنك سوف تأتي ! عجباً لقد زعم كبركا أنك لن تحضر » .

- اذهبي وأتينا بشيء من الجكير يا أماء ، فإن نازاركا قادم إلينا ، وسنحتفل بيوم العيد .

وقالت العجوز : « حالاً يا لوكاشكا ، حالاً . إن نساءنا يرحن ويلهون ، وإني لأحسب أن ابنتنا البكماء قد خرجت هي أيضاً تلهو وتمرح » .

وتناولت مفاتيحها ، وهرعت إلى الكوخ الخارجى . وربط نازاركا جواده فى الحظيرة وخلع بندقيته عن كتفه ، ثم عاد إلى منزل لوكاشكا ودخله .

« الفصل السابع والثلاثون »

وأخذ من يد أمه كأساً امتلأت بالخبير ، ثم رفعها بعناية حتى بلغت رأسه الخافي هاتفاً : « في صحتك »
وقال نازاركا : « إن الأمر خطير ، ألم تسمع ما قاله العم بورلاك ؟ هل سرقنا من الجياد الكثير ؟ . والظاهر أنه يعرف الحقيقة »
وأجاب لوكاشكا في اقتضاب : « ياله من دجال عجوز ! » ثم أردف وهو يطوح رأسه : « وماذا علينا إذا كنا قد فعلنا هذا ؟ لاشك أن الجياد قد اجتازت النهر الآن فاذهب وابحث عنها » .

- ومع ذلك فهي علامة تنذر بشر .
- أى علامة هذه ؟ اذهب وقدم له شيئاً من الخبير غداً فلا ينالك أى شر ،
والآن إلى اللهو والمرح » ثم صاح به لوكاشكا : « اشرب » مصطنعاً النهجة التي كان يتلقاها بها يروشكا العجوز هذه الكلمة ، ثم مضى يقول : « لنخرجن إلى الشارع ولنلته مع الفتيات ، اذهب وأتينا بشيء من الشهد ، بل خل عنك .

سأبعث بأخى البكاء ولنأخذ فى اللهو حتى الصباح»
 وكان نازاركا يتشم ثم سأله : «أونبقى هنا طويلا ؟»
 - حتى نصيب من اللهو والمرح ما نصيب ، أسرع واثنتا بقليل من الفودكا وإليك النقود .

وأطاع نازاركا الأمر ، وهرب ساعياً فى طلب الفودكا من بيت يامكا .
 واشتم الهم يروشكا وبرجوشوف رائحة القصف والمرح ، كأنها الطير الجوارح
 وسقطا على البيوت بيتاً بيتاً وقد استخفها الشراب .
 وأجاب لوكاشكا على تحيتها بأن صاح بأمة قائلاً : « اثنتا بصف سطل آخر » .
 وهتف يروشكا : « هلا أنبأتى : كيف سرقت الجياد أيها الشيطان ؟ إنك لفتى
 ولا كالفتيان وأنا مشغوف بك » .

وأجاب لوكاشكا وهو يضحك : « مشغوف حقاً . . . وآية ذلك أنك تحمل
 الحلوى من طلبة الحربة إلى الفتيات ، فما قولك أيها العجوز . . ؟ »
 - ليس هذا صحيحاً ، ليس صحيحاً . . آه يا ماركا » وانفجر الشيخ
 ضاحكاً وهو يقول : « لشد ما توسل إلى ذلك الشيطان وقال : اذهب ودبر الأمر
 لى معها ! ثم عرض على بندقية ولكن كلا ، لقد كنت خليقاً أن أدبر الأمر لو لم
 يكن شعورى معك فهلا أنبأتى أين كنت ؟ » وانطلق الشيخ متحدثاً بالتتيرة .
 وكان لوكاشكا يحبه بسرعة .

وكان برجوشوف الذى لا يعرف من التتيرة إلا القليل يقاطعها من حين إلى
 حين بعبارة روسية .

وأمن على كلام لوكاشكا مرة بقوله : « إن ما أود أن أقوله هو أنه ساق الجياد
 بعيداً ، وهذا هو القول الصحيح » .

« ومضيت أنا وكراى معاً (وكان ذكره اسم كراى خان مجرداً عن لقبه دليلاً على جرأته فى نظر القوزاق) ، ولبث الرجل وراء النهر تماماً يفأخر بأنه يعرف السهب كله ، وأنه سيرشدنى إلى مقصدى مباشرة ، ولكننا واصلنا السير ممتطين صهوة جوادينا وكانت الليلة مظلمة ، فضل صديق كراى الطريق ، وراح يهيم على وجهه فى دائرة دون أن يهتدى إلى المكان ، أجل لم يستطع أن يبلغ القرية وسقط فى أيدينا ، ولاشك أننا قد انحرفنا إلى اليمين كثيراً وظللنا نجوس هنا وهناك حتى كاد الليل يتتصف ، ثم حمدنا الله إذ سمعنا نباح الكلاب .

واندفع العم يروشكا قائلاً : « يالكم من حمقى ! لقد كنا نحن أيضاً نضل الطريق فى السهب ، ومن ذا الذى لا يضل فيه ؟ ولكننى كنت أدفع جوادى إلى قمة أكمة وأروح أعوى وأعوى عواء الذئب المنفرد ، هكذا » ووضع يديه على فمه وعوى عواء قطع من الذئاب تنطلق فى صوت واحد ، « فنجيب الكلاب فى الحال » . . . لا بأس عليك امض فى حديثك ، إذن فقد وجدتموها ؟

- وسرعان ما استولينا عليها وأوشك نازاركا أن يقع فى يد بعض النساء من النوعاى .

وقال نازاركا وكان قد عاد لتوه ، فى لهجة تم عن الألم : « أحقاً ما تقول . . ؟ »

وعدنا أدرانجا ولكن كراى ضل الطريق مرة أخرى وكاد يطوح بنا بين الكتيبان الرملية فقد ظننا أننا نسير صوب نهر ترك فإذا بنا ننأى عنه طول الوقت .

وقال العم يروشكا : « كان ينبغي لكم أن تهتدوا بالكواكب »

وتدخل يرجوشوف فى الحديث قائلاً : « لقد كان هذا هو رأي »

- أجل نهتدى بالكواكب والظلام حالك ، لقد حاولت ثم حاولت أن ألتصق

الطريق ووضعت آخر الأمر الشكيمة على فرس من الأفراس ، وتركت جوادى يسير طليقاً ظناً منى أنه سيسير بنا فى الطريق الصحيح ، فماذا ترى ؟ لقد نحر الجواد مرة أو مرتين وأنفه إلى الأرض ، ثم مضى قدماً ، وقادنا إلى قربتنا مباشرة ، وكان ذلك من حسن التوفيق ، ذلك أن ضوء النهار كان قد أخذ ينبلع ، وأوشك الوقت ألا يتسع أمامنا لإخفائها فى الغابة ، ثم أقبل نجم مجتازاً النهر وساق الجياد . وهز يرجوشوف رأسه قائلاً : « وهذا هو ما قلته بلا خوف ، يا لك من فتى بارع ! وهل بعثها بضمن باهظ ؟ » .

وقال لوكاشكا وهو يضرب على جيبه : « الثمن كله هنا » .
ودخلت أمه الغرفة فى هذه اللحظة فأمسك ، ولم يتم قصته .
وصاح قائلاً : اشربوا . .
وأنشأ يروشكا بقول : « أجل ، لقد خرجت أنا وجيرشيك على ظهر جوادينا فى ليلة من الليالى فى ساعة متأخرة . . . »
وقال لوكاشكا : « ويحك ! إننا لن نفرغ من حكاياتك ! إني للذهاب » ، وأتى على كأسه ثم شد حزامه وخرج .

الفصل الثامن والثلاثون

كان الظلام قد حل عندما خرج لو كاشكا إلى الشارع وكانت تلك الليلة من ليالى الحريف هادئة ساكنة طلقة الهواء عذبة الأنفاس ، وكان البدر الذهبي فى كماله يعتلى قبة السماء من خلف شجر الحور الطويل القائم النامى على جانب من جوانب الميدان ، وارتفع الدخان من مداخن الأكواخ الصغيرة الملحقة بالدور ، وانتشر مختلطاً بالضباب ، وانبعثت الأنوار هنا وهناك لتضىء من خلال النوافذ ، وسرت فى الجوارثمة الكرياك ولب العنب والضباب ، واختلطت الأصوات بالضحكات والأغاني وقصص الالب كما كانت تختلط الظلمة ببياض النهار سواء بسواء ، إلا أنها كانت هذه المرة أكثر جلاءً وأشد وضوحاً ، وكانت المناديل والقبعات البيضاء تلمع كمناقيد النجوم فى الظلام الخيم حول المنازل .

وكنتم تلمع فى الميدان أمام باب الخانات المضيء المفتوح أشباح الرجال والفتيات من القوزاق تتجلى فى سوادها وبياضها من خلال الظلمة ، وتسمع عن بعد أصواتهم العالية ترتفع بالأغاني والضحك والحديث ، وكانت الفتيات يدرن

ويدرن متشابكات الأيدي في دائرة يتخطرون بخفة في الميدان الحافل بالغبار ،
وكانت تضبط لهن اللحن فتاة نحيلة هي أقلهن جميعاً حظاً من الجمال :

من وراء الغابة ومن ظلامها الساجي ،

ومن خضرة الحديقة البانعة والمرج الظليل .

أقبل شابان فتيان يملأ أعطافهما المرح ،

شابان باسلان رشيقان خليان ،

وراحا يسيران ويسيران ، ثم وقفا ساكنين لا يريان ،

وظلا على هذه الحال لحظة ، وسرعان ما شجر بينهما الخلاف ،

ثم برزت إليهما غادة وهتفت

وهي مقبلة عليهما « لن ألبث حتى أكون ملكاً لأحدكما » ،

وفاز بالغادة الجميلة الشاب المليح ،

أجل فاز بها الشاب المليح الذهبي الشعر ،

وأخذ يدها الناصعة البياض في يده ،

ومضى معجباً إلى خلانه .

وقال : « من منكم صادف في حياته

غادة في جمال زوجتي الصغيرة ؟ »

وكانت النساء العجائز واقفات حول الفتيات ينصتن إلى الأغاني وأخذ صغار

الصبية والبنات يركضون هنا وهناك ، يطارد بعضهم بعضاً في الظلام ، ووقف

الرجال يمسون بالفتيات في دورانهن ، وكانوا في بعض الأحيان يقتحمون عليهن

الحلقة ، ووقف بيليتسكي وأولنين في الجانب المظلم من مدخل الباب ، يرتديان

ستريهما المجرستين وقبعتهما المصنوعتين من وبر الغنم ، ويتحدثان في صوت

خفيض واضح الثبرات على نحو يخالف طريقة القوزاق في الحديث ، وقد أحسا بأنهما كانا في وقتها هذه يستريحان إليها الأنظار .

وكانت أوستنكا الصغيرة المسرلة في صدارتها الحمراء تدور في الحلقة وقد وضعت يدها في يد ماريانكا التي كانت ترتدى صدارة وقيصاً جديدين يحف بها الجلال والبهاء ، وكان أوليين وبيليتسكى يلتمسان الوسيلة إلى خطف أوستنكا وماريانكا من الحلقة ، وظن بيليتسكى أن أوليين لم يكن يروم إلى اللهو والمرح في حين أنه كان ينتظر البت في مصيره ، أجل كان يريد أن يلقي ماريانكا على انفراد في ذلك اليوم نفسه مهاكلفه الأمر ؛ ليسألها : هل تستطيع أن تكون له زوجة وترضى نفسها بذلك ؟ وعلى الرغم من أن الفتاة كانت قد أجابت على هذا السؤال بالنفي منذ وقت طويل فإنه كان لا يزال يأمل أن تتاح له فرصة الإفصاح لها عما يمكنه لها قلبه من حب لعلها تفهمه .

وقال بيليتسكى : « ولم تخبرني بذلك من قبل ؟ لو كنت فعلت لأغريت أوستنكا بأن تدبر لك الأمر . بالك من فتى غريب الأطوار . . . !

- وماذا عساها أن تفعل ؟ لسوف أنبئك بذلك كله في يوم قريب ، أما الآن فأني أستحلفك بالله أن تدبر الأمر بحيث تأتى ماريانكا إلى منزل أوستنكا .

- لا بأس ؛ فإن هذا مما يسهل تدبيره . ورأى بيليتسكى أن واجب اللياقة يقتضيه أن يتحدث إلى ماريانكا أولاً ، فقال لها : « إيه يا ماريانكا ! أو تكونين من نصيب « الفتى المليح » وتصدفين عن لوكاشكا ؟ ولم تلق من الفتاة جواباً ، فوجهه الى أوستنكا وتوسل إليها أن تأتى إلى دارها بماريانكا ، وماكاد يتم حديثه حتى شرعت الفتاة المرشدة في إنشاد أغنية أخرى ، وانطلقت الفتيات يدرن في الدائرة وكل منهن تجذب الأخرى ، ورحن ينشدن الأنشودة التالية :

مر بالحديقة .

شاب من الفتيان

وراح يضرب في الشارع محترقاً المدينة .

وفي المرة الأولى لوح بيده اليمنى القوية .

وفي المرة الثانية لوح بقبعته الموشاة بشريط من الحرير

وفي المرة الثالثة وقف ساكناً لا يرم ،

ولا يبرح . ولكنه أبدى من ملاحظته ما أبدى .

« تمنيت أن آتي إليك

وليس ما بي إلا رغبة في التحدث معك لحظة

ما بالك لا تأتين يا عزيزتي ؟

للنزهة في الحديقة ؟

هلمى أجيبي يا عزيزتي .

أو تحتقريني ؟

لسوف تعلمين من بعد يا عزيزتي

وتذكرين ثم تندمين

وسأتي في القريب لأطلب يدك

حتى إذا تزوجنا

بكيت بسببي »

وقد كنت أعرف بماذا أجيبه ؟

إلا أنني لم أجرؤ على رفض طلبه

أجل ، لم أجرؤ على رفض طلبه

ومضيت إلى الحديقة أتره
 وألقى حبيبي فيها
 وهناك حيت حبي
 وما إن انحنيت أحيه
 حتى سقط منديلي على الأرض
 فالتقطه حيث سقط
 « أرجوك أن تأخذه في يدك البيضاء
 أرجوك أن تقبله يا عزيزي مني
 قولي إنك تحبيني ،
 عجي ، ماذا أهدى إليك يا حبيبي ؟
 أخشى أن أضل فلا أعرف هدية أهديا إليك !
 وإني لأحسب أنني سأهدى
 إلى حبيبي وشاحاً
 فتجزيني عليه بخمس قبلات »

واقترح لوكاشكا ونازاركا الحلقة ، وشرعا يجولان بين الفتيات ، واشترك
 لوكاشكا في الغناء يردد قرار النغم في صوته الجلي الواضح وهو يسير وسط الحلقة
 مطوحاً ذراعيه

وقال : « لتدخل إحداكن في الحلقة » ، ودفعت الفتيات الأخريات ماريانكا
 ولكنها أبت أن تدخل الحلقة واختلطت بالغناء أصوات ضحكات مجلجلة
 وصفعات وقبلات وهمسات ، ومر لوكاشكا بأولينين فأوماً له بإيماءة تم عن المودة
 والصدقة .

وقال : « ديمتري أندرييفتش : هل جئت لمشاهدة الرقص ؟ »
 فأجاب أولينين في جفاء : « أجل »
 وانحنى بيليتسكى وأسر بشىء إلى أوستنكا ، ولم يتسع وقتها للإجابة حتى دارت
 الدائرة فقالت : « لا بأس لثنتين » .

وماريانكا أيضاً .
 وانحنى أولينين تجاه ماريانكا وقال : « أوتأتين ؟ أرجوك أن تأتى ولو لحظة
 واحدة ، إذ لا مناص لى من التحدث إليك » .
 - سأتى إذا أتت الفتيات الأخريات .

وقال وهو يميل ناحيتها : « هل لك أن تجيبى عن سؤالى وأنت فى مرحك الآن ؟ »
 فنأت عنه فتبعها وكرر قوله : « هل لك أن تجيبى عن سؤالى ؟ »
 - أى سؤال ؟

وقال أولينين وهو ينحنى ليسر إليها بما يريد : « السؤال الذى وجهته إليك منذ
 أيام ، هلا تزوجتنى ! »

وفكرت ماريانكا لحظة ثم قالت : « سأنبك بالجواب الليلة »
 ورنرت إلى الشاب بنظرات مشرقة حانية تألفت فى الظلام
 وظل أولينين يتبعها ، فقد كان يسعده قربها ، إلا أن لوكاشكا أمسك يدها بقوة
 فجأة مواصلاً الغناء ، وجذبها من مكانها فى حلقة الفتيات إلى الوسط ، فلم يسع
 أولينين إلا أن يقول لها : « تعالى إلى منزل أوستنكا » ، ثم عاد إلى صاحبه ،
 وانتهت الأغنية ، ومسح لوكاشكا شفتيه ، وحذت ماريانكا حذوه ، وقبل كل
 منها الآخر .

وقال لوكاشكا : « كلا ، كلا ، فلا يرضينى أقل من خمس قبلات ! » وغاب

وقع الأنعام والرقص وحل محله الحديث والضحك والجري هنا وهناك ، وأخذ
لوكاشكا الذى بدأ ثملاً من كثرة الشراب يوزع الحلوى على الفتيات . وقال فى لهجة
تم عن الزهو والإعجاب بالنفس إعجاباً يفيض بالتأثر إلى حد يثير الضحك :
« هذه الحلوى لكل واحدة منكن » . إلا أنه أردف فجأة وهو ينظر إلى أوليين نظرة
الغضب : « ولتخرج من الخلقة كل من تنهالك على الجنود ! » .

واختلطت الفتيات الحلوى من يده ، وأخذن يتقاتلن عليها متصاحكات .
وتنحى بيليسكى وأوليين .

ونزع لوكاشكا قبعته كأنما خجل لما أبداه من كرم . وجفف جبينه بكمه ، ثم
قصد إلى ماريانكا وأوستنكا وقال مردداً كلمات الأغنية التى كانت الفتيات قد فرغن
منها لهن : « أجيبني يا حبيبي أو تحتقريني ؟ » . ثم التفت إلى ماريانكا وأعاد
على مسامعها غضباً : « أو تحتقريني ؟ ثم أردف : « فإذا تزوجنا بكيت بسبي .
وطوق بذراعيه أوستنكا وماريانكا جميعاً ، ولكن أوستنكا تخلصت منه وضوحت
ذراعها . ثم ضربته على ظهره ضربة قوية تألمت منها يدها .

ثم سأها : « لا بأس عليك هلا رقصت مرة أخرى ! »
فأجابت أوستنكا : « فلترقص الفتيات الأخريات إن شئت ، أما أنا فسأعود إلى
المتزل ، وكان فى نية ماريانكا أن تعود معي أيضاً » .

وابتعد لوكاشكا بماريانكا عن زحمة الناس ، وهو لا يزال يطوقها بذراعه ، ثم
قادها إلى ركن متزل أشد ظلمة من سائر أركانه .

وقال : « لاتذهبي معي يا ماريانكا ، ولتأخذ أنفسنا بشيء من المرح للمرة
الأخيرة . إلى متزلك . سألحق بك ! »

وأجابت ماريانكا : « وماذا عساي أن أفعل في المنزل ؟ لقد خلقت الأعياد للهو وأنا ذاهبة إلى منزل أوستنكا » .

- لأنزوجتك معها يكن الأمر ، ألا تعلمين هذا ؟

فقالت ماريانكا : « حسن ، وسرى عندما يأتي الأوان »

وقال لها لوكاشكا في جد وصرامة : « إذن فأنت ذاهبة » ، وضمها إلى صدره

ثم طبع قبلة على خدها

- وبحك دعني وشأني ! وكف عن مضايقتي » ، وأفلتت ماريانكا من ذراعيه

وابتعدت عنه .

وقال لها لوكاشكا يلومها : « أواه يا فتاتي ! لسوف ينتهي ذلك بشر » ، ووقف

ساکناً يهز رأسه ، ويقول : « ستبكين بسبي » وأولاهها ظهره ، ونادى الفتيات

الأخريات « والآن ! فلنشدد أنشودة أخرى ! »

ويبدو أن ما قاله قد روع ماريانكا وأثار غضبها ، فوفقت ساكنة .

« وماذلك الذي سينتهي بشر ؟ »

- ذلك ؟

- أي شيء ذلك !

- صحبتك الجندي ينزل عندكم وانصرفك عن الاهتمام بأمرى !

- سأهتم بقدر ما أحب ! فإنك لست بأبي ولاأبمي ، ماذا تريد مني ؟ سأهتم

بأمر من أشاء !

وقال لوكاشكا : « لا بأس . . ! ولكن اذكرى ! » ، ثم يم صوب

الحانوت ، وصاح : « أيها الفتيات ماذا دهاكن ؟ واصلن الرقص وزدنا من

الجكير يانازاركا »

وسأل أوليين موجهاً الحديث إلى بيليتسكى « ترى أناتيان ؟ »
 فأجاب بيليتسكى : « ستاتيان لاتلويان على شيء ، تعال معى فقد وجب أن
 نعد العدة لحفلة الرقص » .

الفضل التاسع والثلاثون

وكان قد مضى الهزيع الأكبر من الليل عندما خرج أوليين في أثر ماريكانا وأوستنكا ، ورأى في الشارع المظلم من أمامه مندبل الفتاة الأبيض يومض في الليل الهميم ، وأخذ قرص القمر الذهبي يغيب في اتجاه السهب ، وخيم على القرية ضباب في لون الفضة وخمد الضوء في كل مكان ، وخيم الهدوء إلا من وقع أقدام الفتيات وهن عائدات إلى منازلهن ، وأخذ قلب أوليين ينبض سريعاً ، ولطف هواء الليل الرطيب من حرارة وجهه المتقد ، وتطلع الفتى إلى السماء ثم تحول ببصره إلى المنزل الذي غادره وشيكاً ، وكانت الشموع قد أطفئت ثم عاد يخترق حجب الظلام باحثاً عن طيفي الفتاتين العائدتين إلى دارهما ، واحتجب المندبل الأبيض في غمرة الضباب ، وخشى أوليين أن يظل وحيداً . وأحس بقلبه يفيض بالسعادة ، فهبط درج المدخل قفزاً وأسرع الخطا خلف الفتاتين .

وقالت أوستنكا « ويحك ! قد يرانا أحد . . . »

- لا عليك !

وهرع أوليين إلى ماريانكا وقبلها ، ولم تقاومه الفتاة .
وقالت أوستنكا : « ألم تشبع من تقييلها ؟ تزوجها ثم قبلها ، أما الآن فيجمل
بك الانتظار »

- طابت ليلتك ياماريانكا ، سآنى غداً لألقى أباك وأنبئه بالأمر فلا تبوحى
لأحد بشيء .

وأجابت ماريانكا : « ولماذا أبوح ؟ »
وأخذت الفتاتان تركضان ، وسار أوليين وحده يفكر فى كل ما حدث ، وكان
قد قضى المساء كله معها فى ركن بجانب الموقد ، ولم تترك أوستنكا الكوخ لحظة
واحدة ، ولكنها كانت تلهو مع الفتيات الأخريات ومع بيليتسكى طول الوقت ،
وكان أوليين يحدث ماريانكا همساً
وسألها : « هلا تزوجنى ! »

فأجابت فى مرح وهدوء : « لتخدعنى ثم لا تزوجنى ! »
- ولكن أوتحيينى ؟ بالله عليك أفصحى !
- وأجابت ماريانكا وهى تضحك وتعصر يديه بيديها الصلبتين : ولم
لا أحبك ؟ إنك لست بأحول ! ألا ما أجمل يديك الناعمتين الناصعتى البياض !
ثم أردفت : إنها كالقشدة !

- إلى لجاد فى قوى فخيرينى أوتقبلين أن تزوجينى ؟
- وما الذى يمتنعى إذا رضى أبى أن يزوجنى أباك .
- جميل إذن ، اذكرى أنك إذا خدعتنى جن جنوى ، سأنبئ غداً أباك
وأملك وآتى لأخطبك .

وانفجرت ماريانكا بالضحك فجأة .

-- ما بالك ؟

-- يبدو لي الأمر مضحكاً جداً !

-- صدقت ! وسأشتري كريمة ومزلاً وأسجل اسمي في زمرة القوزاق
حذار إذن من أن تلاحق النساء الأخريات . فإني صارمة لا أتهاون في
ذلك !

وردد أوليين هذه الكلمات بينه وبين نفسه وهو يشعر بوقعها العذب في قلبه ،
وكانت ذكرى هذه الكلمات تؤلمه حيناً وتغمره بالفرح حيناً آخر حتى تضيق بها
أنفاسه :

أما الألم فبعبته أنها ظلت على هدوءها المعهود وهي تتحدث إليه ولم يملكها
شيء من الاضطراب لهذه الظروف الجديدة التي طرأت عليها حتى لكأنها لا تتق فيه
ولا تفكر في المستقبل ، وبدا له أن حبيبها كان وليد اللحظة التي هي فيها وأنها تبيى
عقلها لمستقبل تعيش فيه معه .

وأما الفرح فرجعه أنه لمس في كلماتها الصدق وتجلت موافقتها على الزواج منه .
وحدث نفسه قائلاً : « أجل ، لن يفهم كل منا الآخر إلا إذا أصبحت لي قلباً
وقالباً ، أما الكلمات فإنها تعجز عن وصف هذا الحب ، فهو يقتضي من المرء حياته ،
بل حياته بأسرها . وسيتكشف لي كل شيء غداً ، لما عدت أستطيع العيش على
هذا النحو بعد ، وسأقول كل شيء في الغد لأبيها ولليليتسكي ولأهل القرية
جميعاً .

وكان لو كاشكا قد أفرط في الشراب في العيد ، بعد أن قضى ليلتين أرقاً مسهد
الجفون ، حتى إن ساقيه عجزتا عن حمله للمرة الأولى في حياته فنام في منزل
يامكا .

الفصل الأربعون

وفي صبيحة اليوم التالى استيقظ أوليين من نومه مبكراً عن المعهود ، وتذكر
لثوه ما ينبغي أن يقوم به من أمور ، وطرب أيما طرب إذ استعداد ما مر به من قبلاتها
وكلماتها : ألا ما أجمل يدك الناصعتى البياض ! »
ونهض من فراشه وتمنى لو ذهب فى الحال إلى كوخ مضيفيه يسألها الموافقة على
زواجه بما ريانكا ، ولم تكن الشمس قد بزغت بعد إلا أن الشارع كان قد حفل
بالهرج والمرج على غير العادة . وكان الناس يروحون ويحيثون راجلين أو ممتطين
صهوة جيادهم ولا يكفون عن الحديث ، وألقى أوليين على كفيه سترته الجركسية ،
وهرع إلى مدخل البيت ، ولم يكن مضيفوه قد استيقظوا بعد ، ومر به خمسة من
القوزاق على ظهور جيادهم يتحدثون بأصوات عالية ، وكان لو كاشكا فى طليعتهم
يمتطى جواده الكاباردى العريض الظهر ، وكان القوزاق يتحدثون ويصيحون فى
نفس واحد ، حتى كان من المتعذر أن يتبين المرء ما يقولون فى وضوح وجلاء .
وصاح أحدهم : « اتجهوا إلى نقطة الحراسة العليا » .

وقال ثان : «أسرجوا جيادكم والحقوا بنا بسرعة !»
وصاح لوكاشكا : « ما هذا الذى تقولون ؟ يجب أن نمر من الباب الأوسط
بطبيعة الحال » .

وقال رجل من القوزاق وقد علاه الغبار وتصيب جواده عرقاً « أجل إنه أقرب
إذا سرتنا فى هذا الاتجاه » .

وكان وجه لوكاشكا أحمر متفخاً لإفراطه فى الشرب ليلة الأمس وقد دفع
بقبعته إلى مؤخر رأسه ، وطلق يتكلم بلهجة الأمر النهائى كأنما كان ضابطاً .
وسأل أوليين وقد وجد صعوبة فى استرعاء أنظار القوزاق إليه : « ما بالكُم ؟
وإلى أين أنتم ذاهبون ؟ »

- إتنا فى طريقنا للقبض على بعض الأبركة ، وهم يخفون بين الكثبان
الرملية ، لقد خرجنا لتونا ، ولكن عددنا لم يبلغ بعد الكفاية . ومضى القوزاق فى
صباحهم وأخذ عددهم يزداد ثم يزداد وهم يجتازون الشارع ، وخيل إلى أوليين أن
التخلف عنهم لا يليق به ، ثم دار فى خلده أنه يستطيع العودة بعد فترة وجيزة ،
فارتدى ملابسه وحشا بندقيته وقفز على ظهر جواده ، وكان فانيوشا قد أسرجه على
نحو لا بأس به ، ولحق بالقوزاق عند أبواب القرية وكانوا قد ترجلوا عن جيادهم
وملثوا طاساً خشبية بالحكير من برمبل صغير كانوا قد جاءوا به معهم ، وراحوا
يديرون الطاس فيما بينهم وشربوا نخب حملتهم ، وكان بينهم حامل علم متحذلق
شاب تصادف وجوده بالقرية ، فتولى قيادة هذه السرية من القوزاق التى يبلغ
عددها تسعة أشخاص ، وكانوا جميعاً سواسية أنفاراً لا يحمل واحد منهم أية
رتبة ، واتخذ حامل العلم صفة القائد . إلا أن القوزاق لم يطيعوا إلا لوكاشكا .
ولم يلق الجنود بالآ إلى أوليين أو يحفلوا به قط ، بل ركبوا جيادهم وبدعوا فى

المسير ، وامتنطى أوليين صهوة جواده ، وانجه إلى حامل العلم وأخذ يسأله جلية الأمر ، وكان حامل العلم رجلاً ودوداً بطبعه ، فأخذ يعامل أوليين في تلفت ظاهر ، ووقف أوليين منه على جلية الخبر بعد أن عانى في سبيل ذلك مشقة عظيمة ، فقد كان الكشاف قد أوفدوا للبحث عن الأبركة ، فوقعوا على بعض أهل الجبال على مسيرة ستة أميال أو نحوها من القرية ، وعمد الأبركة إلى الاختفاء في حفرة ، وأخذوا يطلقون النار على الكشاف معلنين أنهم لن يستسلموا ، وكان الأومباشى الذى خرج مكتشفاً صحبة رجلين من القوزاق - قد بقى لمراقبة الأبركة ، وبعث برجل من القوزاق لىأتى بنجدة .

وكانت الشمس تؤذن بالشرق في تلك اللحظة وامتد السهب ثلاثة فيرسات في كل اتجاه وراء القرية ، فلا ترى إلا سهلاً ممحلاً تملأ الأنظار قد غطته آثار أقدام الماشية ، وانتشرت فيه لم من الكلاً الذاوى ، وأعواد من القصب القصير في بساطته ، ودروب غير مطروقة إلا قليلاً ، ومضارب قبيلة التوغاي تبدو في الأفق باهتة المعالم ، وكان هذا المكان يمتاز بعدم الظل فيه ومظهره الكالح ، وكانت الشمس تشرق وتغرب دائماً متوهجة في السهب ، فإذا هدأت - كما كان حالها في ذلك الصباح - بدا السكون لا يقطعه حركة ولا صوت شاملاً يسترعى النظر بوجه خاص ، وقد طلع ذلك الصباح على السهب هادئاً كثيراً ، وإن كانت الشمس قد اعتلت السماء ، وكان يغشى النفوس شعور عجيب بصفاء الجو ولطفه .

أجل كان كل شيء ساكناً لا يتحرك ، وإنما كان وقع حوافر الجياد ونخيرها هي الأصوات (الوحيدة) التى تطرق الأذن ، وكانت هذه الأصوات أيضاً لا تلبث أن تخفت ، ومضى الرجال في صمت لا يتحدثون إلا لماماً ، والقوزاق يحمل أسلحته

دائماً فلا تصدر منها جلجلة ولا قعقة ، ذلك أن جلجلة السلاح عار عظيم عند القوزاق ، ولحق قوزاقيان آخران بالسرية ، وبادلا رجالها بضع كلمات ، وكان جواد لوكاشكا يتعثر أو تعلق ساقه ببعض العشب فيحرن ، وذلك نذير شؤم عند القوزاق له شأن خاص في مثل هذا الوقت ، وكان الآخرون يلتفتون إليه ثم يشيخون عنه ، وهم يحاولون ألا يلقوا بالألأ إلى ما حدث ، وكان لوكاشكا يجذب عنان جواده بقوة ، ويقطب حاجبيه تقطياً شديداً ، ويجز على أنسانه ويلوح بسوطه فوق رأسه ، وكان جواده الكاباردى الأصيل يتوثب ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، لا يدرى بأيها يبدأ وقد بدا كأنه يهم بأن ينشر جناحيه ويطير ، ولكن لوكاشكا كان يضربه على خاصرتيه الناعمتين بسوطه مرة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة . فيكشر الجواد عن أنيابه . وينشر ذيله وينخر ، ثم ينكص على قائمته الخلفيتين مبتعداً عن سائر الجياد بضع خطوات ، وقال حامل العلم : « ياله من كميته ! » وكان نعته الجواد بالكميت من قبيل التنويه بأصالته وعراقة أصله .

وأمن شيخ من القوزاق على كلامه بقوله : « إنه كالأسد في ثياب جواد ! » ومضى القوزاق قدماً وجيادهم تتخطر حيناً وتسير حيناً آخر ، وكان ذلك التقلب منهم هو الحادث الوحيد الذى يقطع لحظة سكونهم الشامل وجلال حركاتهم .

وقطع القوزاق في السهب ثمانية فيرستات أو نحوها ، ولم يبروا إلا نجيمة واحدة من خيام النوغاى أقاموها على عربة ، وراحوا يسرون ببطء على مسافة فيرست منهم تقريباً : ذلك أن أسرة من النوغاى كانت تنتقل من مكان في السهب إلى مكان آخر ، وصادف القوزاق من بعد امرأتين من النوغاى رثى الثياب برزت عظام

وجنائها . وكانتا تحملان على ظهرهما سلتين تجمعان فيها الروث المتخلف من الماشية الغائمة في السهب ، ولم يك حامل العلم يعرف لغتها جيداً ، وحاول أن يسألها ، ولكنها لم تفهم ما يقول ، وكان من الواضح أن الرعب قد دب في قلوبها ، فأخذت كل منها تنظر إلى الأخرى في قلق واضطراب .

ومضى لوكاشكا إليهما وأوقف جواده . ثم بادرا فأقرأهما السلام ، وبدا للعيان أنه قد سرى عنهما فأخذتا يتحدثان إليه في حرية واطمئنان حديث الأخت لأخيها . وقالت المرأتان في حزن : « آى - آى كوب أبرك ؟ » ، مشيرتين إلى « الجهة التي كان القوزاق يقصدون إليها » ، وأدرك أوليين أنها تقولان « جمع كبير من الأبركة » .

ولم يك أوليين قد رأى من قبل اشتباكاً من هذا القبيل ، وإنما كان يلم به إماماً بفضل الحكايات التي كان يقصها عليه العم يروشكا ، وأراد ألا يسبقه القوزاق في هذا الشأن ، وحرص على أن يشاهد كل شيء بنفسه . وكان ينظر إلى القوزاق نظرة ملؤها الإعجاب ويرقب الأمور في يقظة ويرهف سمعه حتى يخرج من ذلك بملاحظات الحاصة ، وكان الفتى قد حمل سيفه وجاء بيندقته بعد أن حشاها بالبارود ، فلما أدرك أن القوزاق يتجنبونه صبح عزمه على ألا يشترك في القتال ، وذلك أن شجاعته كانت امتحنت امتحاناً كافياً عندما كان مع فصيلته ، ثم إن قلبه كان إلى ذلك يفيض بالبشر والسعادة ، وطرق الأذان فجأة صوت طلقة انبعثت من بعيد ، وتمنك الاضطراب حامل العلم ، فأخذ يصدر الأوامر إلى القوزاق بما يجب عليهم من تقسيم أنفسهم ، ويبين لهم الجهة التي يهاجمون منها العدو ، فلم يبد على القوزاق أنهم يأبهون بأوامره ، وإنما كانوا ينصتون للوكاشكا وحده ، ولا ينظرون إلا إليه ، وكان وجه لوكاشكا بل مظهره كله يفصحان عن رباطة جأشه

ورزاته ، وقد حمل جواده على أن يغذ السير غداً عجز الآخرون عن ملاحقته ، وظل ينظر أمامه وهو يزر عينيه .

وقال لوكاشكا وهو يشد عنان جواده ، ويقف في صف واحد مع رفاقه :
« هاكم رجلاً يمتطي جواداً »

وأنعم أوليين النظر فلم ير شيئاً .

وسرعان ما تبين القوزاق راكبين ، فخصوا إليها في هدوء لا يلوون على شيء .
وسأل أوليين : « أهذان الراكبان من الأبركة ؟ » .

ولم يجب القوزاق عن سؤاله فقد بدا سخيلاً لا معنى له ، ذلك أن الأبركة ليسوا من الغباء بحيث يغامرون باجتياز النهر ممتطين صهوة جيادهم .

وقال لوكاشكا مشيراً إلى راكبين تجليا للعيان : « لاشك أن هذا هو صديقنا رودكا يلوح لنا بيده ، انظروا ! ها هو ذا مقبلاً علينا »

واتضح للقوم بعد لحظات أن الفارسين هما الكشافان القوزاقيان ، ومضى الأومباشي مبمماً صوب لوكاشكا .

الفصل الحادى والأربعون

وكان كل ما قاله لوكاشكا هو : « أترأهما بعيدين عنا ؟ »
وسمع الجنود فى هذه اللحظة عنها طليقة حادة على مسيرة ثلاثين خطوة أو نحوها ، وابتسم الأومباشى ابتسامة خفيفة وقال وهو يومئ فى اتجاه الطليقة : « إنه صاحبنا جوركا يرميهم بطليقة » .
وسار الجند بضع خطوات أخرى فأوا جوركا جالساً خفيف تل رملى صغير يخشو بندقيته ، ويقضع الوقت بتبادل الطلقات مع الأبركة الذين كانوا يختبئون خفيف كتيب رملى آخر . وانطلقت رصاصة تصفر من ذلك الاتجاه ، فعلا وجه حامل العلم الشحوب وتملكه الاضطراب ، وترجل لوكاشكا وألقى بعنان جواده إلى رجل من القوزاق الآخرين ، واتجه إلى جوركا ، وترجل أوليين أيضاً وحتى قامته ثم تبع لوكاشكا . وما إن بلغا جوركا حتى صفرت رصاصتان فوق رأسيهما ، والتفت لوكاشكا إلى أوليين ضاحكاً وانحنى قليلاً وأنشأ يقول : « حذار وإلا قتلوك يا ديمترى أندرييفتش ، وخير لك أن ترحل ، فإن هذا ليس بمكانك » .

ولكن أوليين كان قد صبح منه العزم على مشاهدة الأبركة ، ورأى على بعد مائتي خطوة أو نحوها الخوذات والبنادق تطل من خلف الربوة ، ولاحث فجأة نفخة من الدخان ومررت به رصاصة أخرى تصفر صغيراً ، وكان الأبركة يجثثون في مستنقع أسفل تل ، وتركز اهتمام أوليين كله في الموقع الذي لاذوا به ، وكان هذا الموضع شديد الشبه بسائر مواقع السهب ، ولكنه كان يبدو لوجود الأبركة فيه منفصلاً عن سائر مواقع السهب يتميز بطابع خاص به ، ولا جرم أن تبين لأوليين أنه أصلح موقع يمكن أن يتخذ الأبركة ، وعاد لوكاشكا إلى جواده ، وتبعه أوليين .

وقال لوكاشكا : « يجب أن نحصل على عربية دريس وإلا قتلونا جميعاً » ، « وهناك خلف الربوة عربية للنوغاي عليها حمل من الدريس » ، وأنصت حامل العلم إليه ، وأمن الأومباشي على قوله ، وجاءوا بعربة الدريس واحتسب بها القوزاق ودفعوها إلى الأمام ، وارتقى أوليين تلاً صغيراً يستطيع منه أن يكشف عن كل شيء ، ومضت عربية الدريس والقوزاق يتزاحمون من خلفها ، ثم تقدم القوزاق ولكن الججن - وكانوا تسعة - جلسوا حيناً وقد تلامست ركبهم وأحجموا عن إطلاق النار .

وكان السكون قد خيم على كل شيء . ثم ارتفع من صفوف الججن فجأة صوت أنشودة ناعمة تشبه أنشودة العم يروشكا « أي داي ، دالالاي » ، وكان الججن يعلمون أن لا مناص لهم من القتال ، فربطوا ركبهم بعضها إلى بعض حتى لا يغريهم الأمر بالهرب ، وأعدوا بنادقهم للإطلاق ، وأخذوا يشيدون نشيد الموت الخاص بهم ،

وشرع القوزاق يقتربون شيئاً فشيئاً محتمين بعربة الدريس ، وتوقع أوليين أن

يبدأ إطلاق النار في أية لحظة ، على أن السكون ظل محيماً على المكان لا يقطعه إلا صوت أنشودة الأبركة الناعمة ، وانقطع صوت الغناء فجأة ، ثم انبعثت طلقة حادة أصابت مقدم العربة ، وقطعت حبل السكون لعنات الججن وصرخاتهم ، وتعاقبت الطلقات فأصاب الرصاص العربة ، رصاصة في أثر رصاصة ، ولم يطلق القوزاق نيرانهم ، وكانوا وقتئذ على بعد خمس خطوات فقط من الججن .

ومرت لحظة أخرى ، ثم انطلق القوزاق من جانبي العربة يصرخون صرخات مدوية وفي مقدمتهم لوكاشكا ، ولم يسمع أوليين إلا بضعة طلقات أعقبها صباح وأنات ، وخيل إليه أنه رأى دخاناً ودماً ، فترجل عن جواده وهرع إلى القوزاق لا يكاد يدرى ما يفعل ، وقد بدا أن الرعب أفقده البصر ، وعجز الفتى عن أن يتبين شيئاً وإن كان قد أدرك أن كل شيء قد انتهى . وكان لوكاشكا قد شحب وجهه شحوب الأموات ، وأمسك بذراعى حريح من الججن صائحاً : « لا تقتلوه ، سأخذه حياً ! » وكان الججن هو الرجل الأحمر الشعر الذى نقل جثة أخيه بعد أن قتله لوكاشكا ، وكان لوكاشكا يقيد ذراعيه ، وتخلص من بدى لوكاشكا وأطلق عليه مسدسه ، فسقط لوكاشكا وأخذ الدم يتدفق من معدته ، ثم انتصب واقفاً ، ولكنه هوى مرة أخرى وهو يسب بالروسية والتترية ، وأخذ الدم يزداد ظهوراً على ملابسه ومن تحته ، وهرع إليه بعض القوزاق وبدءوا يفكون حزامه ، وأخذ أحدهم ، وهو نازاركا ، يلمس شيئاً . وظل على هذه الحال لحظة قبل أن يهم بإسعاف صاحبه ، كأما عجز عن أن يغمد سيفه في قرابه . فقد أبى السيف أن يسلك الطريق القويم إلى القرب ، ذلك أن نصله كان قد تحضب بالدماء .

وكان الججن - شعرهم الأحمر وشواربهم المخفوفة - قد أصابهم طلقات

البنادق فتمزقوا إرباً إرباً ولم ينج منهم إلا الرجل الذى أطلق النار على لوكاشكا وإن كان قد أثنى بالجراح فى أجزاء كثيرة من جسمه ، وكان الرجل يتلفت حوله فى نظرات وحشية وقد تشابكت أسنانه وربض ممسكاً خنجره فى يده متهيئاً للدفاع عن نفسه كأنه الصقر الجريح وقد تسربل بالدم (وكان الدم يتدفق من جرح تحت عينه اليمنى) ، وشحب لونه وعلت الكتابة وجهه ، ومضى حامل العلم إليه كأنما قد نوى أن يمر به مر الكرام ، وأطلق النار على أذنه بحركة سريعة ، ونهض الجحشى ، ولكن منيته كانت قد دنت فهوى إلى الأرض .

وأخذ القوزاق يجذبون الجثث ، ويحملون الأسلحة مبهورى الأنفاس ، لقد كان كل واحد من هؤلاء الجحش الحمر الشعور رجلاً يتميز بملاحة الخاصة ، وحمل لوكاشكا إلى العربة وهو لا يكف عن صب اللعنات بالروسية والتتية .

وصاح مناضلاً : « كلا ، فلتكفوا ، وإلا خنقته بيدي ! » ، على أن قواه خارت وعجز عن المضى فى الصباح .

وعاد أوليين إلى داره ، وقيل له فى المساء : إن لوكاشكا يحتضر ولكن تترأ من الضفة الأخرى للنهر أخذ على نفسه أن يشفيه بأعشاب من عنده .

وحملت الجثث إلى مركز القرية ، وتزاحمت النساء وصغار الصبيان من حولها يلقون عليها نظرة .

وكان الظلام قد بدأ فى الحلول عندما عاد أوليين ، ولم يستطع الفتى أن يجمع شتات نفسه بعد أن شاهد ما شاهد ، إلا أن ذكريات تلك الليلة أخذت تتدافع فى مخيلته عندما أقبل الليل يلف القرية بأستاره ، فأطل من النافذة وكانت ماريانكا تروح وتغدو بين المنزل وحظيرة البقر تصلح من شأنها ، ومضت أمها إلى الكرمة وأبوها إلى المكتب ، ولم يستطع أوليين الانتظار حتى تفرغ مما فى يدها من عمل ،

بل خرج للقاءها وكانت تقف في الكوخ وظهرها إليه ، وظن أوليين أنها بلا شك تشعر بالحجل .

فقال : « ماريانكا ! ماريانكا ! أسمحين لي بالدخول ؟ »
 والتفتت فجأة وقد اختفت أوكادت آثار الدموع في عينيها ، وكان وجهها
 جميلاً في حزنه ، ورنث إليه في صمت مهيب .
 وعداد أوليين يقول : « ماريانكا ، لقد جئت . . . »
 فأجابت : « دعني وشأني ! » . . . وظل وجهها على حاله . ولكن الدموع
 كانت قد أخذت تنهمر على خديها .

فيم بكائك ؟ ما خطبك ؟
 وردت على قوله في صوت أجش : « ما خطبي ؟ لقد قتل رجالنا القوزاق .
 وهذا هو الخطب ! »

وقال أوليين : « لو كاشكا ؟ »
 - اغرب عني ! ماذا تريد ؟
 وقال أوليين وهو يدنو منها : « ماريانكا ! »
 - لن تنال مني شيئاً !

وتوسل إليها أوليين قائلاً : « ماريانكا لا تقولي ذلك »
 وصاحت الفتاة وهي تضرب الأرض بقدمها وتتقدم نحوه مهددة : « اغرب
 عني . فقد سئمتك » ، وبدأ على وجهها من آيات البغض والاحتقار والغضب
 ما جعل أوليين يدرك فجأة أن لا أمل له فيها ، وأن ما انطبع في نفسه أول مرة من
 أنه لا سبيل إلى هذه المرأة كان صحيحاً كل الصحة .
 ولم يزد أوليين . بل خرج من الكوخ لا يلوى على شيء .

الفصل الثاني والأربعون

وعاد أوليين إلى داره وظل ساعتين راقداً في فراشه لا يتقلب ولا يتحرك ، ثم مضى إلى قائد سريته وطلب منه الإذن بأن يلحق بأركان الحرب ، وأخذ يستعد للرحيل إلى الحصن حيث كانت تعسكر كتيبته دون أن يودع أحداً مكثفياً بإرسال فانيوشا لتسوية حسابه مع رب الدار ، ولم يأت لوداعه إلا العم يروشكا . وقد شرب الرجلان كأساً ، ثم ثانية ، ثم ثالثة ، ووقفت بالباب تنتظره عربة سفر شدت إليها ثلاثة جياد ، كذلك التي كانت تنتظره ليلة رحيله عن موسكو ، ولكن أوليين لم يفعل ما فعله آنشد : ذلك أنه لم يقبل على نفسه يناجها ويقلب معها الأمور أو يحدّثها زاعماً أن كل ما فكر فيه أو فعله هنا كان مجافياً للحق والصواب ، ولم يُمنّ نفسه بحياة جديدة ، لقد كان يحب ماريانكا أكثر مما أحبا في أي وقت مضى ، ويعلم أنه لن يفوز بحبا أبداً .

وقال العم يروشكا : « وداعاً يا بني ! وإذا خرجت في حملة فكن حكيماً واذكر كلماتي ، كلمات شيخ محنك ، وإذا خرجت في غزوة أو ما أشبه - وأنت تعلم

أننى ذئب عجوز عركته الأيام - وبدعوا فى إطلاق النار فلا تندس فى زحمة تجمع من الرجال الكثير . فإنكم معشر الشباب إذا دب الرعب فى قلوبكم سعيتم دائماً إلى التكاثر فى لمة مع غيركم ظانين أنكم كلما ازددتم عدداً ازددتهم أنساً . ولكن فى ذلك الطامة الكبرى ! فإنهم لا يختارون لهدفهم إلا الزحمة وقد ألفت أن أبتعد عن الآخرين وأسير وحدى ، فلم يصيبى جرح واحد فى حياتى ، ومع ذلك فما أكثر الأشياء التى لم أرها فى حياتى ! »

وقال فانيوشا الذى كان يربب الغرفة : « ولكن ثمة رصاصة تستقر فى ظهرك »
فأجاب يروشكا : « إنها أثر من مزاح القوزاق »
وسأله أولينين : « القوزاق ؟ وكيف كان ذلك ؟ »

- إليك ما حدث بالضبط : لقد كنا نشرب ، فاستخفت النشوة فانكا سيكتين . . . ففرقع ! وأصابنى برصاصة من غدارته هنا تماماً ! »
وسأله أولينين « وهل آذتك ؟ » ثم أردف : « فانيوشا أو تنهى من التجهز للسفر سريعاً ؟ »

- وفيما العجلة ؟ دعنى أقص عليك القصة . . عندما أطلق على النار لم تكسر الرصاصة العظم ، بل استقرت فى موضعها ، فقلت : لقد قتلتنى أيها الأخ ، ترى ماذا فعلت بى ؟ ولكنى لن أقتلك . لقد حق عليك أن تقدم لى ملء سطل من الخمر ! »

وسأله أولينين مرة أخرى وهو لا يكاد ينصت إلى القصة « ولكن أو آذتك الرصاصة ؟ » ،

- دعنى أتم قصتى : وقدم لى الرجل سطلاً من الخمر وشريناه ، ولكن الدم ظل يتدفق حتى خضب الغرفة جميعاً ، فقال الجد بولاك « إن الفتى سيلقى حتفه ،

أسعفه بزجاجة من النبيذ الحلو وإلا قدمناك للمحاكمة ! فجاءونى بمزيد من الخمر فشربنا وشربنا . . . »

وسأله أوليين للمرة الثالثة : « لا عليك ! قل لى أو آذتك كثيراً ؟ »
 - لقد آذنى حقاً ! لا تقاطعنى فإنى لأحب المقاطعة ، ودعنى أتم قصتى :
 شربنا حتى الصباح التالى ، ونمت فوق الموقد وأنا سكران سكرأً بيناً ، واستيقظت فى صباح اليوم التالى فعبزت عن أن أنصب قامتى . . . »
 وردد أوليين قوله : « أكانت مؤلة جداً ؟ » ، ظناً منه أنه يستطيع أخيراً أن يفوز من العجوز بجواب .

- أوقد قلت لك : إنها كانت مؤلة ؟ لم أقل : إنها كانت مؤلة ولكنى لم أكن أستطيع أن أنصب قامتى ولا أستطيع أن أسير .
 وسأله أوليين وقد غلبه الحزن حتى استعصى عليه الضحك « ثم التأم الجرح ؟ »
 - أجل التأم الجرح ، ولكن الرصاصة لا تزال مستقرة فى جسمى ،
 هلا تحسست موضعها ! ، ورفع العجوز قبضه وكشف عن ظهره القوى حيث كان موضع الرصاصة ملحوظاً قرب العظم تماماً .

وأنشأ يقول وقد بدا أنه يلهو بالرصاصة كأنه يلهو بلعبة : « تحسس كيف تدور ؟
 تحسس ، إنها الآن مقلوبة »

وسأله أوليين : « أو يشنى لو كاشكا ؟ »
 - علم ذلك عند الله وحده ! فليس فى القرية طبيب وقد مضوا يلتمسون طبيباً .

وسأله أوليين : « وأين يلتمسونه ؟ فى جروزنايا ؟ »
 - كلا يا بنى ! ولو كنت أنا القيصر لشقت كل أطباؤكم الروس مند أمد

بعيد ، فهم لا يعرفون إلا البتر ! انظر إلى باكلاشيف مواطننا القوزاق ، فإنه لم يعد رجلاً بمعنى الكلمة مذبتوا ساقه ! . وفي هذا الدليل على غيابهم ! ترى أى شيء يصلح له الآن ؟ لا يابنى ، إن فى الجبال أطباء بحق ، وإليك صديق جيرشيك ، فقد كان فى حملة مرة وأصيب بجرح هنا فى الصدر . وقال أطباؤكم : إن شفاه ميتوس منه ، وجاء طبيب من مواطنيه أهل الجبال وشفاه ! إنهم خيرون بالأعشاب يا ببنى ! »

وقال أولينين : « هلاكفت عن هذا الهراء ! خيرلى أن أبعث إليه الطبيب من مقر القيادة » .

وقال الشيخ فى سخرية : « هراء ! حمق ! هراء ! تبعث إليه بطبيب ! - لو أن أطباءكم يستطيعون شفاء المرضى لالتمس القوزاق والججن عندكم الدواء ! ولكن الحق أن ضباطكم وأميرالاياتكم التمسوا الأطباء من الجبال ، إن أطباءكم غشاشون ! أجل كلهم غشاشون ! »

ولم يحب أولينين ، ولكنه آمن حق الإيمان بأن كل ما فى العالم الذى عاش فيه والعالم الذى كان وشيك العودة إليه غش فى غش وخداع فى خداع !
وسأله « كيف حال لوكاشكا ؟ أومضيت لعبادته ؟ »

- إنه يستلقى فى فراشه كالميت المسجى ! لا يأكل ولا يشرب ، ولا يتناول شيئاً إلا الفودكا ، وما دام يشرب الفودكا فلا خوف عليه ، إنه ليحزننى أن أفقد هذا الشاب ، ياله من فتى شجاع مثلى ! لقد كنت أحتضر على هذا النحو مرة ، وراحت النسوة العجائز يولولن ويندبن ، وكان رأسى يحترق كأنما اشتعلت فيه النار ، وبلغ بهم الأمر أن مددوني تحت الأيقونات المقدسة ، ورقدت على هذه الحال ووقف فوق رأسى على الموقد طبالون صغار لا تزيد قامتهم على هذا يدقون نوبة

« التمام » ، وصحت فيهم فما ازداد قرع الطبول إلا شدة وعنفاً (وضحك الشيخ) ، وجاءت النسوة بقسيسنا وكن يتهيان لدفنى ، وقلن ، لقد دنس نفسه بمخالطة الكفار من أهل الدنيا ! وكان يمزج مع النساء ويقتل الناس ، وترك الصوم ، وراح يعزف القيثارة (اللاليكا) ، ثم قلن : اعترف بذنوبك ، فبدأت أعترف ، وقلت : « لقد أذنبت » ، وكلما قال القس شيئاً أجبته بقولى : لقد أذنبت ، وبدأ يسألنى عن القيثارة قال : أين ذلك الشيء الملعون ؟ أرنيها وحطّمها ، فقلت : ولكنها لم تعد فى حوزى ، وكنت قد أخفيها بنفسى فى شبكة بالكوخ الصغير ، وأيقنت أنهم لن يستطيعوا العثور عليها ، فتركوفى وشأنى ، ولكنى شفيت على الرغم من ذلك ، وعدت إلى قيثارتى . . . ! » ومضى يقول : « حسن ، ماذا كنت أقول ؟ استمع إلى وابعد عن الرجال الآخرين وإلا عملت على قتل نفسك دون مبرر ، إن عواطفى معك وهذه هى الحقيقة فأت سكير وأنا أحبك ! والشباب على شاكلتك يحبون أن يرقوا الربا ، لقد كان يقيم هنا شاب أقبل من روسيا وكان يحب دائماً أن يرقى الربا بجواده ، وقد جرى على أن يسميها « التلال الصغيرة » أو ما شابه ذلك من أسماء غريبة أخرى ، وكان كلما رأى رابية ارتقاها ، وحدث أن ركض مرة بجواده ومضى فى ذلك الطريق وارتقى قمة الرابية وقد ملأ عطفيه الزهو والفخار ، ولكن رجلاً من اللجن أطلق عليه النار فأراد قتيلاً ، ما أبرع أولئك اللجن فى التصويب من مساند بنادقهم ! وبعضهم يتفن إطلاق النار أكثر منى ، وإنى لأحب أن يقتل الشبان على هذا النحو فى غير ما جريرة ، ولقد كنت أحياناً أنظر إلى جنودكم وأعجب لأمرهم ، وهذا بلا شك غباء منكم ، ذلك أن المساكين يسرون جمعاً واحداً ، بل يخطون البنيقات الحمر فى ستراتهم ، فكيف لا يصيبهم الرصاص ؟ وما إن يقتل الواحد منهم حتى يحجروه بعيداً ويحل آخر

عمله ! . . . وردد الشيخ وهو يهز رأسه « يا للغباء ! ولم لا يتفرقون ويسيروا فرادى ، أجل سر على هذا النحو لئلا يصيبوك بأذى ، وهذا ما يجب عليك أن تفعله ! » وقال أوليين وهو ينهض متجهاً صوب الدهليز : « شكراً لك ، إلى اللقاء أيها العم ! » وسوف نلتقي مرة أخرى بإذن الله ، وكان الشيخ مفترشاً الأرض فلم ينهض . وشرع يقول : « أهكذا تودع الناس ؟ غي ، غي يا إلهي ما الذى دهي الناس ؟ لقد تصاحبنا . تصاحبنا سنة أو ما يقرب من السنة ، ثم يقول « وداعاً » ثم يرحل ! ويحك ! إننى أحبك ولشد ما أرتى لك ! إنك لشقى محزون ، تخلو إلى نفسك دائماً ، ولا يؤنس وحشتك أحد ، ويدولى أنه ليس لك من محب ، إن النوم يعز على أحياناً من التفكير فيك ، وإني لأرتى لك ، وما أشبه حالك بقول الأغنية :

هيات أيها الأخ العزيز

أن تعيش في بلد غريب !

وقال أوليين مرة أخرى « وداعاً »

ونفض الشيخ ومد إليه يده ، فضغط عليها أوليين ثم استدار متأهباً للرحيل .

« أين وجهك ؟ » وأخذ الشيخ رأس أوليين بكلتا يديه وقبله ثلاث مرات

مبلى الشارب والشفتين وراح يبيكى .

— إننى أحبك ، وداعاً !

وركب أوليين العربة .

وقال الشيخ وهو يتعجب في إخلاص وصدق : « إيه ! أهكذا ترحل ؟ يحملك

بك أن تعطى شيئاً أذكرك به ، أعطى بندقية ! فما حاجتك إلى اثنتين ؟ »

فأخرج أوليين بندقية وأعطاه إياه .

وغمغم فانيوشا قائلاً : « لقد أعطيت الشيخ الكثير ، وهو لا يقنع أبداً ! يا له من متسول عجوز ! » ، ثم أردف وهو يلتف بمعطفه ويتخذ مقعده على صندوق العربة ! « إنهم جميعاً قوم من الشذاذ لا يعرفون نظاماً ! » فصاح به الشيخ وهو يضحك : « اعقل لسانك أيها الخنزير ! يالك من فني شحيح ! »

وخرجت ماريانكا من حظيرة البقر ونظرت إلى العربة في غير ما اكتراث وحنث رأسها ثم اتجهت إلى الكوخ ، وقال فانيوشا بالفرنسية وهو يغمز بعينه ويضحك ضحكة بلهاء : « الفتاة ! »

فصاح به أولينين غاضباً : « سر ! » وصاح يروشكا : « وداعاً يا بني ، وداعاً ، لن أنساك : » والتفت أولينين خلفه ، فرأى العم يروشكا يتحدث مع ماريانكا في شتونه الخاصة على ما يظهر ، ولم ينظر الشيخ أو الفتاة إلى أولينين !

رقم الإيداع	١٩٨٠/٣٥١٥
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٠-٩٦-٠

١/٧٩/٢٩٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

